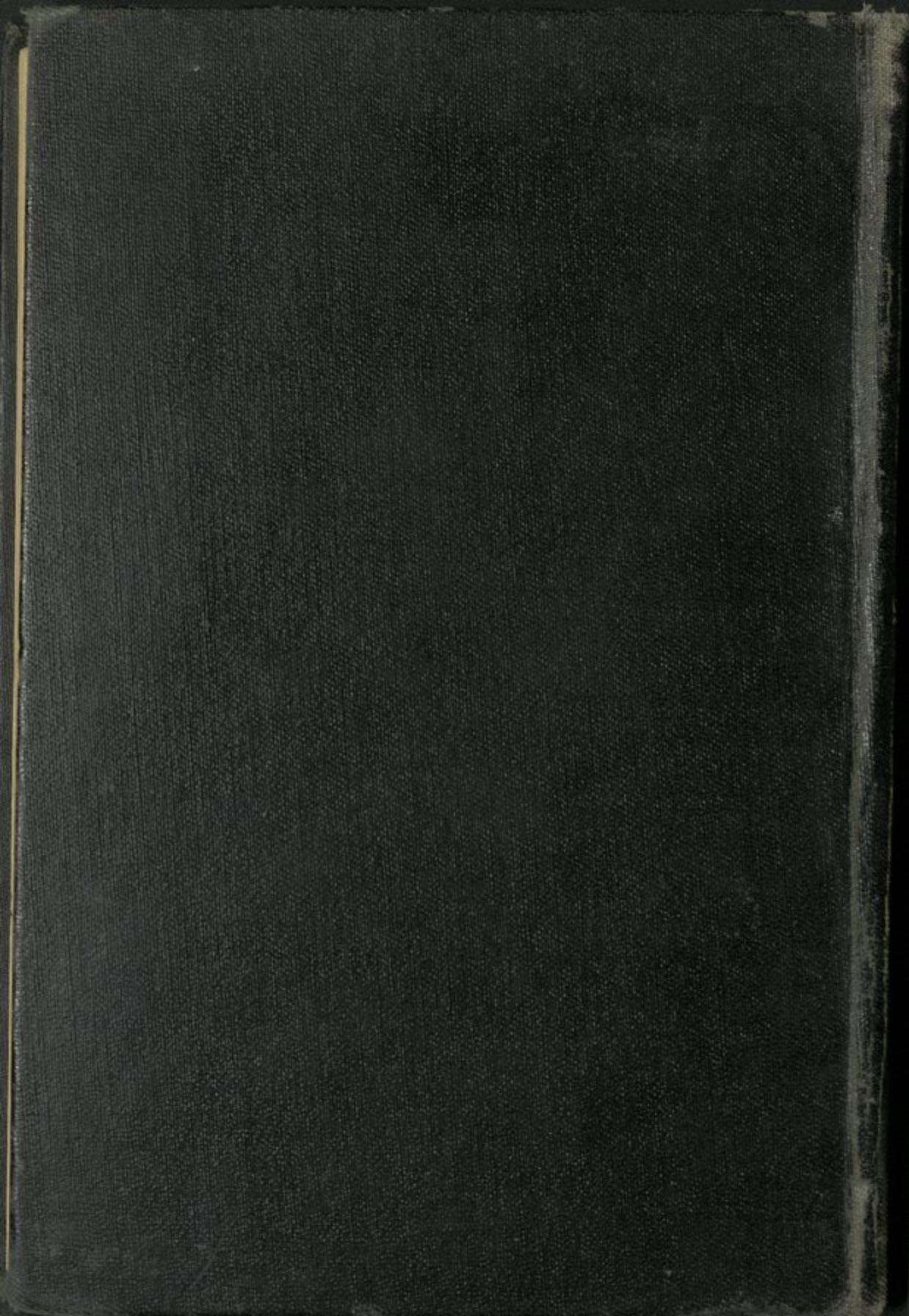
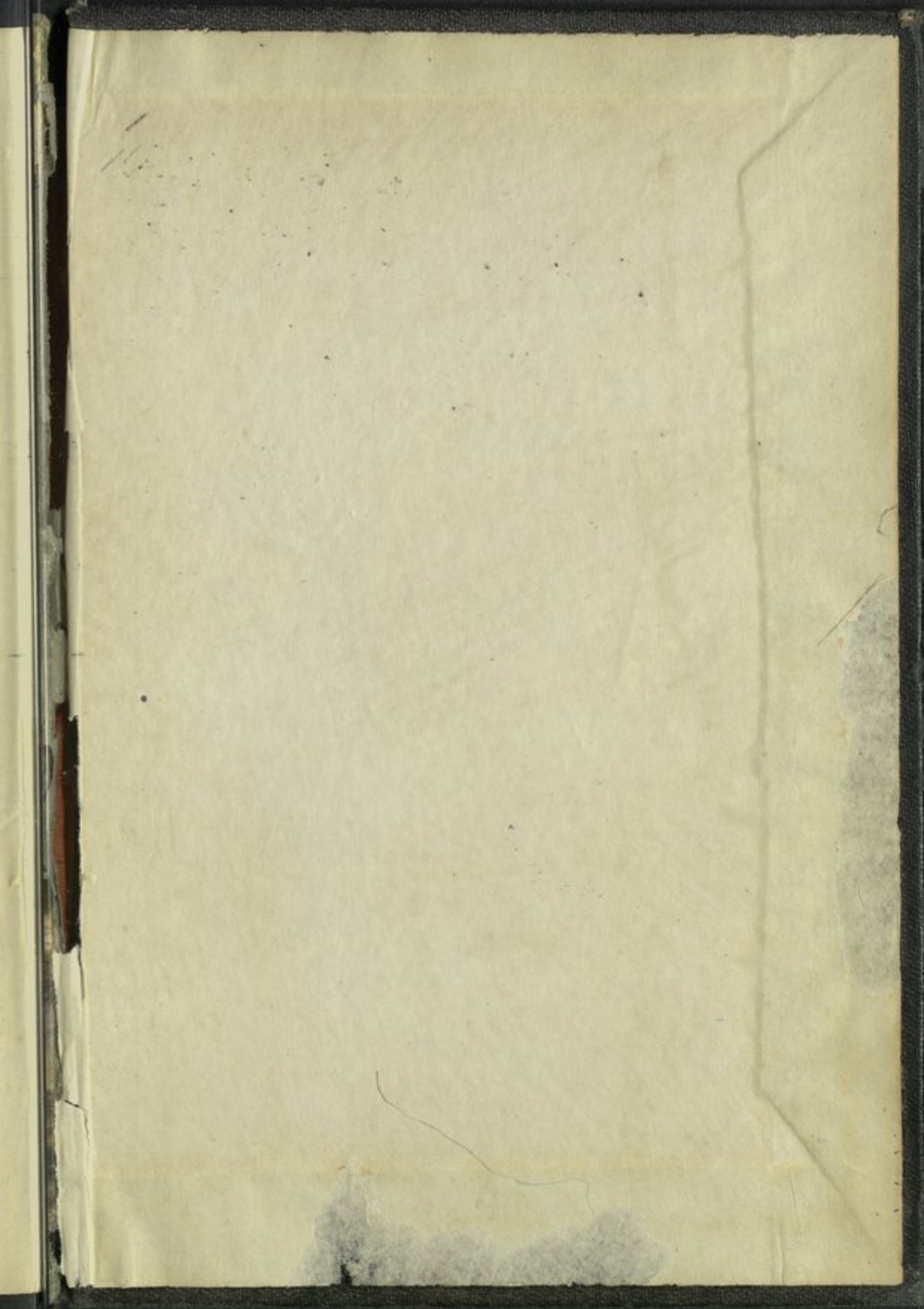






الفكر الاجتماعي

مجلد اول

۱۳۱۱

301
110611

محمد علی حسینی

تقریباً ۱۳۱۱

68533

کتابخانه ملی
تهران

Cilt - Outlier

Oct. July 1949

301
H961fA
C.1



الفكر الاجتماعي

خواطر ومحطات

محمد يونس الحسيني

القاهرة

١٩٤٨ - ١٣٦٨ هـ

68533

دار جيساء الكتب العربية
عيسى البستاني الحائلي وشركاه

Gift - Author Cat. July 1949



عقوبة الرقعة

مجلد

نصف

فصل

كتاب

مجلد

مجلد

الاهداء

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
في ساعات حرجة وليال مدلهمة .

قالت : « ألا تجمع من شتات هذه الأحاديث كتاباً ؟ »

قلت : « بلى ، وسأهديه إليك . »

فإلى زوجي الفاضلة أقدم هذا الكتاب .

مقدمة

بقلم : كامل كيلاني

(١)

في فترة عارضة من فترات السكامة والملل ، أعقبت ساعات جاهدة من العمل ، فتحتُ هذا الكتاب كما اتَّفَق ، فكان أول ما وقعت عليه عيناى تلك الصورة التي قبسها المؤلف ، حين عرض لعبادة العرب للأشجار والحجارة^(١) ، وهي تمثل للقارىء لونا عجيبا من أخيلتهم ، وترسمُ صورة رائعة مما استقر في أخلادهم ، وتجلو بعض ما كانوا يتناقشونه من الأساطير عن معبودتهم « العزى » التي كانوا يتخيّلونها شيطانة ثائرة ، تبدو لمن يراها في صورة حبشية غَضْبَى ، تأتى ثلاث سمرات (شجرات من أشجار الطلح) نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، وهي تصرّفُ بأنيابها تستحقّها وتحكُّ بعضها ببعض حتى يُسمع لها صوت) .

وما كدت أبلغ قول المؤلف المفضل :

« وكذلك كانت عبادتهم لذات أنواط ، فقد اعتقدوا أن معبوداتهم الحيّة كانت تحلُّ تلك الأشجار والأحجار . »

حتى طوبتُ الكتاب ، على عادتي كلما بلغت من المطالعة فترة يحسن الوقوف عندها ، والتفرغ لها . وسرعان ما استغرقني التفكير ، وأسلمني التأمل إلى عوالم فسيحة من الحقائق التي تفوق الخيال في غرابتها ، ولم أتمالك أن رجعت القهقري حتى بلغت العصر الجاهلي الذي طالما عشت فيه ، تارة في صحبة مؤرخي العرب والفرنجية ، وتارات في صحبة المبدعين من الشعراء والكتاب . ويا طالما نعمت بالتجوال في ذلك العصر الغابر ، وأنست بارتياذ روائعه في رفاقة أستاذي « المعري » ، وطالما انتفعت بإشاراته في رسالة الغفران وما إليها من بديع آثاره . كما انتفعت بصحبة

العلامة « دوزى » فى ارتياد كثير من تلك المجاهل السحيقة ، حين ترجمت طائفة من
فصوله الممتعة التى أودعتها كتاب : « ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الإسلام » .
فلا عجب إذا عاودنى الحنين والشوق إلى استئناف الدرس حين طالعت تلك
الفقرات :

« وذوالشوق القديم — وان تعزى — مشوق حين يلقي العاشقين »
ولا عجب إذا توائمت الخواطر ، وتنافعت الذكريات ، فلم أدر أيها أثبت وأيها
أدع ، ولا عجب إذا نسيت أن على أن أكتب مقدمة موجزة فى بضع صفحات ،
لا دائرة معارف فى عشرات من الأسفار المطولات .
ورأيتنى أستعرض — عن غير قصد — طائفة من أمثال هذه الأسطورة العربية
الشائعة التى أثبتتها المؤلف المفضل فى كتابه النفيس ، متمنياً أن يتعاون معه طائفة من
أعلام القصة لاستغلال أمثال هذه الأسطورة العربية البارة ، بعد أن تظاهروا طائفة
من كرام الباحثين على درس هذا التراث الحافل ، وتعرف رموزه وحل معيياته ،
وتجلية ما غمض من خوافيه وأسراره ، وأن يُعَنِّوْا بإحيائه كما عنى غيرهم من شعراء
الغرب وأعلام كتابه وباحثيه ، وأفذاذ علمائه وقصاصيه ، باستغلال ما ظفروا به من
الأساطير الإغريقية وما إليها من أساطير الأمم القديمة .
ولم أتمالك أن شكرت للمؤلف عنايته المحمودة بهذا اللون الفكرى البديع .
ورأيتنى أجرى على عادتى فى التعليق على هامش ما أقرأ من نفائس الكتب .
وانثالت المعانى والصور وتتابعت حتى خشيت — كما أسلفت — أن تدفعنى إلى
تأليف سفر ضخم . فاجتزأت بإثبات بعض ما قاله « المعرى » فى هذه الشجرة المخطوطة
التي أطلقوا عليها « ذات أنواط » ، فقد أشار إليها فى رسالة الغفران إشارة نافعة حين
عرض للحديث عن أشجار الفردوس فقال :

« وذات أنواط شجرة كانوا يعظمونها فى الجاهلية . وقد روى أن بعض الناس
قال : يارسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . »

وهنا قبس « المعري » قول أحد الشعراء :

« لنا المهيمن يكفيننا أعادينا كما رقصنا إليه ذات أنواط »

وفي بعض هذا دليل على ما بلغت ذات أنواط من خطر الشأن ورفعة المنزلة .
وقد شغل المعري - في أكثر من موضع من نفائس كتبه - بهذه الشجرة ،
التي ظفرت - على حقارتها - بمثل هذا التكريم ، وأفردها الحظ بما لم يظفر به
غيرها من إجلال وتعظيم ، فأضفى عليها عبادة من القداسة هالة باهرة ، ففتنهم
وسحرت ألبابهم واستعبدتهم . فأكبروا من أمرها ماصغر ، ومجدوا من شأنها ماحقر ،
ولم يكتفوا بعبادتها في جاهليتهم ، فراحوا يكثررون الرسول ﷺ بها ، ويطلبون إليه أن
يهيئ لهم شجرة تماثلها وتساميا في قداسها وشرفها .

وهكذا أدرکہا الحظ - على عقمها من الثمر - كما يدرك بعض الأغمار التفهين من الناس ،
فيضن عليهم ألوانا من النباهة والرفعة ، على ما ركب في طباعهم من العقم والحقارة
والعجز . وفي هذا يقول المعري :

« والجدد يدرك أقواما فيرقعهم وقد ينال إلى أن يُعبد الحجر »

وشرفت ذات أنواط قبائلها ولم تباين - على علامتها - الشجرة »

وكانت « ذات أنواط » سُمرة (شجرة طلح) ، لا تكاد تختلف عن تلك السُمرات
الشائكة الثلاث التي كان الجاهليون يتخيلون معبودتهم « العزى » قادمة عليها في
صورة حبشية .

ولا تختلف عن السُمرات التي أشار إليها امرؤ القيس في معلقته حين قال :

« كاني غداة البين ، يوم ترحلوا لدى سُمرات الحى ناقف حنظل »

وشجر الطلح معروف ، وقد أشار إليه المرحوم شوقي بك حين قال :

« يا نائح الطلح أشباه عوادينا نأسي لواديك ؟ أم تأسي لوادينا ؟ »

كما أشار إليه « المعري » ونبهه إلى إجداب هذا الشجر ، وعقمه من الثمر ،

في قوله :

« وأبغضتُ فيكَ النخلَ ، والنخلُ يانعٌ وأعجبني - من حُبِّكَ - الطلحُ والفضالُ »
وقد ألف العرب أن يطلقوا على شجرة الطلح « أم غيلان » . وإلى هذه الكنية أشار « المعريُّ » في تهكم بارع :

« سَلَّ أمَّ غَيْلَانَ الصَّمُوتَ عن ابنِها وبناتِ أُوْبَرَ ، مَنْ أُوْبَهَا أُوْبَرُ ؟ »

(٢)

والطلح - فيما يعلم القارىء - شجرٌ عظامٌ من شجرِ العِصاه ، الذى لا يُشمرُ غيرَ الشوكِ ، ترعاه الإبلُ إذا أعوزَها الزاد ، فلا تكاد تستسيغه إلا مضطرة ، وقلمًا تسلم من غُصَصه ورِعلِه . فلا عجب إذا اتخذوه رمزًا للشر ، وصاغوا من « السُمرةِ » لفظًا : « السُمرةَ مرة » : لقب الغول ، وجعلوا من شجرها مزارًا لتلك الشيطانة الحبشية الغَضبية التى تقدِّمُ السُّمراتِ الثلاثَ - كما تمثِّلها الأُسطورة - نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تحسِّقُ الأَرَمَ (تحك أنيابها حتى يسمع لها صريف) من شدة الغيظ .

فلا عجب إذا استخرج العرب - من هذا الشجر وغيره - ألفاظًا تدل على طائفة من معانى الشر ، فاشتقوا الطلاح (الفساد) من الطلح ، كما اشتقوا من ثمره الشائك ألفاظًا منظوبة على طائفة من معانى السَّحَرِ والإِفْكِ والكِذْبِ والأَذية^(١) .

فإذا سأل القارىء : « وماذا خصَّوا هذه السُمرةَ بهذا اللقب ؟ وكيف أطلقوا عليها : « ذات أنواط » ؟ همس في أذنه بعض مؤرخى العرب ، ومنهم « ابن الأثير » : « إنها سميت كذلك لأنَّ المشركين كانوا يتنوطون بها سلاحهم (يُملقونه) ويمكفون حولها » .

وربما همس في أذنه بعض الباحثين : « إنهم أطلقوا عليها ذلك اللقب ، لما تميزت به مما كان يتبدل من أغصانها الكبيرة من أنواط . »

(١) يقال أعضه الرجل : جاء بالإفك . والعاضه : الساحر . وحية عاضه : تقتل من ساعتها إذا نهشت .

والنوط — كما يعلم القارىء — هو القفّة الصغيرة التى تحمل ثمار هذه الشجرة ،
السامقة العقيم .

(٣)

وهكذا أسلمتني هذه الأسطر القلائلُ إلى طائفة من التأملات ، أزاحت ما كان
مُسْتَوِلياً على نفسى من السآمة والملل ، ونفضت عنى غبار الفتور والكسل ، وأعادت
إلى النشاط ، فأقبلت على الكتاب أقرؤه من أول سطره ، متنقلاً بين فصوله الشائقة ،
من صفحة إلى صفحة ، حتى انتهيت إلى خاتمه ، وأنا شيقٌ إلى الاستزادة من حديث
هذا الباحث الموفق المُثْمِر الذى لا يملُ البحث ، ولا يملُ قارئه من متابعته فى عوالمه الفسيحة .
ورأيت المؤلف يتنقل بين مجاهل التواريخ التى طوَّبت على مر الأزمان ، وعفى
عليها تطاول الأمد ذبول النسيان ، فلم يُبق الدهرُ من آياتها وحقايقها وأحداثها —
إلا ظنوناً وأحداًساً وأخيلة ، لا تكاد تثبتُ على الاختبار والبحث . ثم لا يزال مؤلفنا
يتنقّل فى فصوله الشائقة حتى يبلغ المدى من رحلته الفكرية ، وينتهى إلى عصرنا
الحافل بألوان من الحقائق ، تكاد — لغرابتها — تفوق عجائب الخيال .

(٤)

وهكذا صَحِبَتُ المؤلف وهو يتابع سير الإنسان ، منذ أقدم العصور ، حين كان
يقيم مع قبيلته بين الأشجار ، وفى الكهوف ، وقد أكتسى جسمه بشعرٍ كثٍ
يصارع الوحوش ويطاردها فى الأدغال ، ويقتات بالبذور ، ويعيش على لحوم فريسته
التي يمزقها بأظافره ويقطعها بأسنانه ، كما يفعل أضرابه من الوحوش .
ثم لا يزال المؤلفُ يسير الإنسان القديم مُرتقيّاً به ، فى أسلوب تصويرى جذاب
حتى يصل إلى العصر الحاضر ، فى قرابة مائتين من الصفحات الحافلة بالملاحظات
والتوجيهات ، بعد أن ضمّنَ التوفيق فيما قبسه ونخبه من الكتب : عريّةً وأجنبيةً ،
وفى معرض له من تحليل ومناقشة ، وتأليف بين أشتاتها ، وتمحيص لرواياتها ، منذ
صحب الإنسان الأول إلى أن بلغ العصر الحاضر : عصر الآلات والمناجم والبخار

والكهرباء والطائرات والسمي والراديو والتلفزيون . ولم ينسَ ذلك المَعْرِضُ الحاشدُ — الذى افنَّ فى إقامته وتنسيقهِ — ما وراء تلك الصور المادية من السَّجَايا والأخلاق الإنسانية ونشأة العادات ، وأثر الأديان والشرائع والقوانين فى الأفراد والجماعات ، وأى حافزٍ دفع الإنسانَ إلى منازعة الوحوش فى الغابات ، وأى قوة أمكنته من قهرها والتغلب عليها ، بفضل مامنحه الله من عقل وتفكير . وكيف استقبل الإنسان فجر المدنية وهو — فيما يقول المؤلف — : « يتقدم ببطء من جمع الأطعمة إلى الصيد ، ومن الجماعة المشتتة إلى القبيلة ، ومن ثمَّ يتطور فيشكل نظاما اجتماعيا ، ويوزع الوظائف بين الأفراد . كما لم يُنْسَ أن يَعْرِضَ لِهَضَاتِ « مصر » و « بابل » و « فلسطين » و « الهند » و « الصين » و « اليونان » و « الفرس » و « رومة » .

(٥)

وقد ألم المؤلف — على ذلك — إلصامه بآراء أنواع الزواج فى الجاهلية ، وقبس طائفة من الأمثلة تبين اختلاف نُظُمِهَا وتباين عاداتها ، ولم يَقْتَهُ أن يُنْبَهَ إلى ما ألفت به بعض قبائل العرب فى زمن الجاهلية « من نسبة أولادهم إلى أمهاتهم قبل أن ينهزم الإسلام ، وكان نهيه صريحا فى قوله تعالى : « ادعوهم لِآبَائِهِمْ ، هو أقسط عند الله » . وهى — فيما أرى ويرى غيرى من الباحثين — عادة جرى عليها الروم فى قديم الزمان ، ولعلمهم كانوا أسبق إليها من العرب .

وقد أشار المعرى فى لزومياته إلى هذه العادة ، إشارة ساخرة قاسية ، فقال :

« ولحب الصحيح آثرت الروم انتساب الفتى إلى أمهاته
جَهِلُوا من أبوه ، إلا ظنونا . وطلا الوحش لاحق بَمَهاته »

(٦)

أما بعد :

فقد كانت مفاجأة سعيدة ، حين تفضل مؤلف هذا الكتاب النفس فعهد إلى بتقدمه ، ولم يكن عمر التعارف بيننا يزيد على دقائق معدودة ، كانت كافية للتألف .

ولا غرو في ذلك فإن الأرواح جنودٌ مجنّدةٌ ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وهكذا أغنت اللحظات القليلة عن العشرة الطويلة ، وكانت — على قصرها — كافيةً لانسجام رُوحينَا، نخيل إلينا أننا تعارفنا منذ النشأة الأولى . وكان من ثمرات هذا اللقاء العارض أن عرفت شغف المؤلف بالبحث والاطلاع ، وعنايته بتتبع آثار « ابن النديم » صاحب الفهرست والترجمة له في مجلة المجمع العلمي العربي ^(١) . وتوفّر على درس الدعوة الإسماعيلية في رسائل إخوان الصفا ^(٢) ، وإقباله على كتابة فصول النقد وأعمال البنوك في كتاب : النظام الاقتصادي في فلسطين ^(٣) .

وكتابه : التطور الاجتماعي والاقتصادي لفلسطين العربية ^(٤) .

وهكذا رأيت مؤلفنا يتنقل في بحوثه النافعة ، من عالم الاقتصاد إلى عالم الأدب ، كما يتنقل في حياته اليومية بين بنك الأمة العربية ومكتبته الضخمة الحافلة بألوان الثقافة والأدب ، فيذكرنا قول ابن المقفع :

« أمران يحتاج إليهما من يحتاج إلى الحياة : المال والأدب . »

ولاريب أن الأمم — كالأفراد — لاغنى لها عن بناء نهضتها على أساس متين ، يرتفع بناؤه على هاتين الدعامتين .

(٧)

وكان من ثمرات هذا اللقاء السعيد أن أتاح لي الظفر بقراءة هذه الخلاصة الممتعة التي تأتق مؤلفها في عرض تاريخ الحضارة الإنسانية عرضاً تصويرياً أخذاً ، يخيّل إلى قارئه أنه يشهد شريطاً من أبداع ما أخرجته السيّمي في العصر الحديث .
وقد عَلم القارئُ مما أسلفتُ أنني لم أكد أقلب صفحات كتابه حتى رأيت ما فتحتُ نفسي له ، وشجعني على البدء بقراءته من أوله ، فلم تنته الجلسة حتى أتممته ، وأنا شديد

(١) انظر المجلد الصادر سنة ١٩٣١

(٢) انظر مجلة الجامعة الأمريكية الصادرة ببيروت سنة ١٩٣٣

(٣) أصدرته الجامعة الأمريكية سنة ١٩٣٩ (٤) صدر عام ١٩٤٧ في القدس

الأسف على انتهائه ، وبودى لو امتدَّ هذا السفر التاريخي الحافل في أضعاف صفحاته ، ليؤدى إلى رواد الثقافة أضعاف فائدته ، ويحقق لهم الكثير مما تتوق إليه نفوسهم الضائعة إلى أمثال هذه البحوث ، التى وفق أصحابها إلى جمع أشتات المعارف ، وأحسنوا عرضها ، بعد أن أحسنوا استيعابها وفهمها .

(٨)

وازدحت الخواطر فى ذهنى - كما أسلفت - وتوالت التعليقات ، كلما انتقلت من صفحة إلى صفحة ، وخشيت أن أعاود قراءة الكتاب مرة أخرى فيضطرنى ذلك إلى الوقوف عند كل فكرة طريفة - وما أكثر ما يحويه من طريف الأفكار - وربما اقتضانى ذلك أن أتوسع فى الشرح والتعليق فتصبح مقدمة الكتاب أضعاف حجمه .

ورأيت أن مؤلف الكتاب كان قادراً على الاضطلاع بمفرده بهذا العبء الثقافى التوجيهى كله ، لو أمكنته فسحة من وقته المزدحم بما ينوء به من شواغل الأعمال ، وما يضطلع به من تبعات ثقال ، ولكننا الظروف القاهرة ، أعجلت المؤلف كما أعجلتنى . ولعله قصد إلى الإيجاز قصداً ليحقق لقارئه فى صفحات قليلة ما تستوعبه المطولات المستفيدة ، وهو غرض نبيل ، والحاجة إلى المختصرات مطلب جليل ، لا يقل عن الحاجة إلى المطولات . وربما زاد عليها فى بدء عصور النهضة ، لترغيب الزاهدين فى القراءة ، وتعبيد ما توعر من طرائقها أمامهم .

وحسناً صنَّع المؤلف حين عني بتوجيه قارئه إلى أمهات الكتب ليحبَّب إليه البحث ، بعد أن عني بتوجيهه وإرشاده وفتح آفاق جديدة له .

وما أجدر المؤلفين بالأخذ بهذا المنهج ، فهو من الأهداف النافعة ، يتوخاها طالبو الإصلاح فى مستهل النهضة ، تستقبلها الأمم التى طال عهدُها بالنوم ، وآن لها أن تنفض عنها غبار الخمول .

(٩)

أكرر القول؛ إنني وجدت في كل صفحة من صفحات الكتاب باباً للمناقشة وبجلاً للأخذ والرد والتعليق، ومشاراً للخلاف حيناً، والموافقة أحياناً .

وهذه أول مزايا الكتاب المثمر الناجح . وحسبي دليلاً على نقاسة ما أقرأ، أن يشير في نفسي ألواناً من البحث والتحريض، ويحفزني إلى ارتياد مختلف الميادين الفكرية التي صرفتني عنها عوادي الزمن وشواغله .

وقد كان من حسن حظ المؤلف والقارىء أن يتضافر على كاتب المقدمة ضيق الوقت، وزحمة العمل، ووعكة الصحة، وقلة الصفحات المخصصة للتصدير، فتُجمِله كل هذه الأسباب مجتمعة عن التفصيل والإسهاب اللذين تحاشاهما مؤلف الكتاب .

وكان من حسنات عصر السرعة الذي نعيش فيه، وما أوجبه المطبعة التي لانعرف التريث والبطء، ولا تبالى الوعكة ولا المرض، ولا تحفل الشواغل وزحمة العمل، أن نُعدَّ المقدمة في حيزٍ من الصفحات ثابت معدود، وزمن من الساعات مُؤَقَّتٍ محدود . ولولا ذلك لامتدب نفس القول كما امتدب « المعري » منذ ألف عام، حين أجاب عن رسالة « ابن القارح » برسالة الغفران، في أضعاف حجمها، وكما امتدب نفس القول بالأمر « شكيب أرسلان »، حين تصدى لتقديم كتاب « حاضر العالم الإسلامي »، فزادت صفحات مقدمته على مقدمة « ابن خلدون »، وتجاوزت شروحه وتعليقاته أضعاف حجم الرسالة التي عهد إليه مترجمها أن يقدمها .

ولا عجب في ذلك، فإن نفس القول إذا مددته امتدَّ، وتدارعى المعاني لا يعرف الوقوف عند حدٍّ :

« والفكرُ حَبْلٌ، متى يُمسَكَ على طرفٍ منه، يُنْطَقُ بالتَّوْبِيحِ ذَلِكَ الطَّرْفُ والعقل كالبحر، ما غِيضَتْ غَوَارِبُهُ شَيْئاً، ومنه بنو الأيام تغترف »

لأمل كبيرنى

محتويات الكتاب

الصفحة	الفصل
٣	الإهداء
١٢ - ٥	مقدمة بقلم الأستاذ كامل كيلاني
١٤ - ١٣	محتويات الكتاب
١٦ - ١٥	تعريف
٣٤ - ١٧	١ - صورة عامة :
	الإنسان الأول - العوامل الاقتصادية في حياة الإنسان - نشوء الأخلاق في المجتمع البشري - خواص الحياة الاجتماعية الابتدائية : (أ) أساليب المعيشة المادية (ب) المثل العليا للحياة الجماعية (ج) المؤسسات الاجتماعية - خلاصة البحث
٤٩ - ٣٥	٢ - الإنسان الأول :
	حياة الإنسان الأول - نظام الأسرة الأولى - الانتساب إلى الأمهات - غموض أنظمة الزواج - زواج الجماعات المشتركة - الزواج الفردي - أسرة الأبوة - زواج المشاركة عند العرب - أصل الطوطمية - الزواج بالأجنبيات - النزعة الأوديبية - تعدد الأزواج - رئيس الجماعة الإنسانية القديمة - الحرب عند جماعات الإنسان الأول
٥٨ - ٥٠	٣ - فجر المدنية
	تسكييف حياة الإنسان حسب محيطه - توزيع العمل بين الرجال والنساء - ملكية الحاصلات الشخصية - حقوق القبيلة وحقوق الفرد - ظهور الرق في العالم - ازدياد معرفة الإنسان بنفسه - الطوطمية عديمة النفع - أدوار التطور في تاريخ المدنية - العداء التقليدي بين الوبر والمدّر - اختراع الكتابة
٧٦ - ٥٩	٤ - مصر وبابل
	اتحاد المدن في مصر ظاهرة اجتماعية جديدة - أوجه الاختلاف بين مصرية ومصرية - العراق - تاريخ بابل - شريعة حمورابي - مصرية كريت - رياء الطبقات الحاكمة في العالم القديم
٨٩ - ٧٧	٥ - فلسطين - الهند - الصين
	حرب الدويلات الصغيرة - أنبياء الشرق القديم - التغير في تقدير قيم الأوضاع في عهد الأمبراطورية الآشورية - مشكلة اللون في الهند - بوذا - امبراطورية الصين - كونفوشيوس
١٠٨ - ٩٠	٦ - اليونان
	أصل اليونان - أشعار هوميروس - معبد دلفي - نتائج التجارة : اجتماعية وسياسية

وثقافية - نهاية عصر اليونان الذهبي - الرق ومركز المرأة عند الإغريق - سقراط - أفلاطون - أرسطو - الرواقية .

١٢٩ — ١٠٩

٧ - روما

سيادة روما - الرواقية في روما - التناقض بين حكم المعاصرين وحكم التاريخ - التطور في المجتمعات الرومانية - الديانة المسيحية في الامبراطورية الرومانية - البرابرة في الامبراطورية الرومانية .

١٥٨ — ١٣٠

٨ - العالم العربي قبل الإسلام

العرق العربي - قحطان وعدنان - الجماعات الإقليمية وأقسامها في بلاد العرب - القرابة عند العرب - الزواج عند العرب في جاهليتهم - نظام الأمومة عند العرب - نكاح الذواق - المرأة والرجل سواء في ممارسة الطلاق - الضيزن ونكاح المقت - معبودات العرب في الجاهلية - التضحية للأصنام - العرافة عند العرب - وأد البنات عندهم - تسرب عناصر الثقافة الأجنبية إلى بلاد العرب .

١٧٥ — ١٥٨

٩ - القرون الوسطى

التوتون والسلاف - محمد رسول الله ﷺ - أثر الإسلام في العالم - الهند خلال ألف سنة - الفتوحات الصينية - الحروب الصليبية - الكنيسة الكاثوليكية - عصر النهضة - دانتي صاحب الكوميديا الإلهية .

١٩٧ — ١٧٦

١٠ - العالم الحديث

ماذا فعل الأوروبيون بالعالم - عهد الإصلاح - أساس الحكومة عقد ضمنى - أول دائرة معارف عامة للعلوم - جان جاك روسو - عمانوئيل كانت - الثورة الصناعية - أوغست كونت - كارل ماركس وفردريك انجلز - أثر الثورة الصناعية في وضع المرأة - فردريك نيتشه فيلسوف الاستعمار - الثورة الروسية أعظم نتائج الحرب العالمية الأولى .

٢٠٦ — ١٩٨

١١ - خاتمة

المجتمع المتمدد معتمد - نظم اجتماعية لا تعتمد على الفلسفة الإلهية - الجماعة الاجتماعية - الجماعة الطبيعية والجماعة المصطنعة - أهل الأديان والجيوش - تتألف الدول من الأفراد والجماعات - دولة العالمين الواحدة - قول نيتشه في غاية الفلاسفة النفعيين - الإنسان يفتد السير إلى خاتمة مجهولة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعريف

هذا الكتاب نتيجة لدراسات متنوعة في المذاهب الاجتماعية والاقتصادية ؛ وكان أساسه أطروحة « في الأسرة والزواج عند الأقدمين » قدمت إلى مؤسسة علمية ونوقشت فيها ، ثم توسعت فيه وجملته في شكله الحاضر . ولست أزعم التوليد والابتكار فيما يحويه من الآراء والأفكار . ذلك لأننا « لانجد في مملكة الفكر سوى نظريات قليلة يعسر ردُّها ، بعد تمحيص بسيط ، إلى عهد سابق لتاريخ إذاعتها ، وسوى نظريات أخرى قليلة يصعب علينا أن نجزم بأنها لم تكن أفكاراً قديمة استعيرت وأعيدت بأسلوب جديد . ولعل ماقاله أحد الموسيقيين ينطبق على هذا الوضع : « ليست النغمات المجردة بذات قيمة في الفن الموسيقي ، ولكن ما ينتجه تأليف تلك النغمات هو الذي يترك أثراً ، إما حسناً وإما قبيحاً » ؛ من أجل ذلك أرى لزماً على أن أصرح هنا بأن ما جاء في هذا الكتاب مستمد من مصادر كثيرة وقد جمعت مواد من مناجم شتى ومحاجر مختلفة وصغتها بأسلوب أرجو أن يتفق ورغبات القارى .

وليس الكتاب — على ما فيه من الروايات التاريخية — مرجعاً للتاريخ ، ولم أطلب له أن يكون كذلك ؛ كما أنني لم أقصد به سوى دراسة الإنسان في حياته . وكل ما فيه يدور حول أمرين : إما حول غاية حياة الإنسان الطبيعية ، وهي تلخص في العمل للحصول على المأكل والمشرب ، والكدح لإيجاد المأوى والملبس ، وفي حفظ النوع الإنساني بالتزاوج والتناسل ، وإما حول استنباط الطرق والأساليب وآدابها لتسهيل الوصول إلى تلك الغايات ، كتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتوفير النظم الدينية والأخلاقية وما إلى ذلك من المذاهب التي تستهدف مصلحة الإنسان عامة .

وقد عرضت فيه لآراء عدد كبير من الفلاسفة والمصلحين خلال أزمته التاريخ .
واستأنست بالعيش مع أولئك الناس في كتبهم خلال سنتين عكفت فيهما على دراستهم
والإفادة منهم .

ووقعت في طبع الكتاب أخطاء أعتر عنها - وان لم تكن من تأليفي .
ولن يفوتني هنا أن أنوجه بشكري الخالص إلى زوجي الفاضلة لما بذلته من جهد
في إعداد الكتاب للطبع ، وإلى أخي وزميلي السيد منصور قدارة لما أبداه من
الملاحظات القيمة في بعض أبحاث الكتاب ، وإلى صديقي الكريم الأستاذ الكبير
كامل كيلائي لكتابته مقدمة الكتاب .

محمد بنونس الحسبي

بنك الأمة العربية

القاهرة في ٢٩ من ذي الحجة سنة ١٣٦٧

وفق أول نوفمبر سنة ١٩٤٨

الفصل الأول

قرر العلماء أن التاريخ « من حيث هو سجل العصور الغابرة قديم قدم اهتمام الإنسان إلى الكتابة » ولكنهم كانوا مع ذلك ، حتى أواخر القرن التاسع ، يؤرخون ويصدقون خلق الكون في عام ٤٠٠٤ ق.م ويحشرون كل تاريخ العالم في مدة من الزمن تقل عن ستة آلاف سنة . غير أن الاكتشافات الحديثة التي جاء بها علم الإنسان (الانثروبولوجيا) وعلم الآثار (الاركيولوجيا) قلبت الوضع رأساً على عقب؛ فقد حمل علم الإنسان المؤرخين على الإيمان بالوحدة الجوهرية للجنس البشري، ووسع علم الآثار تصور المؤرخين لطول الزمن الذي نما فيه المجتمع الإنساني : ذلك لأن الأثرين أرجعوا وجود إنسان ييلنداون إلى ١٠٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وإنسان هيدلبرج إلى ٢٥٠,٠٠٠ عام قبل الميلاد ، وإنسان جاوة القريب من القردة إلى ٥٠٠,٠٠٠ عام قبل الميلاد؛ وهم يعتقدون أن هذه الكشوف لا يحتمل أن تكون آخر ما وفق إليه أو رفعت الحجب عنه^١ . وعلى ذلك فقد احتسبوا أنه لم ينقض أقل من ٥٠٠,٠٠٠ سنة منذ أن تجول الإنسان الأول في أنحاء الأرض . ونحن نستطيع أن نتصوره يقيم مع قبيله بين الأشجار وفي الكهوف وقد اكتسى جسمه بشعر كث يصارع الوحوش ويطاردها في الأدغال ، ويقتات بالبذور ويميش على لحوم فريسته التي يمزقها بأظفاره ويقطعها بأسنانه كما تفعل الوحوش . وفي مدى هذه الألوف من السنين نزلت بالجنس البشري كوارث وأصابته مصائب من تغير المناخ والطوفان

١ انظر ص ١٨٠ ، علم التاريخ للأستاذ هرنشو ، ترجمة الأستاذ عبد الحميد العبادي -

القاهرة سنة ١٩٣٧ .

والجوع والحروب القبلية وشدة تنازع البقاء ، وكلها كانت تقذف بالإنسان من هنا إلى هناك فيضرب في أنحاء الأرض على غير هدى . ولو سلمنا بأن معدل مدة الجيل الواحد تبلغ حوالى ثلاثين سنة نجد أن الإنسان قاوم الطبيعة وحارب بنى جنسه حوالى (١٥) ألف جيل ، وليس هذا زمناً كبيراً جداً . لقد كان الإنسان خلال القسم الأعظم من هذه المدة متوحشاً جوالاً تمتوره المخاوف وتزلله الخرافات والأوهام ، تفتك به قوى الطبيعة ، وينزل به الظلم والجور أخوه الإنسان ، وكان فى خلال كل ذلك يعمل تدريجياً لإيجاد أسباب لمعيشته وينحت لنفسه فى الجبال كهوفاً تقيه شر نكبات الطبيعة وغضبها . ونحن نستطيع أن نتصوره يجمع الأغذية ويخترنها ليقتات بها ويدجن الحيوانات لينتفع بنتاجها ثم يرتقى بالزراعة ويضع على مهل أسس الاستقرار لحياة الاقتصاد الاجتماعى . إن الخمسة عشر ألف جيل هذه قد شهدت تغيرات كثيرة ، ولكن الجميلة منها كانت فى الواقع حديثة العهد . ولنحاول الآن أن نرسم صورة لتلك التغيرات ولنفترض أن الآباء والأبناء فى كل من هذه الخمسة عشر ألف جيل يقفون فى صف واحد مسلسل ، الواحد فى إثر الآخر ، فيشغل كل منهم موطئ قدم واحدة ، ويشغلون جميعاً مسافة طولها خمسة عشر ألف قدم أو ما يقرب من أربعة كيلومترات ، وهى معدل المسافة بين وسط أية مدينة حديثة وإحدى ضواحيها . نشاهد فى إحدى طرفى السلسلة الإنسان الأول واقفاً وهو أشبه ما يكون بحيوان متوحش ، بليد كالبهيم ثرس كالنمر منخفض الحاجبين عريضهما يبدو عليه ضيق الخيال الملازم للحيوانات المفترسة ، والخوف الملازم للحيوانات التى تسكن الغابات وتأوى إلى الأدغال ، ثم نسير بتؤدة مع الصف فى اتجاه الطرف الثانى فإذا نشاهد نرى الإنسان قد غير ، عن غير ما شعور ، سنن معيشته وأساليب حياته ووضع أركاناً لحياة الجماعة وجعل لها طابعاً اجتماعياً وارتقى بطعامه ولباسه وكلامه وتطورت آراؤه وأفكاره وأحاسيسه وعواطفه وألفاظه وإشاراته . وفى كل دور نمر به فى هذا الحشد

يقف إلى جانبه أناس آخرون يفكرون ويشعرون كما يفكر ويشعر ذلك الإنسان ، يتجمعون ويتلاحمون أمراً وقبائل وشعوباً وطوائف . ولو افترضنا أن مدة الإنسان المتمدن لا ترجع بالتاريخ القهقري إلى أكثر من عشرة آلاف سنة يتبين لنا أنه لم يكن كبير فرق بين الإنسان والوحوش التي تجوب الأرض . ثم نشاهد الناس بعد مائة سنة من نشأة الإنسان المتمدن في السلسلة قد بدءوا يستعملون الآلات والأدوات الزراعية البسيطة ثم تتخلل ذلك أدوار في الاستقرار وأدوار في التطور يتلوها التنظيم الاجتماعي المتعاقب ؛ فهنا الاقتصاد القبلي ودور الرقيق : تقام القرى حول القلاع ويفلح العبيد الأرض ويستأصلون الأشجار البرية للانتفاع بأحطابها ؛ وهناك تشاد المدن وتبنى القصور وتجري الأفلاك في البحار ويبدأ التجار حياتهم ويحذق الصناع عملهم ويكتسبون مهارة في العمل ويكشف الفطاء عن المخترعات وتؤسس المعامل والمصانع وتكون النهضة الصناعية وتنشأ المستعمرات والمدن والأمبراطوريات وتقع الحروب الحديثة وكل ذلك في مسافة المئة متر الأخيرة .

ولو مثلت كل هذه السلسلة من النشوء والتطور البشري في فيلم سينمائي لاستغرق عرضه ساعة واحدة ، ولما كان نصيب عرض جميع تاريخ التمدن البشري أكثر من دقيقة واحدة ، ولما استغرقت حياة الإنسان الأول وتطورها ٥٩ دقيقة من العرض . ولعلنا نستطيع أن نقدر معدل سرعة هذا النشوء والتطور متى أدركنا أن دور الماكينات بمصانعه ومعامله والمناجم وقوة البخار وآلاتها والسيارات والطائرات وقاطعات المحيط من البواخر والنور والكهرباء والتلفون والسينما واللاسلكي والراديو والتلفزيون والقنابل والغاز السام قد استغرق عرضه أقل من نصف ثانية واحدة انتهت بالحرب العالمية الأخيرة . وليست المدة القصيرة التي استغرقتها كل دور من هذه الأدوار بذات بال في هذا البحث ، ولكن تسلسل الأدوار الاجتماعية التي أوجدها الإنسان ثم غيرها تدريجياً هي التي تهمننا . لقد اكتسب الإنسان معرفة بالطبيعة

وبإدراكه سبل تطبيق تلك المعرفة ازداد التطور، وجاءت أدوار تغير أساليب الحياة الاجتماعية وأنشاء عادات جديدة ووضع أصول خلقية وروحية تترى وشبكة . ولكي نقدر أسباب النشوء والتطور نرى لزوما علينا أن نبحث في ما عرض من الفيلم في الثواني القليلة الأخيرة لأننا سنعثر فيها على سنن التطور في أجدى أوضاعها . وسيشتمل بحثنا بوجه خاص على الإلمام بالعوامل الاقتصادية التي تركت أثراً في حياة بني الإنسان ، وعلى نشوء روح الجماعة وقيام عادات خلقية وعقائد روحية بين البشر .

ولسنا نقصد بدراسة العوامل الاقتصادية « تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً محضاً عملاً بالعقيدة التي صاغها ماركس وإنجاز وإنما نرى أنه لا بد لفهم التاريخ على وجهه الصحيح من الإحاطة بنواميس علم الاقتصاد التي لعبت دوراً بارزاً في جميع عصور النشوء الاجتماعي للعالم وبخاصة في العصور القديمة أيام كان الإنسان مضطراً إلى أن يكافح من أجل وجوده كفاحاً متصلأ أعداء طبيعيين مساوين له في الشدة وقوة المراس .

ويرجع زمن نشوء علم الاقتصاد إلى أيام اليونان ويعنى به اليوم دراسة الإنسان في كدحه اليومي وعمله المعتاد للحصول على أقواته . وتقابل كلمة اقتصاد في اللغات الأجنبية (Economics) وهي مشتقة من كلمتين يونانيتين (ايكوس) وتعنى داراً (وناموس) وتعنى قانوناً وقصدوا بهما معاً (إدارة الدار) . وقد كانت الدار اليونانية تشتمل على عدد كبير من العيال جلهم من العبيد وكان من هؤلاء صناع ماهرون وفنانون وعمال يوزعون الأعمال فيما بينهم ويقدمون للدار - نتيجة لعملهم الإجماعي المشترك - كل ما تحتاج إليه من طعام وكساء . ولما كانت الإدارة الحسنة تعنى غناء وسعادة أبناء الدار ، وكانت الإدارة السيئة تعنى فقر وتعاسة أبناء الدار ، لذلك نجد مفكرى ذلك العصر يبحثون إدارة الدار اليونانية بحثاً مستفيضاً أخذ عنه - فيما بعد - علماء الاقتصاد في أنحاء العالم مبادئ هذا العلم .

أما الأمر الثاني الذي سيشتمل عليه بحثنا بوجه خاص فهو نشوء الأخلاق والسجاياء والمروءات والعادات والدين في المجتمع البشرى ويقابل هذه المترادفات عند الغربيين كلمة «مورال» وهي مشتقة من كلمة «موس» اللاتينية ويعنون بها العادة أو السلوك . وخلق الحسن في عرفهم تطبيق أعمالنا على عادات الناس الذين نعيش بينهم . قالوا لكي يتمكن الناس من العيش جماعات يجب أن تكون لهم عادات وعرف عام أو قواعد يسير بموجبها الغادى والرائح في الطريق العام . وخلق الحسن يعنى مراعاة تطبيق قواعد الطريق العام هذه ، وسوء الخلق يعنى مخالفتها .

وهناك مصطلحات أخلاقية أخرى نستعملها في حياتنا اليومية لها أثر مماثل لما تقدم ، نقول هذا صحيح ، ونعنى بذلك أنه مستقيم ، وهذا فاسد ونعنى به أنه معوج ؛ والصحيح في عرفنا العمل بموجب قاعدة الطريق العام ، والفاسد هو العمل على مخالفتها .

هذه هي المعانى الأولية للخلق الحسن والخلق السيئ والاستقامة والاعوجاج . بيد أن ثمة معان أخرى سنقف عليها في بحثنا ، فهناك ظروف خرج فيها أناس على العادات والعرف المتبع وقاومهم المجتمع أول الأمر . ولكننا الآن نقول انهم كانوا على حق في خروجهم ذلك ، واننا نرى أن جميع الحركات التى تهدف إلى الإصلاح الاجتماعى هى من هذا القبيل (مثال ذلك حركة إلغاء الرق والنخاسة) . والمصلحون يعلنون أن العادات والتقاليد التى يشكون منها لا تتفق مع مكارم الأخلاق ولذلك فهم يحاربونها ويعملون على إلغائها . أما عشاق العادات القديمة فيعتبرون المصلحين خوارج على التقاليد والعادات الخلقية ويدعونهم بأسماء قبيحة . وتستخدم المعركة بينهم فإذا ما كتب النصر للمصلحين خلدتهم التاريخ في سجلاته ووافقهم الخلف على آرائهم وآدابهم وتغيرت بذلك القاعدة الاجتماعية للطريق العام . والذي يجدر بنا أن نذكره

هنا هو أن الخلق الحسن مسألة تتعلق بسلوك وعادات جماعة من الناس وأنه إذا لم تكن هنالك جماعة من الناس فإن هذه العبارة لا تعنى شيئاً .

لقد تعلمنا في بداية حياتنا المدرسية أن عائشة رضى الله عنها لما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم العظيم قالت : « كان خلقه القرآن ، ألسنته تقرأ القرآن ، قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتنى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون . » وهذا يعنى « أن من الخلق الحسن في الإسلام بلوغ الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه وحفظ ما يؤتمن المرء عليه ومراعاة ما يعاهد عليه من جهة الحق . »

وتعتبر المدارس المسيحية الإنجيلية مثلاً أن العمل بالوصايا العشر هو الخلق الحسن . وليست هذه الأمور من موضوع كتابنا وإنما سنقتصر بحثنا على الأخلاق الاجتماعية لا الفردية . وهذه تتوقف على وجود جماعات من الناس يعيشون معاً . لقد عاش الإنسان جماعات ونشأت بسبب معيشتها على هذا الوجه عادات وأصول قديمة قدم وجوده . بيد أن الإنسان القديم لم يكن يؤمن بالله إيماننا اليوم لأن الإيمان بالله تعالى أوجده الرسل العظام في التاريخ . وعلى ذلك فإن العادات والأخلاق والأصول الاجتماعية وجدت قبل أن يعرف البشر الإيمان بالله . على أن الإسلام - من بين جميع الديانات - فصل للمسلم قواعد الحياة وأساليبها ، ما يختص منها بالعلاقة بين العبد وربّه : من صلاة وصوم وحج مما يتبع الإيمان وما يقتضيه من عبادات يعود أثرها على المسلم في شخصه ، وما يختص بالعلاقة بين الفرد والجماعة مما يعين على حسن العلاقات بينهما

وييسر تدريب وتهذيب سبيل التكافل الذى لا بد منه للجماعة الصالحة ويحرص على التعاون البشرى الذى هو أساس العمران. «الواقع أن رسالة الإسلام بنيت على دعائمين^١: الإيمان والإحسان لقوله تعالى «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.» وقوله: «بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.» وقوله: «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن.»

➤ «إن كل طفل فى أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية يولد على الفطرة ثم يقتبس فى سنى حياته الأولى أصول معيشة الجماعة التى يعيش فيها. وبذلك يصبح اتباع قاعدة الطريق العام الاجتماعية غريزة أو طبيعة فى أغلبية هؤلاء الناس.» وكثيراً ما يتساءل رجال الدين وعلماء الأخلاق قائلين: لماذا يجب علينا أن نعمل لإسعاد الآخرين إذا كان الترهيب والتهذيب الدينى لا يجردان إلى نفوسنا سبيلاً. والواقع أن المران الذى تكتسبه بالممارسة فى حجب العائلة منذ الطفولة وفى المدرسة ومن ثم فى الحياة العملية يلزمنا العمل بمقتضى تلك القاعدة العامة. ولعل خير تعبير لهذا الوضع ينطوى عليه الحديث الشريف «الناس كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله.» والواقع أيضاً أن المرء فى الظروف العادية يحتاج إلى مجهود إذا ما أراد مخالفة القاعدة العامة بينما هو لا يحتاج إلى شئ من ذلك للعمل بموجبها.

سأل مارينز (Mariner) مكتشف جزر تونجا بعض رؤسائها الوطنيين ما هى العوامل التى يهتدون بها فى سلوك الطريق المستقيم فى الحياة فأجابوا «يقودنا إلى

١ الرسالة الخالدة لعزام باشا ، ص ٤ .

ذلك الشعور الذاتي الذي يتلذذ بإحساسه المرء عند ما يقوم بعمل حسن أو يبرز شهامة وكرما كما يجدر بالرجل الكامل». وقد أظهر أولئك الرؤساء دهشة من نوع السؤال^١.

تميز الجماعات البشرية وتتفاير كثيراً من حيث نشأتها وتشكيلها وتختلف وتباين الأصول والقواعد الخلقية والاجتماعية السائدة فيها . وينتج عن ذلك الاختلاف والتباين اختلاف وتباين في طرق وأساليب تطبيق تلك الأصول والقواعد وعندما زار الإنسان الأبيض « تونجا » لأول مرة لم تكن فيها آلات وأدوات أكثر تعقيداً من الأقواس والنبال ، ولا وسائل للنقل أنظم من القارب القديم الشكل المصنوع من جذوع الأشجار ولم تكن فيها طبقات اجتماعية أو خلافاً حادة بين تلك الطبقات . إن الأصول والأفكار الأخلاقية في مجتمع كهذا بسيطة جداً ولا مجال لمخالفتها . أما في المجتمعات المتقدمة فالحال على النقيض من هذا ؛ لأن المجتمع معقد جداً ولا بد لاستمرار الحياة فيه من تطبيق أدق قواعد وأساليب الإنتاج والتوزيع والمبادلة ، ولا بد كذلك من استخراج ونقل المواد من أقصى المعمورة إلى أقصاها ومن وضع التصميمات وتشغيل الماكينات ومن مجابهة المصالح القومية ومصالح الطبقات المتضاربة في كل دور من هذه الأدوار . وإنك لا تجد في هذه المجتمعات قاعدة خلقية عامة موضوعة . وإنما عليك أن تتعلمها بالاختبار . يحاول الناس مثلاً في المجتمعات المتقدمة أن يسرقوا معتمدين في تبرير عملهم على سلسلة من القواعد والقوانين المحلية والدولية المسلسلة من العصور النابرة . إلا أنه مهما تكن المجتمعات البشرية معقدة فهي تستهدف سعادة ومعيشة فريق اجتماعي (أسرة أو قبيلة أو بلاد أو الإنسانية بوجه عام) فإذا كان الفرد متعلماً كانت علاقته بالجماعة مركزة تتفق سعادته الشخصية مع سعادة فريقه ولذلك فلا تنشأ مسألة وجوب تقديره لسعادة الآخرين . بيد أنه كثيراً ما نجد في المجتمعات المتقدمة

1 Mariners, Tonga, quoted by Thuckett, The Evidence of the Supernatural, p. 253.

أفراداً غير متعلمين ولا يهتمهم علاقتهم بفريقهم وفي مثل هذه الحال تصبح القاعدة الخلقية الواجب تطبيقها مؤلفة من الضغط الاجتماعي على هؤلاء الأفراد بوضع العقوبات القانونية الرادعة التي تصل في بعض الحوادث إلى حد الحكم بالموت .

إن تموج المدنية واضطرابها يؤدي إلى التناقض في الآراء والمعتقدات الاجتماعية والأمثلة على ذلك كثيرة لا تقع تحت حصر . فالصدق فضيلة ومن مصلحة المجتمع أن يتكلم أفراد الصدق ولكن هنالك استثناءات عامة معترفاً بها لهذه القاعدة . فليس مثلاً بين الناس من يقول بوجوب قولك الصدق لو غد ليثم يتبع رجلاً شريفاً ليفتك به عند ما يسألك عن مقر ذلك الرجل . ويقطع النظر عن مثل هذه الحالات البديهيّة فإن حد الواجب لا يكون دائماً واضحاً . فنحن نعيش اليوم في عالم تتوقف فيه حياة الألوّف المؤلفة من الناس على التنافس التجاري وقد أصبح الإعلان عن المنتجات والحاصلات من أقوى الأسلحة في معارك التنافس الاقتصادي، والمألوف في الإعلانات التجارية أن تدعى وتؤكد أن البضائع والمنتجات المعلن عنها هي خير من جميع مثيلاتها وليس كمثليها شيء من حيث الجودة والمنفعة . وليس بخاف أن مثل هذه الادعاءات ليست على الغالب من الصدق في شيء . فهل نعتبر المعلن الذي ينشر هذا الادعاء كاذباً حقيراً؟ الواقع أن بعض رجال الدين وعلماء الأخلاق يقولون بوجوب ذلك ولكن جبهة الناس لا تذهب إلى هذا الحد . ذلك لأن المعلن الذي يتحرى الصدق في نشراته يحد نفسه وقد تكسبت بضائعه في وجهه ، بينما يقبل الناس على بضائع منافسيه ويروجونها . إننا نود لو أن المجتمع ينظم على وجه يرفض فيه قبول كل الادعاءات المكذوبة حتى ولو كانت في الإعلانات .

ثم إن القتل جناية أي إن الفرق الاجتماعية تصر على أن يحترم أعضاؤها حياة بعضهم البعض؛ غير أنه إذا حاول زيد قتل عمرو فلم يرو ملء الحق بقتل زيد دفاعاً عن نفسه.

ولكن إذا بحج زيد وقتل عمرأ فإن المجتمع يثار لعمره من زيد ردعاً للأغيار عن ارتكاب مثل تلك الجريمة الشنعاء . على أن الأقوال تختلف في تطبيق عقوبة الموت على القاتل ولكن نفور الناس الذين يحبذون تطبيق هذه العقوبة من الأشخاص الذين ينفذون الحكم دليل على تغاير واضطراب الآراء الاجتماعية في هذا الموضوع .

وهناك تباين أشد من هذا نجده عندما نبحث في أمر الحرب ؛ إلى أى حد تصل حماية الفريق الاجتماعى الذى نعيش فيه لأرواح الناس ؟ إذا حاول زيد أن يقتل في بلده أجنبياً في أيام السلم فإن المجتمع يوقع القصاص على زيد . ولكن إذا قتل جندي أو بحار أو طيار أجنبياً أثناء العمليات الحربية فإن المجتمع يباركه . وهذا يعنى أن حماية الفريق الاجتماعى لا تشمل القوم الذين هم في حرب معه . وهناك بعض الأخلاقيين الذين لا يميزون القتل حتى في الحرب . على أن النباتيين يذهبون إلى أبعد من هذا الحد فهم يحرمون قتل الحيوانات للطعام ، وهذا يبين لنا مدى التضارب في الآراء الاجتماعية .

وأخيراً خذ مثلاً الرق : لقد حبذ العالم القديم بمن فيه من أفذاذ المفكرين أمثال أفلاطون وأرسطو أن يملك أناس أناساً آخرين كرقائق . وقد حاولوا أن يبرروا عملهم هذا بحجج مختلفة قال اليونان : — « إن ضعف الإدراك العقلى لدى بعض الشعوب لا يؤهلها للحياة الاستقلالية وإنما يجعلها صالحة لأن تكون رقيقاً فقط » . وقال الرومان : — « إن هنالك عقداً ضمناً بين الغالب والمغلوب يجعل للغالب حق تملك عدوه كعبد في مقابل الإبقاء على حياته من القتل » . وجاءت الشريعة الإسلامية فاعتبرت عتق الرقيق وتحرير العبيد من أقرب القربات إلى الله تعالى حتى أنها جعلت تحرير الرقبة . (أى إعطاء إنسان) من الكفارات ، وهى الفعالات التى تذهب الإثم وتستره ، واعتبرت أن من البر إيتاء المال في تخليص الرقاب بابتياح العبيد لعقمتهم

ومعاونة المكاتبين منهم ؛ وعدادت أبواب الزكوات فكان منها الصرف في فك الرقاب .
أما اليوم فقد تغير الوضع وأصبحت أغلبية العالم المتمدن تحرم الرق وتحظر النخاسة .
وقد تضمنت كتب القانون والفقه القديم فصولا خاصة بالرقيق . لقد استعاض العالم
التمدن اليوم عن الرقيق المشتري بالأجير بالسكر . وقد صور السر هنرى ماين الفقيه
الإنكليزي الوضع بنظريته الشهيرة قال : « إن المجتمعات المتقدمة تنتقل اليوم من
القانون إلى العقد . » أى أنك تستطيع أن تتعاقد اليوم مثلا مع عامل ليقوم لك
بالخدمات التى كان يقوم عبيدك بها بحكم القانون . والذي نخلص إليه من هذه الأمثلة
أن الأوضاع الاجتماعية والخلقية نسبية لاملةقة : وهى بذلك تختلف عن العالم المادى .
لأن خواص ذلك العالم تبدو للعيان فيراها كل من يسير وراء الحقيقة ، فكل من رزق
حاسة البصر يرى أن البحر أزرق مثلا ؛ وكل من أوتى قوة إدراك الأمور يقتنع بأن
الأرض كروية ، وهذه الأمور هى على حد قول العلماء - حقائق عامة - أما الأوضاع
والقيم الاجتماعية فليست حقائق عامة من هذا القبيل .

ويلاحظ الباحث من مطالعة التاريخ المدون ومن فحص الآثار خلال الأزمان التى
كانت فيها الحياة الاجتماعية ابتدائية وجود ثلاث خواص على الدوام هى : أساليب
المعيشة المادية ، والمثل العليا لحياة الجماعة ، والمؤسسات الاجتماعية .

وتشمل أساليب المعيشة المادية ، الطرق المتبعة في جمع الطعام أو صيده واختزانه .
وأعمال الزراعة الابتدائية ومن ثم الزراعة المركزة وتدجين الحيوانات وتربيتها ، وصنع
الآلات والأدوات من البلطة المعمولة من حجر الصوان والقوس والسهم والحرا ب
الخشبية والبلطة المعدنية إلى السكين والسيف والمطرقة وما إلى ذلك . هذا فى الأدوار
الأولى للتاريخ أما فى الأدوار التالية فتشمل أساليب المعيشة المادية ، المواد الأولية
الموجودة على وجه الأرض وفى جوفها والآلات والممكنات الحديثة التى تستخدم فى

استخراج تلك المواد كما تشمل الطعام والكساء والسكن الناتج من ذلك كله . ويدخل في هذه الأساليب الطراز الذى تنتظم فيه وتكون عليه حياة المجتمع ، وكل ذلك لا يتعدى العمل لإيجاد ضروريات الإنسان في حياته .

أما المثل العليا لحياة الجماعة فيقصد بها النظرة السائدة بين الناس في زمن من الأزمان، والمعتقدات التى يؤمنون بصحتها دون ما بحث أو تمحيص ، والآراء والنظريات التى يقبلونها والعادات الدينية والاجتماعية التى يحكمونها ، وهذه تبدأ من المعتقدات العنصرية المتعلقة بالحيوانات الوحشية والأرواح الشريرة التى كان يؤمن بوجودها أفراد قبائل الصيادين والعبادات الخاصة التى كانت تقوم بها القبائل الزراعية كى تخصب أرضها ، إلى الآراء والمعتقدات التى كانت منتشرة في عهود الاقطاع ، ومنها نظرة السيد إلى واجبات العبد ، ونظرة العبد إلى حقوق السيد . يتلو ذلك الآراء المعروفة في الاستقامة والاعوجاج أو الصحة والفساد في الحياة الاجتماعية والتنظيم الصناعى إلى رغبة الشعوب المحكومة الملحة في التحرر من الاستعباد ، وإلى الطرق المتشعبة والأساليب المنتشرة لحياة اللهو والتسلية والتثقيف والتكلم والنظريات التى يبشها الناس لتبرير هذه الأعمال أو تلك الأساليب وإلى ألوان الفن والموسيقى والآداب والعلوم والنظريات المتعلقة بها جميعاً ، وإذا تحدثنا بوجه عام عن هذه الأمور نقول انه تخلل الحياة الاجتماعية في جميع العصور نظرة فلسفية نشأت عن أساليب حياة بنى الإنسان . وهذه النظرة ولا شك تطورت في كل دور من أدوار التقدم الاجتماعى ، بيد أنه وجد دائماً في جميع هذه الأدوار نظم فكرية وأحكام وأوضاع مختلفة برر الناس - شعوباً وطبقات - أعمالهم بالنسبة إليها . أما نحن فلمهم عندنا هنا أن ندرك أن سنن الحياة المادية لشعب ما في المجتمع تعريهم وتحملهم على وضع نظريات تتعلق بالعالم الذى يعيشون فيه وبالمجتمع الذى يشاركون فيه ، وبالأخلاق والفن والصناعة المنبعثة من

هذا النوع من الحياة ، كما يحملنا العالم المادى الذى نعيش فيه على التفكير فيه ومحاولة فهمه وتقدير قيمته بالنسبة إلينا .

أما المؤسسات فتشمل البنايات الحقيقية وطبيعة المنظمات المرتبطة بها التى تهدف إلى نشر وتعليم مبادئ المثل العليا لعهد من العهود . وهى تضم المساجد والبيع والصوامع وبيوت العبادة الأخرى التى تتمركز حولها العقائد المتعلقة بالدار الآخرة .
والتي هى منشأ كثير من الأحداث الصوفية المتعلقة بالحياة الدنيا . ويدخل فى هذه المؤسسات المدارس العامة والخاصة التى تلقن الأجيال الجديدة متون تلك العقائد والآراء التقليدية التى تعتنقها جمهرة الجماعة الاجتماعية التى أنشأت تلك المؤسسات . ويدخل فيها المحاكم التى تحافظ على الحقوق المشروعة للأفراد والجماعات فتصدر أحكامها وتنفذها ، والجيش الذى تعزز قوة العصر سواء أكانت دولة ملك مطلق أو دستورية أو دولة جماعة من الأمراء الاقطاعيين وأصحاب الأراضى والأملاك أو التجار وأرباب الصناعات أو المالىين أو طبقة العمال . ويدخل فيها كذلك ، وهذا فى العصور الحديثة ، دوائر الخدمات المدنية ومجالس النواب والأحزاب السياسية التى تنشر مبادئ بعض أقسام سكان البلاد وتضعف بشتى الوسائل على البرلمان ليغير بعض التقاليد والعادات والقوانين .

نخلص من هذا البحث إلى الأمور التالية :

١ - إننا نجد فى كل دور من أدوار المجتمع :

- (أ) قوى منتجة وأساليب فنية فى الإنتاج يقوم إلى جانبها نظام اجتماعى خاص يهيمن عليها ويوجهها التوجيه المناسب .
- (ب) مثلاً أعلى ينشأ عن طريقة معيشة المجتمع فى ذلك الدور تحاول الجماعة المحافظة عليه دون أن تصيبه يد التطور بتأثيرها .

(ج) نظاما للمؤسسات التعليمية والثانوية والعسكرية والمدنية والدينية ، يرمى إلى إبقاء حياة الجماعة ونظام الإنتاج ثابتاً لا يصيبه التغير .

ولا يغربن عنا أن فروقاً وتبايراً قد وجدت حتى بين هذه التماثلات .

٢ — ان مستوى المعيشة الاجتماعية يعلو بنمو وسائل الإنتاج وارتفاع المستوى الفنى وهذا يعنى أن الآراء والأفكار والرغبات والإدراك والنقد تتسع باتساع وسائل الإنتاج . وهذا معقول ومنطوق لأن زيادة خبرة المنتجين فى أعمالهم هى التى تؤدى إلى تحسين طرق الإنتاج الفنية وعلى ذلك فإن العوامل الثلاثة التى بحثناها فى (١) ليست منفصلة ومستقلة عن بعضها البعض ولا يؤمن — على الأقل — بقاؤها محدودة وثابتة لا تتغير . وإنما على النقيض من هذا الأمر نجدها متصلة ومتشابكة .

٣ — إننا لا نجد فى عهود التاريخ المدون مجتمعاً كانت فيه الأوضاع الاجتماعية على نظام واحد مماثلة على الدوام ، فقد كان هنالك فريق يملك الوسائل ويدير الإنتاج ويتحكم بالتوزيع وكان هنالك فريق آخر يقوم بالإنتاج وكان يتألف من الخدم والعبيد والعمال المستأجرين والصناع والفنانين والمديرين .

ولنبحث الآن فى العوامل المتضاربة التى نجدها حين بحثنا فى كل دور من الأدوار المتعاقبة للتاريخ الاجتماعى .

إن أول أمر نلاحظه ، إذا أجبنا نظرنا فى العالم كما نعرفه اليوم ، أن غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية تؤلف دوراً من أدوار التقدم الاجتماعى . فقد اعتاد سكان تلك البلاد على التليفون والتلفراف والترام الكهربائى والقطار الكهربائى والطيارات والسينما والتلفزيون وعلى حياة المدينة وعلى المصانع والمعامل ومحطات السكك الحديدية وتوليد الكهرباء وعلى الحوادث والأمراض الصناعية وعلى نسبة الوفيات وعدد العمال العاطلين وعلى التأمين الصناعى والتأمين على الحياة وعلى الروايات والسير والتراجم

وعلى كتب الدراسة والجرائد وعلى الإضراب والمقاطعة وعلى الألف حالة وحالة من حالات الحياة الاجتماعية التي تمر بنا دون أن نلاحظها لأنها أصبحت مألوفاً لدينا . وكل هذه الأمور تمثل حياة جيلنا وعهدنا الحاضر .

ولم يكن أحد في غربي أوروبا ليفكر في أمر من هذه الأمور قبل خمسمئة سنة . على أنه كانت هنالك صناعات يدوية ونقابات لتلك الصناعات ، وكانت هنالك مدن - ونحن نحتسبها اليوم قرى صغيرة - وكان التجار يقدون ويروجون ، وكانت السفن تجوب البحار الصغيرة حاملة البضائع والسلع والزيت والروائح والحرير من الشرق إلى الغرب حيث تفرغ حمولتها وتعود إلى الشرق مثقلة بمنتجات الصناعات الغربية . ولم تكن الامبراطورية البريطانية موجودة ، وكذلك لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية في حيز الوجود . ولم يكن مستوى معيشة العامل الزراعى يرتفع عن المستوى الذى تعيش عليه حيواناتنا اليوم . غير أنه كان هناك فريق من التجار يقوم إلى جانب النبلاء والأمراء وأصحاب السفن التجارية الذين كانوا يقرضون أموالاً إلى الملوك والمملكات ويتدخلون في سياسة الدولة حتى وفى التشريع وقد كان هؤلاء يبنون القصور العظيمة ويعيشون مترفين فيها . وإنك لتجد بعض بقايا تلك القصور على شواطئ فينسيا مثلاً . وإذا كان هذا العصر هو زمن الصناعة والمكينات بأنواعها فلقد سبقه منذ خمسمئة سنة - عهد طبقة التجار والملاحين وأيام سيطرتهم على العالم . وإذا رجعنا بالتاريخ القهقرى خمسمئة سنة أخرى نجد أنفسنا في عهد الاقطاع . لسنا نجد حياة صناعية في المجتمع . لقد بدأ التجار يقدون إلى أوروبا ويتنقلون بينها وبين الشرق . الأمير الاقطاعى يحكم من قصره ويدير منطقته . وعبيده ومشايخهم يقومون بالأعمال اليومية ، التي تقتضيها حياته المعتادة . وكان قصر الأمير مركز القوة ، وكانت الكنيسة مركز الدين ، والأهداف العليا . وهنا أيضاً تجد فريقين من الناس . فريق أعلى وهو يملك ويتحكم بمقدرات الفريق الأدنى ، والفريق الأدنى من

العبيد والمزارعين يخضعون لحكم وإرادة الفريق الأعلى .

وخلاصة القول إننا مررنا بثلاثة أدوار في الحياة الاجتماعية : دور الأقطاع ، ودور التجار ودور الصناعة ولكل من هذه الأدوار خواص تلازمه لا يشاطره إياها الدوران الآخرون . إلا أن هناك أمراً واحداً كانت تشترك فيه وهو أن المجتمع فيها كان منقسماً إلى طبقات .

لقد كانت ثمة عهود سبقت دور الاقطاع لن نتحدث عنها ، وإنما قد نمر بها في الفصول التالية من هذا الكتاب ، وقد كانت هنالك أيضاً فروع لدور التجارة كالاستعمار الاقتصادي لن نتحدث عنها منفصلة أيضاً لأنها جميعاً ، في رأينا ، تدخل في العهد التجاري — ذلك العهد الذي تلا الدور الاقطاعي .

إلا أنه وجد في تاريخ العالم أمران لم يدخلوا في الدور التجاري وهما :

الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي ، والحياة الاشتراكية في روسيا السوفياتية .
الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي : « كان الناس قبل الإسلام يعيشون إما على نظام القبيلة كالحال في بلاد العرب ، وإما رعايا لدول أو أمراء ، كما كان الأمر حول شبه الجزيرة العربية في ملك الرومان والفرس والأحباش . وقد كان لكل أرض حال ونظام حسب ظروفها لا ينظمه مبادئ جامعة ، وأصول ثابتة مسلم بها . ففي البلاد العربية تسود مبادئ القوة وتتجلى الأثرة والأنانية ، ويعتز الناس بالفتك والسلب ينكرون الإخاء البشري والقوى والجنسى ويرفضون المساواة خارج القبيلة مع الموالي وغيرهم من العرب ؛ وكان الفرس والرومان البيزنطيون جيران العرب يحرقون العرب ولا يعترفون بحق لهم في مساواتهم أو عدلهم »^١ : فلما جاء الإسلام وضع أساس المساواة بين الناس بقوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً

وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقوله عليه الصلاة والسلام « إن الله قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بأبائهم لأن الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمهم عند الله أتقاهم ». ولم يعين الإسلام طائفة من المسلمين لأمر خاص بامتيازات خاصة تعلقو بهم أمام القانون الإلهي عن مرتبة أقل المسلمين جاهاً^١ ، « لقد كان أبو بكر وقد انتخب للخلافة، رجلاً يخرج إلى السوق عقب البيعة له ليعمل كما يعمل أى فرد من الناس فيها ليكسب قوته وقوت عياله » ثم جاء بعده عمر ، وكان خليفة مختاراً من الشعب ، غلب الفرس والرومان وهو يرقع ثوبه بيده ، ويخصف حذاءه بنفسه ، ولم يخطر بباله ولا ببال المسلمين أن الخلافة تميزه عنهم بشيء غير ما أعطته من حق الأمر . لقد بعث عمر إلى واليه يوبخه لاستكبار ابنه على قبضى ويقول له « يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ثم انظر إلى أبي ذر الغفارى رضى الله عنه وهو يناقش عبداً بحضرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وبغضب منه ثم يقول : « يا ابن السوداء » فما أتم هذه الكلمة حتى التفت إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال له طف الصاع ! طف الصاع ! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح . وضع أبو ذر عند ذلك خده على التراب وقال للزنجي « قم فطأ على خدى . » ثم انظر كيف أصبح بعد ذلك أبو ذر . قال السور بن سويد « رأيت أبا ذر رضى الله عنه عليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك فقال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم أخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

أما عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فكان لا يفترق عن عبيده لتشابه ألبستهم وتشاكل أزيائهم وعدم تقدمه عليهم . وروى أن الإمام علياً رضى الله تعالى عنه ذهب

١ المدنية والإسلام لفريد وجدى طبعة (٥) ص ٤٦

مرة إلى السوق مع رقيقه فاشترى ثوبين أحدهما أكثر ثمنًا من الآخر فأعطى خادمه الأثمن وأخذ لنفسه الآخر ، فقال له الرقيق « أنت يا مولاي أحق بهذا الثوب مني » فقال له أمير المؤمنين : « كلا إنك أولى به مني لأنك شاب أما أنا فقد هرمت . ثم اسمع إلى عمر يقول وهو يحتضر : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة (أى رقيقه سابقاً) حياً ما جعلتها (أى الخلافة) شورى » .

فأنت ترى من هذا أن الإسلام قرر المساواة العامة في زمن كان الناس ينقسمون فيه إلى ثلاثة أقسام : قسم رجال الدين ، وقسم رجال الحكومة من الأمراء ومن التحق بهم من الشرطة والجنود ، وقسم العامة . فكان رجال الدين هم الأعلى مكاناً والأرهم مقاماً وكان رجال الحكومة يولونهم في الدرجة وكانت الطائفتان عاملتين على تسخير العامة لمصالحهما وابتزاز ثروتهما واجتياح ثمراتها لسد حاجة شهواتهما وتوفير لذاتهما : الأولى باسم الدين وخدمة منزلته والثانية باسم السلطة الدنيوية . فلما جاء الإسلام قرر أن الناس كلهم سواء أبوهم آدم وأمهم حواء ، لا فضل لأبيض على أسود ولا لربي على عجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح . وخلص بين الإنسان وخالقه ونزع وساطة الكهنة ورجال الدين ما بين الإنسان ومبدعه وقرر أن الله قريب من عباده يسمعهم إن نادوه ويستجيب لهم إن دعوه ، فقال تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي » .

الفصل الثاني

الإنسان الأول

إذا رجعنا بالتاريخ نطوى العصور القهقري نصل إلى زمن كان فيه الإنسان الأول متوحشاً لا يسيطر على الطبيعة إلا بمقدار بسيط ولا يملك من معدات الحياة إلا أدوات بسيطة للغاية . وكان يتلفظ بكلام متقطع ، يعرف استخدام النار ، ويعيش على الفواكه والبذور والجذور وبعض الحيوانات الصغيرة التي كان يصيدها بيديه المجردتين أو بما يحرزه من الأدوات . ثم اخترع الأسلحة وأصبح صياداً . أما تدجين الحيوانات وزراعة النباتات من أجل الطعام فقد جاء فيما بعد .

صور بعض عظماء المفكرين ولا سيما (هوبز) حياة الإنسان الأول هذه فقالوا إنها كانت « حرباً من الكائنات الحية على الكائنات الحية » . غير أن الواقع خلاف ذلك ولو كان الأمر على هذا ، وأخذنا بقول (هوبز) الذي يعتبر حياة الإنسان « موحشة حقيرة قدرة قاسية وقصيرة الأجل » ، لما استطاع هذا المخلوق أن يتنازع البقاء مع الوحوش ، ولما تمكن من اتقاء برد العصر الجليدي القارس . لقد عاش الرجال والنساء جماعات متكاثفة متساندة يعضد بعضها بعضاً حتى في دور النقاط المواد الغذائية . على أن طباع تلك الجماعات لم تكن لتختلف كثيراً عن غريزة التجمع عند الحيوانات الدنيا . بل كانت تؤلف قسماً جوهرياً لا ينفصل عن مادة التطور الإنساني الأولى .

لقد كانت حياة الجماعات الإنسانية الأولى ، وما تزال ، موضع جدل دائم بين

العلماء . فلم تكن تلك الجماعات تتألف من الأسرة كما نعرفها اليوم . لقد تألفت الأسرة الأولى - في السكتب المقدسة - من آدم وحواء وأولادها ، وكانت أسرة أبوة . وقد كان الناس يعتبرون أن نظام أسرة الأبوة يسود جميع أيام التاريخ ، إلا أن العلماء اليوم يقولون ان هذا لم يكن أقدم نظم الأسرة التي سادت جميع الجماعات الإنسانية . ولسنا نعلم الدور الذي لعبه الأب في إنتاج النسل بين جماعات الإنسان الأولى : ذلك لأنه من الصعب علينا اليوم أن نعرف ما إذا كانت الأنثى تمنع الرجال من نفسها مدة تسعة أشهر الحمل ، حتى انك تجد في يومنا هذا شعوباً في أواسط استراليا وجزر (تروبريان) في الملايو ما زالوا يجهلون واجبات الأبوة ولا يعتبرون الأب رباً للعائلة . إن هناك بينات قاطعة تثبت أن الجماعات الإنسانية الأولى لم تتألف من الأب والأم وفروعهما وإنما تألفت من الأم وفروعها المتعاقبين من الإناث دون الذكور .

إننا نجد آثاراً كثيرة تؤيد هذه الحقيقة في الآداب القديمة . فال مؤرخ اليوناني هيرودتس يتحدث عن قبائل (منها من يقيمون في أواسط آسيا ومنها من يقيمون في ليبيا) يشترك رجالها العديدون في الزوجات ، ويؤمن نساؤها بتعدد الأزواج . وكان الليقيون يذكرون أنسابهم من جهة الأمهات لا من جهة الآباء . لقد كان اليونان يشعرون أن مجتمعاتهم الخاص لم يكن دائماً مؤلفاً من « أسر الأبوة » ولذلك عملوا على بيان أسباب انحلالهم لذلك النظام .

تعتمد الشعوب التي لم تصل في تطورها الاجتماعي إلى حد وضع التعليل العلمي للأشياء والحوادث ، إلى وضع الأساطير والإيمان بصحتها عند ما ترغب في تعليل ظاهرة طبيعية أو عادة اجتماعية يجهل أصلها . وخير مثال على ذلك ما زعمه الأثينيون من أن الإله فوسيداون (إله البحار) والإلهة أثينا (إلهة الحكمة) ادعيتا ملكية شبه جزيرة أتيكا (التي تقع فيها أثينا) في زمن الملك سيكروبس . وقد طرح ادعاؤهما

للتصويت أمام السكان ، وكانت أكثريتهم من النساء ففازت الإلهة أثينا بالملكية .
غير أن الملك (سيكروبس) أراد أن يخفف من سخط الإله (فوسيداون) ففزع النساء
من التصويت وأوجد أسرة الأبوة وحُكم الانتساب إلى الجدود المذكور .

وهذه الأسطورة وإن تكن بلا شك حديث خرافة لا يؤيدها التاريخ في شيء
فهى تبين لنا أن الأثينيين كانوا ينظرون إلى أسرة الأبوة كشئ مخالف للأصل
يحتاج إلى تعليل وتفسير .

ولعل أشهر صراع فى الآداب القديمة قام بين حقوق الأم وحقوق الأب كان فى
(بوميندس أخيل) لقد قتلت كليسترا فى الدراما زوجها أغاممنون وثأر أورست
ولدها لأبيه من أمه إذ قتلها إنفاذاً لأمر الإله افولون (إله النور) ومن أجل ذلك
فإن الإلهات القديمة اللائى يرين من واجبهن معاقبة ذوى الأرحام العاقين ، كن
يتبعنه لتصيد . وعند ما سئان لماذا لم تتعقبوا كليسترا التى قتلت زوجها أجبن :
« لم تربطها صلة دم بمن قتلته » .

أما افولون فإنه دافع عن أورست أمام محكمة أثينا العليا بإنكاره أن الأم والولد
هما من دم واحد ، قال : « إن التى تدعى أم الولد ، ليست والدته وإنما هى مربية النطفة
المفروسة فى الرحم . وهى إذا ما شاء الله تحفظها ، كما لو كانت فى أرض بستان » .

أما الذى يودع النطفة فى الرحم فهو صاحبها وإليه تنسب

وهذه القطعة من رأى فى علم الأحياء لا تقنعنا ولكنها أفنت الإلهة أثينا التى
ترأست المحكمة وبرأت أورست . وقد دافع الإلهات فى هذه الأسطورة عن حقوق
التسلسل من جهة الإناث ، أما الإلهة أثينا والإله افولون فقد دافعا عن حقوق الأبوة

والدويلات الصغيرة الوارد ذكرها في الأدب اليوناني القديم . وقد فصلت الرواية الخلاف بين الفريقين .

أما فريزر فيقول في كتابه « الفصن الذهبي » : إنه لم يكن بين ملوك الخرافات الرومانية الثلاثة (الذين كانوا في الواقع إما رؤساء دينيين أو قواداً عسكريين) من خلفه ولده الذكر في الملك والإدارة ، وإنما خلفهم جميعاً أزواج بناتهم . وهذا في رأيه يشير إلى أن الإرث كان يؤول إلى الإناث . وإنك لتجد من بحثك في الآداب الرومانية أن أسرة الأبوة كانت سائدة هناك ولكن أسرة الأمومة جاءت ولا شك قبلها .

أما في جزيرة العرب فقد روى لنا سترابو السائح الإغريقي الذي ساح فيها خلال القرن الأول قبل الميلاد « أن العائلة تشترك كلها في الانتفاع بمملوكاتها ولكن لها رئيساً واحداً وهو دائماً أكبر أفراد العائلة سناً ، ولهم كلهم زوجة واحدة ومن يسبق الآخرين يدخل حجرتها ، ويتمتع بها ، بعد أن يكون قد انتبه وترك هراوته على الباب (وكان من عادة كل رجل منهم أن يحمل هراوة) وهي لانقضى الليل إلا مع أكبرهم وهذا الاختلاط يجعلهم كلهم اخوة . ويجب أن نقول انهم يتزوجون بأمهاتهم . ولكنهم مع ذلك كانوا يعاقبون كل من يزني خارج العائلة بالإعدام . وحدث مرة أن ابنة أحد ملوك هذه البلاد ، جزيرة العرب ، كانت جميلة جداً ، وكان لها خمسة عشر أخاً ، كلهم مغرمون بها ، وكانوا لهذا السبب يختلفون إليها كثيراً بلا انقطاع للتمتع بها ، فلما أن تعبت منهم استنبطت الحيلة الآتية : استحضرت جملة هراوات تشابه هراوات اخوتها وحينما كان يتركها أحد تسارع هي وتضع على الباب الهراوة التي تشابه هراوته ثم تستبدل بها بعد وقت قليل أخرى وهكذا ، وهي مع ذلك تحاذر من وضع هراوة الأخ الذي تنتظر بغيته . فحدث أن هؤلاء الاخوة اجتمعوا مرة في ميدان عمومي وقام أحدهم وذهب إلى غرفة أخته فوجد هراوة أحد اخوته على الباب . فاستنتج

أنها تزنى مع أحد غريب لأنه ترك أخوته كلهم في الميدان ، فأسرع إلى أبيه وأخبره ولكنّه اضطر بعد ذلك إلى الإقرار بأنه ظلم أخته .

لقد كشف النقاب عن الحقائق المتعلقة بالعالم القديم لأول مرة في التاريخ (باشوفن) في كتاب نشره بعد صدور أصل الأنواع (لدارون) بسنتين وقد حدث أن (لويس مورجان) كان في عين الوقت يكشف حقوق الأمومة بين قبائل (الايروكواز) في أميركا (حيث تقع ولاية لوزيانا اليوم) وقد عاش نفسه بين تلك القبائل واعتبرته واحداً من أفرادها . لقد وجد مورجان أن كل قبيلة من قبائل (الايروكواز) كانت منقسمة إلى بطون وعشائر وهذه العشائر تسلسل فروعها وتنسب إلى الأمهات ، وأن أفرادها تتحد للدفاع المشترك عن كيائها ، والزواج محرم عندهم بين أفراد البطن الواحد ، ولكنه مباح أن يتزوج أفراد بطن بأفراد بطن آخر من العشيرة الواحدة . وقد وصفهم مورجان بأنهم لا يؤمنون بتعدد الزوجات وأنهم كانوا يدعون كل عم «أباً» وكل خالة «أمّاً» وقد تحقق لمورجان أن هذا النظام ساد بين قبائل كثيرة من هنود أميركا وبين سكان القارات الأخرى القدماء . ثم اكتشف فيما بعد في جزر (هواي) عادات تعمل أسباب هذا النظام ، فلقد كان عدد من الرجال الذين ينتمون إلى بطن ممنوع تزواج أفرادها فيما بينهم يشتركون في زواج عدد من نساء بطن آخر محرم تزواج أفرادها فيما بينهم أيضاً . وقد اعتبروا نسل هذا الزواج المشترك أولاداً لهم جميعاً . وهذا النظام بالرغم من أنه قد اندثر الآن قد استمر معمولاً به في (الهواي) وغيرها من جزر المحيط الهادى حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد وجد بولبوس قيصر نظاماً للزواج مماثلاً لهذا عند البريطانيين ولكنهم كانوا يحاولون إلحاق كل ولد بأبيه . وفي رأى مورجان أن حالة غامضة نشأت بادية الأمر لم تكن فيها أنظمة الزواج واضحة ثم تلاها مباشرة زواج الجماعات المشتركة ، والزواج الفردى ، وأمرة الأبوة .

وتؤيد روايات الأساطير القديمة رأى مورجان هذا . فالذى ندعوه اليوم زواج الأقارب المحرمين علينا كان حلالا فى تلك الأساطير على الآلهات والآلهة . فقد كان أوزيريس فى مصر القديمة أخا لزوجته أسيس وكانت الأرض فى عرف قدماء اليونان أما لولدها السماء ومعشوقة له . وكان كروبوس زوجا لأخته (ربا) وزفس زوجا لأخته (هيرا) وزفس أيضا زوجا لأخته (ذيمتر) (إلهة الزراعة) وزوج أيلوس إله الريح فى الأوديسية أبناء الستة لبناته الست . ولم يكن هؤلاء أشخاصا حقيقيين فى التاريخ وإنما كن رموزا لقوى الطبيعة التى من بينها الأرض والسماء والخصب والريح والإعصار . ويستنتج من تراوج هؤلاء فى الأساطير التى وجدت منذ زمن بعيد جدا فى التاريخ أن الناس لم يكونوا ينفرون من زواج الإخوة بالأخوات وإلا لما نسبوا إلى آلهتهم^١ ارتكاب أمور هى فى عرفهم منكرة . وإذا كان للأساطير أى

١ . آلهة اليونان فى الألياذة خليط من معبودات من تقدمهم من الملل كالبابليين والآشوريين والمصريين والهنود ولكنهم هذبوا العبادة وارتقوا بها بضع درجات فأهملوا عبادة الحيوان والجماد وجعلوا الصفات والموصفات أجساما حية مدركة هياؤها بهيئة البشر ومسحوها بمسحة اللاهوت . ولكنهم لم ينزعوها عن شئ من شوائب البشرية . فالآلهة بهذا المعنى إنس كسائر الإنس بالنفس والجسد لا يميز لهم إلا القدرة والخلود . ولهم طعام وشراب ومجالس أنس وطرب ، وقد لا يعظم عليهم أن يجالسوا البشر إلى مواعيدهم وهم يتناكحون ويتناسلون ، ولا يشق عليهم بل ربما آثروا أن يستولدوا الإنسيات أو يزوجوا بناتهم من الإنس فيستولدوهن ، وفى كلتا الحالتين ينشأ المولود بشرا كسائر الناس . وهم على الجملة مخلوقون على مثال الخلق عائلونهم بمواظفهم وشعائرهم وطرق معاشهم . ولهم ملاء كثيرة وفرش وثيرة ، يهجمون وبفيقون ويستولى السبات حتى على زفس كبيرهم ولهم منازل وقصور يأوون إليها ، ومركبات وجياد يحرون عليها ، ومنهم البناء والحداد والساق والساقية والساعى والساعية ، وهم جرا .

وللانات ولم كولع الانسيات بالتبرج والزينة ، ولهن حلى ومطيب ، يدلان على أزواجهن ويستهنونهم ويخاصمنهم ويستمن بالذكور والإناث عليهم لقضاء لبانة منهم .

تأثير على علم الإنسان ، وهذا مانعته ، عندئذ نقول إن رأى مورجان هذا عن وجود خمسة أدوار تطورت فيها أنظمة الزواج عند بنى الإنسان حتى وصلت أسرة الأبوة كان صحيحا .

= وهم كالشجر درجات بعضها فوق بعض يشبهونهم بالمعنى ، شبههم لهم بالمادة . يملئون على العباد صفاح الحكمة وألواح الفضيلة ثم يماثلونهم على العبث بها . ففهم الجشع ومنهم الطمع وفيهم السكذب وفيهم الخائلة والفدر والغضب . ومنهم الباغى والباغية والطاغى والطاغية والزانى والبغية . وحسبك من ذلك موائد التهم وحديث الطيف الكاذب وفتك ارطيميس وكيد هيرا وبطش ايزيس فى كل مواقعه وغدر أفلون وتهتك الزهرة .

ولسكنهم من وجه آخر يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، يثيبون ويعاقبون ، ويراقبون الخلق كآلهة سائر الأجيال . وفى صفاتهم من التناقض ما لا يقل عن أعمالهم ، فبينما نراهم خالدين نفسا وجسدا فإذا بهم على شفا جرف الهلاك وبينما هم متمتعون بالنعيم الأبدى فإذا بهم يتألمون ويشكون .

ولسلك إله وإلهة مزرعة خاصة وولاية لا يمكن تعديها إلى غيرها ، ولكن يد زفس فوق أيديهم جميعا . فهو الأمر الناهى ، الحاكم المطلق ، حتى إذا نظرت إليه من هذه الوجهة رأيت قومه صعدوا به درجة فى مرقاة التوحيد ، وفيما يلى بيان مجمل لمزاياهم :

زفس (المشتري) : كبير الآلهة وسيدهم ، يرم ما شاء متى شاء ، وله العظمة والافتدار ، يعتر بعلياه مترفعا عن سائر الآلهة ، وهو ولى البرايا من عابد ومعبود وإليه المرجع . الحول حوله والقضاء قضاؤه ، يززعزع العالم بحركة من جفنيه ، وتدين الآلهة لكلمة من فيه بيده قسطاس الأقدار وفى أعتاب عرشه فارورتا الخير والشر . يعلم الغيب ويرولى النصر من يشاء . يثيب العبدية الأبرار ويعاقب السكفرة الأشرار .

هيرا : زوجة زفس ممثلة الهواء والرقيع وربة الزواج .

أفلون : يمثل الشمس وإله النور ، وله يد فى القضاء والقدر وضلع فى الحكمة .

أثينا : إلهة الحكمة والصناعة ولها ضلع فى القوة والبسالة .

اريس : (المربخ) إله الحرب ورب الفتك والبطش .

الزهرة : أو عفروذيت ، إلهة الغرام والتهتك وربة الجمال .

ولا يغربن عن البال أن علماء علم الإنسان لا يجمعون على قبول هذا الرأي فإن كثيرين منهم مازالوا يخالفون نظريات مورجان وينتقدونها كما انتقدوا في الماضي نظريات دارون في أصل الإنسان^١

على أن اكتشافات فيزون وهويت وبولدوين وسبنسر وجيلين في أستراليا أيدت نظريات مورجان وأوجدت لها أنصارا كثيرين بين علماء الأنثروبولوجيا .

لقد وجد عند العرب في جاهليتهم ضرب من زواج الجماعة المشترك وكان يعرف عندهم «بنكاح الجمع» جاء في السيرة الحلبية (ج ١ ص ٥٤) مانصه : «نكاح الجمع ، وهو أن تجتمع جماعة دون العشرة ويدخلون على امرأة من البنايا ذوات الرايات كلهم

== فوسيد او فوسيدان : إله البحار ومزعزع الأرض .

هيفست : (بركان) إله النار ومثير البراكين والصواعق ، وحداد الآلهة .

أذيس : إله الظلمات والموت وولى العالم السفلى .

هؤلاء هم كبار الآلهة تشاد لهم الهياكل وأكثرها لرفس ثم لألون وأثينا والزهرة وأما أوذيس رب الظلمات فلم يقيموا له معبداً إذ لم يكن ثمة رجاء باسترضائه .

ودون هؤلاء آلهة أخرى مثل :

ثيمس : لإحدى سعاة الآلهة وتلقب بربة العدل .

ذيونيس : إله السكرمة والخمر ورب اللهو والطرب .

هرمس : (عطارد) رسول الآلهة .

ايريس : سفيرة زفس .

هيبيا : الساقية بربة الصبا .

دايميتر : الهة الزراعة .

(الباذة هوميرس - ترجمة البستاني (س ١١٦٥ - ١١٦٧) .

١ . إن نفرا من جلة العلماء في علم الإنسان أمثال (كراولى) و (اندريه لاينغ)

و (مالىنوسكى) يقولون إن أول نظام عرف للزواج في التاريخ هو نظام أسرة الأبوة . حتى أن

لاينغ بنى وقوع زواج الجماعات في التاريخ (انظر دائرة المعارف البريطانية ، بحث الأسرة) .

يبد أن خير مكان لدرسها هو بين سكان أستراليا الأصليين حيث نجد الصلة واضحة بين عشيرة الطوطم ، وأصل الطوطم . تؤمن عشيرة الطوطم أنها تسلسلت من الحيوان أو النبات الذى تنسب إليه ، وتعتبره أصلاً لها ، وأنها ستعود إليه وتندمج فيه ، بعد المات . وهم يذهبون فى إيمانهم إلى أبعد من هذا الحد فيقولون انهم قد يتقمصون فى طوطمهم حال حياتهم . وأكل طوطمهم محرم عليهم إلا فى أعياد واحتفالات معينة ؛ فيذوق الواحد منهم القليل من لحمه ويصلون لزيادة نوعه فى العالم . وتعتقد بعض قبائل أستراليا الأصلية أن أجدادهم كانوا يأكلون لحم طوطمهم ولكنهم امتنعوا عن ذلك فيما بعد .

لسنا نجد إجماعاً بين العلماء على بيان أصل « الطوطمية » بل الحال على النقيض من ذلك ، فإننا نجد العلماء يختلفون اختلافاً كبيراً فى تعليل سبب وجودها . ولعل أقرب تعليل إلى التصديق هو الذى يربط الطوطم بطعام الإنسان القديم اليومى . لقد كانت قبائل الإنسان الأول تعتمد فى كل منطقة على الحيوان أو النبات الذى يكثر وجوده فيها . وهذا الحيوان أو النبات أصبح شعاراً للقبيلة التى تعتمد عليه فى معيشتها ثم أصبح هذا الإنسان يقول انه هو عين الحيوان أو النبات الذى يأكله^١ وقد كانت الطواطم عند الإنسان الأول إما حيوانات صغيرة أو نباتات . ذلك لأنه لم يكن لدى الإنسان فى ذلك الوقت أسلحة وآلات يستطيع أن يصطاد بواسطتها الحيوانات الكبيرة . ومع تقدم الأيام اخترع الإنسان أسلحة جديدة وآلات يصطاد بها الحيوانات الكبيرة ، ولكن تلك الأسلحة كانت بسيطة . ولم يكن الإنسان الأول يعتبر أن الحيوانات عموماً والخيل والبغال والحمير قد خلقت ليركبها وزينة ، وإنما كان يعتبرها كائنات حية مثله يصطادها ليتمتع بسحرها ويعيش عليها . وهذا

١ . هناك مثل ألماني يقول « الإنسان هو ما يأكله » Man ist was erisst

هو الأصل في الصيد عند الأقدمين ، وعنه نشأت فكرة الدعاء والصلاة لزيادة نوع الطوطم . وكذلك نشأ أصل اعتذار الصيادين للحيوان الذى يصطادونه . يقول هنود أوتاوا للدب « لا تجعل فى قلبك غلا علينا لأننا ذبحناك ، إنك تقدر أن أولادنا جيع وهم يحبونك حباً جما ويرغبون فى أن يجعلوك فى أجسامهم . أليس من الفخر أن يأكلك أولاد الرئيس . » (فريزر - الفصن الذهبى) .

وأنت ترى أن حيوان الطوطم ضرورى لحياة الجماعة ولذلك فقد اعتبروه واحداً منهم فى جميع أدوار حياتهم .

ثم تلا هذا الدور فى تاريخ الطوطمية دور فيه زاد عدد أفراد القبيلة فانقسمت إلى عشائر وبطون وجد بينها نوع من توزيع العمل والاختصاص . وهذه البطون والعشائر إما أنها بقيت فى صعيد واحد أو تفرقت فى أماكن مختلفة واختص كل منها بنوع معين من الطعام قوامه الحيوان أو النبات الذى اعتبروه طوطماً لهم واتخذوا لهم أدعية وصلوات خاصة فى طلب حفظ نوعه وتكثيره . ثم أصبحوا يقدسون هذا النوع من الحيوان أو النبات ويحرمون أكله فتأكله العشائر والبطون الأخرى وهم يأكلون طوطمها مقابل ذلك . وهذا ما جعل رابطة بين بطون القبيلة الواحدة^١ .

ولم يكن الإنسان الأول ليميز كثيراً بين الإنسان والحيوانات الأخرى ولذلك لم يجد فى ممارسة أكل لحوم البشر قباحة واستهجاناً ، ولعل هذه العادة نشأت عن قلة مواد الطعام فى دور اقتناص الحيوانات وصيدها ثم استمرت سارية فيما بعد للسحر وأسبابه . وقد كان التعامل فى الحروب القبلية أن يأكل المرء عدوه المقتول زعماً بأن قوته وحميته تؤولان إليه بذلك . أما أبناء القبيلة الأموات فكان الأحياء يأكلونهم زاعمين بأن قوتهم وبأسهم يعودان إلى الآكلين .

١ . مالىنوسكى - دائرة المعارف البريطانية - بحث انثروبولوجيا .

أما عادة زواج المرء بالأجنبيات عن قبيلته ، وهى من خواص المجتمعات الأولى ، فقد قال (ماكلين) عندما لفت لها الأنظار لأول مرة ، أنها نشأت من عادة قتل البنات أول ولادتهن . ذلك لأنه لم يكن للجماعة التى مارست تلك العادة مندوحة عن أن تولى وجوها شطر الجماعات الأخرى لتتخذ لها من بينها زوجات . غير أن هذه العادة لم تكن - على ما يبدو - واسعة الانتشار لدرجة تحملنا على الأخذ برأى (ماكلين) . هذا . وقد كانت هذه العادة متفشية عند عرب الجاهلية فكانوا يثدنون بناتهم مخافة الإملاق أو لحوق العار بهم من أجلهن فلما جاء الإسلام حرمها بقوله تعالى « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » .

أما مورجان فقد عزا انتشار عادة الزواج بالأجنبيات إلى الانتخاب الطبيعي قال : إن الجماعات التى تتزوج بالأجنبيات تمزج بدمها دماً غريباً تجدد به قوتها فتفوق بذلك من حيث الصحة الجماعات التى تتزوج من أقاربها ويضمحل نوعها تدريجياً . وقد أبد (وستر مارك) هذا الرأى . غير أنه لا يوجد حتى الآن أساس علمى يؤيد أن الاختلاط والتزاوج بين أغراب الدم يحسن النسل وينقى الأرومة ، بل الأمر على النقيض من هذا . « إننا إذا اعتبرنا الأسباب التى دعت إلى انحطاط الأمم نجد أن الاختلاط بالشعوب الأجنبية كان من أهم أسباب هذا الانحطاط ، فالعرب مثلاً إنما سقطوا لكثرة مواليتهم وتفشى التسرى بينهم . ويعزى سقوط اليونان فى الأكثر إلى كثرة عبيدهم حتى جاء عليهم وقت كان العبيد فيه أكثر من الأحرار فى مدينة أثينا . وكذلك الحال فى روما ومصر ، حتى أنهم يقولون : إن مما ساعد المصريين القدماء على التفوق تلك العوائد التى كانت فاشية بينهم من زواج الأقربين كتزواج الأخ بأخته وما جرى هذا المجرى »^١ .

وهناك تعليل ثالث للزواج بالأجنبيات غريبات الدم وهو الذى أصابه داروين فى أبحاث كتابه « أصل الإنسان » وشرحه (لانيج) و (إتكينسون) وهذا التعليل

يفترض وجود أسرة أبوة ابتدائية قوامها رجل بالغ وزوجته أو زوجاته وأولادهم .
ولما كان الأب في تلك الأسرة بطبيعته غيورا وطامعا فقد كان يدعى بحقوق غير محدودة
تجاه نسائه ، ويطرد أبناءه خارج أسرته ، فيضربون في الأرض على غير هدى إلى
أن يجدوا لهم أجنبية يتزوجون بها . على ذلك فإن غيرة الأب هي التي تسببت إيجاد
عادة الزوج بالأجنبيات . وقد أيد (فرويد) هذه النظرية واعتبرها مثالا على تطبيق
Oedipus Complex أضاف إليها تقديره « ان الأخوة المطرودين تكتلوا ضد الأب
فقتلوه وأكلوه وبذلك أفنوا عشيرته » غير أنهم بدلا من أن يقتسموا نساءه كما هو
المتوقع حرموا على أنفسهم تلك النساء وخلفوا للعالم النهى عن وطأ المحارم حتى اليوم .
إلا أنه ليس هنالك من دليل على وجود هذا الأب وحرمة فلم تكن الأبوة كما
نعرفها اليوم معروفة في المجتمعات الابتدائية ، وكذلك لم يكن شعور الغيرة والحسد
معروفا على الوجه الذى نعرفه اليوم . إذ لا يمكن التوفيق بين زواج الجماعات المشتركة
كالذى شاهده مورجان في جزر هواي وزواج الجمع الذى ذكره صاحب السيرة الحلبية
وبين الغيرة . إن رجال الاسكيمو ونساءهم على السواء لا يعرفون الغيرة . وإن رجل
الاسكيمو يعير زوجته إلى ضيفه زيادة في إكرامه . ويقول (ريفرز) ان الإخوة في
كل أسرة من أسر قبائل (التوداس) في جنوب الهند يشتركون في زوجة واحدة .
وقد كان للزوجة الواحدة في (سبارطة القديمة) أزواج متعددون . وعلى هذا فإن
فكرة المتوحش الغيور التي حدثنا عنها (لانيج) و (إتكسون) و (فرويد)
ليست إلا تصورا لحياة الإنسان الاجتماعية في أزمنة ماقبل التاريخ أوحى إليهم بها
وجود الملكية الشخصية للأشياء التي من لوازمها توريث الفروع والمحافظة على عفة
النساء .

والآن فلنبحث في السلطة التي تحافظ على التزاوج بين أفراد البطن والعشيرة
الواحدة ، لا بد لتنفيذ المنع من قوة يمارسها أشخاص معينون يلجأ إليهم الناس عند

اعتداء على العادات الدينية للعشيرة . فمن الذى كانت له تلك السلطة ؟ لقد كان السحرة أو رجال الطب القديم هم الذين يتمتعون بتلك السلطة . ويلوح لنا أن الساحر كان بادی الأمر هو رئيس الجماعة الإنسانية القديمة (ولعله كان فى أول الأمر أكبر أفراد العشيرة) الذى كان يؤم الجماعة نظراً لخبرته فى الاحتفالات التى تقام للدعاء بزيادة عدد الطواطم . وقد يحدث أن يكون هذا الرئيس امرأة ولكن نظراً لأنه كلن من مؤهلات الرئاسة أن يقود الرئيس الجماعة فى حملات الصيد والقنص ، لذلك نجد أن الرئيس كان فى الغالب رجلاً . وكان مركزه يتوقف دائماً على نجاحه فى العمل . فإذا لم يستطع تجنب قومه المجاعة مثلاً كان يعزل ويضرب أو يقتل . ولكن إذا أسعفه الحظ فهناك السمعة الطيبة والصيت الذائع . ومن هنا نشأ مايسميه (فريرز) « الطبقة الوضعية فى تطور المجتمع الإنسانى » . « فريرز - الفصن الذهبى ص ١٠٥ » . وعلى هذا فإن أصل طبقة الكهان ورجال الدين قد وجدوا فى السحر وقد كانوا يعتبرون أن الساحر سلطاناً على قوى الطبيعة المختلفة . حتى ان بعض الشعوب المتوحشة اعتبرته ذاته من قوى الطبيعة . فهو كاهن وإله فى آن واحد ، هذا إذا أسعفه الحظ . أما إذا خانته فعندئذ عليه أن يموت فى سبيل قومه ليتسلم منصبه رجل آخر هو فى الغالب الشخص الذى قتلته فى المبارزة الفردية ؛ وعند ما تألفت الجماعات الأولى فى قبيلة صار رؤساء العشائر والبطون المختلفة يؤلفون مجلس الرؤساء فيها وأصبح أقوام رئيساً للقبيلة كلها ولم يكن منصب الرئاسة بادی الأمر وراثياً وإنما كان هذا المنصب يتوقف على قيام الرئيس بأعباء وظيفته التى كانت سحرية محضة . فإذا عجز عن القيام بعمله أو أقعده المرض أو كبر السن عن ذلك ، كان جزاؤه القتل . ولم يكن له شرطة أو جيش ينفذ إرادته . وإنما كان الاتفاق ركناً لأحكامه . غير أنه كان يتمتع وهو فى منصب الرئاسة بكل ما للرئيس أو الساحر الطيب القديم من نفوذ وسلطان . فكان هو ومجلس رؤساء القبيلة يقومون بكل ما يحفظ القبيلة متحدة . ولعل من نتائج أعمالهم ما حفظته الأجيال

المتعاقبة من الطوطمية وتحريم الزواج بالأقارب ، وما إلى ذلك من الأنظمة والعادات القديمة .

وبعد فلنبحث في الحرب عند جماعات الإنسان الأولى : لقد كان الرأي السائد أن كل قبيلة كانت في حالة حرب دائمة مع جميع القبائل الأخرى . إلا أن فريق علماء الانثروبولوجيا الذين يتزعمهم (إليوت سميث) و (برى) و (ريفزر) أخذوا مؤخراً يتشككون في صحة هذا الرأي ويقولون أنه لم تكن لدى بني الإنسان خلال مدة إقامتهم الطويلة على الأرض - أى خلال دور جمع الأطعمة - الأسلحة التي يقا تل بها في الحروب . وإن أسنان الإنسان وأظافره ليست من حيث القوة كأنياب ومخالب الحيوانات المفترسة . كما أن المظام وقطع الصوان الخشنة لم يكن لها كبير مفعول في القتال . على أنه من المحتمل أن يكون الإنسان - عندما بدأ يصطاد الحيوانات - قد اصطدم في قتال مع أناس من قبيلته أو أن يكون - عندما لم يستطع أن يجد له أنثى في قبيلته لأى سبب من الأسباب - قد أغار على نساء القبائل الأخرى واختطف بعضاً من نساءها . ولسنا نجد بينة مقبولة على أن الإنسان الأول أحب الحرب من أجل الحرب . إن جل القبائل المتوحشة تثير أفرادها للحرب برقص مهيج قبل خوض غمارها . وتلك القبائل تقاتل إلى أن يقع من كل فريق قتيل واحد أو قتيلان وعندئذ تقف المعركة ويتبادل الفريقان الهدايا . ويقول (فريرز) إن على المحاربين المنتصرين أن يطهروا أنفسهم ويستغفروا من ذنب الحرب قبل أن يقبلهم المجتمع ليعيشوا فيه ثانية . وإن القبائل المتوحشة لا تستقبل المنتصرين في الحروب بالترحاب . حتى أن القبائل القديمة المقيمة اليوم في بعض جهات أفريقيا وأميركا الشمالية ، تبكي قتلى أعدائها وترثيهم . وهذا لا يريد تعطش الانسان لسفك الدماء ، وإنما يشير إلى أن الحرب - شأنها في ذلك شأن الصيد والقتل - كانت مما أوجت به ضرورة المعيشة للإنسان .

الفصل الثالث

فجر المدنية

لقد راقبنا الإنسان الأول وهو يتقدم ببطء من جمع الأطعمة إلى الصيد، ومن الجماعة المشتتة إلى القبيلة، ومن ثم يتطور فيشكل نظاما اجتماعيا ويوزع الوظائف بين الأفراد. ولما كانت مدة هذا التطور قد استغرقت مئات الألوف من السنين لذلك قد وصف المجتمع الإنساني الأول بأنه كان ثابتاً لم ينتبه تغيرها. فقد كان الناس يعيشون على ما وجدوا آباءهم عليه من أساليب العيش وأصول الأخلاق واتباع العادات المألوفة وقد كان التطور يرمي إلى تكيف حياة الإنسان حسب محيط المعيشة البدوية ومقتضاها. غير أن الإنسان تقدم نحو الأمام بخطوات سريعة متزنة خلال ألوف السنوات الأخيرة فتحل من قيوده القديمة ووضع أسساً جديدة لعادات القبائل ونظمها. فقد اكتشف استعمال الفخار والخزف فتحسن بذلك طبخ الأطعمة وتنوعت أصناف الأغذية. ثم إن تربية الحيوانات وتدجينها في مراعى آسيا وأوربا زادت طلبات الطعام وكانت حافزاً للإنسان على الحركة والتجوال بحيواناته من سهول إلى أخرى.

لقد أخذ الإنسان يستفيد من اللبن ويعتمد عليه في تربية أولاده. وتحول اعتماده في طعامه من الصيد إلى نتاج حيواناته الأليفة. ولما أخذت النساء تنسج له الثياب الصوفية افتحمت المناطق الباردة. ويسرت له العربات التي تجرها الجمال والثيران أسباب الحركة والتنقل من مكان إلى مكان. فنتج من كل هذه العوامل مجتمعة أن أصبح لدى الإنسان لأول مرة في التاريخ من الأطعمة كميات تزيد عن حاجاته اليومية. وهذه الحقيقة مهدت السبيل لظهور الرق في العالم. ثم تعلم الإنسان أن يزرع

بعض النباتات للطعام ، وقد كانت تتأف بادي الأمر من الخضراوات ؛ وبعدئذ جاء دور زرع الأرض ، بالقمح والشعير في أحواض أنهار العالم القديم ، وبالذرة في بعض أنحاء أميركا . وجاء دور صهر النحاس والصفيح فتقدمت صناعة الأسلحة والآلات والأدوات . وهذه التطورات جميعها هيأت السبل لبني الإنسان ليقوموا أبدىا في القرى ووزعت العمل بين الجنسين - الرجال والنساء - فاختص الرجل بالصيد والقتال ورعى الحيوانات وفلاحة الأرض واختصت المرأة بالطبخ والغزل والنسيج وحفظ بستانها ورعاية أطفالها .

وكل هذا بين ! غير أن هنالك سؤالاً لا مناص من الإجابة عليه في هذا التطور . كيف أمكن للإنسان أن يطبق عاداته وأصول معيشته القديمة في محيطه الجديد ؟ الواقع أن عاداته القديمة لم تعد صالحة لحياته الجديدة وذلك للأمور التالية : أولا لقد بدأ الإنسان يدعى حق ملكية حاصلاته الشخصية خلافاً لما كانت عليه الحال في الأيام الغابرة ، حيث كانت جموع الإنسان تصطاد مشتركة وتأكل صيدها مجتمعة بسبب ضعف الفرد وانعدام الأسلحة الصالحة . ولما بدأ تدجين الحيوانات اعتبرت الحيوانات مشاعاً للقبيلة ؛ ولما جاء دور الزراعة كانت الأرض مشاعاً بين أفراد القبيلة أيضاً ؛ ولما زادت الحاصلات تدريجياً بدأ التنافر بين حقوق القبيلة وحقوق الفرد يظهر للعيان . وأخذت الأراضي الصالحة للزراعة توزع الفينة بعد الفينة بين المزارعين . وإنك لترى في الألباذا أن القتال بين الإغريق والطاراوديين قدشبه بخلاف في توزيع الأرض على هذا الوجه :

كزارعين	بمقل بعد ما قسما	تنازعا	كل شبر في حدودهما
ولا يظللان	في جهد وفي عمل	حتى يوازنه	المقياس بينهما
كذا تعادلت	القوات يسرب من	كلا الفريقين	سيالا نجيمهما

كم جنة سحقت في صدر حاملها ولأمة خرقت من تحت جنته^١
وكذلك صور أولاد (كرونوس) الثلاثة : الآلهة (زفس) و (فوسيدون)
و (هاديس) أنهم قسموا العالم بالقرعة فيما بينهم وقدرت إجراءات القسمة على الوجه
الذي تقع فيه بين الناس لا بين الآلهة . ونتج عن التطور الطبيعي أن اعتبرت
الأنعام ملكاً فردياً بينما ظلت المراعى مشاعية مشتركة^٢ .

و الأمر الثاني من مخالفة الإنسان للعادات القديمة كان ظهور الرق في العالم . لقد حتمت
الزراعة ورعاية الأنعام على الإنسان أن يجهد نفسه في هذه الأعمال الشاقة ، فوفر عليه
الجهد والتعب استرقاق الأعداء المغلوبين واستخدامهم في تلك الأعمال . اشتهر
الناس من أكل لحوم البشر وقبحوا ذلك العمل ، وأوجدوا للأعداء المقهورين عملاً
يفيد الغالبين . وإنك ترى أن الاسترقاق كان أول الأمر من حيث النظرة الإنسانية
تقدماً محسوساً في علم الاجتماع . لقد كانت الأصول القديمة تعتبر أن السير بمقتضى
عادات الجماعة هو الخلق الحسن والسلوك المقبول . فن أي جماعة اجتماعية كان يعتبر
الرقيق ؟ لقد انتزع من جسم جماعته ولم يلحق بجماعة سيده ، بل ظل يعتبر في منزلة
خاصة خارجاً عن الجماعتين .

أما الأمر الثالث فهو أنه بازدياد تغلب الإنسان على الطبيعة يوماً بعد يوم زادت
معرفة بنفسه . وأصبح في المجتمعات المتقدمة يدرك شؤون الأبوة ويهتم بأولاده . وقد
نتج بالضرورة عن زواج الجماعة المشترك كالزواج الذي تحدث مورجان عن وجوده لدى
(الإيركواز) أو الذي وجد في سبارطة القديمة مع الزواج الفردى . إن الرجال الذين
أحرزوا لأنفسهم ممتلكات وأشياء خاصة من الأنعام والأغنام والأسلحة سموا
لتوريثها لأبنائهم بعدهم . وهذا الأمر لم يكن ليتفق في شيء مع نظام الأمومة . إن

١ . الألياذة - النشيد الثاني عشر من ٦٨٨ ، ترجمة سليمان البستاني .

٢ . ذات المصدر من ١٨٥ .

حق الأم كان يعنى أن الأولاد ينتسبون لقبيلة أمهم لا لآل أبيهم . وإذا مامات شخص عن إرث فإن ذلك الإرث يؤول لعشيرته الأقربين وهم أخوته وأخواته وأبناء أخواته ولا يؤول لأولاده الحقيقيين . ولما تملك الإنسان الأنعام والأغنام والعبيد أصبحت يده العليا وعمل تدريجياً مع الزمن لأن يحول استحقاق الإرث إلى فروع الميت الذكور . ولعل العادة العجيبة التي ما زالت منتشرة في كثير من أنحاء أوروبا وآسيا وأفريقيا وأميركا هي من آثار هذا التحول . وتعرف تلك العادة باسم « كوفادى Convade » وهي أن يقف الرجل على سرير ابنه بعد الولادة ويمسكه في إحدى يديه وإحدى رجليه ويجذبه إليه بحنين وتؤدة . وهذه الأصول ترجع إلى أيام جاهلية الإنسان وكان يقصد بها أن يظهر الرجل أن الولد له كما هو لأمه . ثم انه - من أجل تقوية رباط الزواج - فرضت أصول الزواج الشرعى وحتم على المرأة أن تصون عفتها وتمنع نفسها إلا من زوجها . وهكذا نجد أن « أسرة الأبوة » قد نشأت في التاريخ إلى جانب الملكية الفردية ونظام الرقيق فتألفت كل عائلة من الرجل وزوجته وداره وخادمتة وثوره وحماره وكل الأشياء التي يملكها ذلك الرجل . ولسنا نجد للمرأة اليوم حقوقاً مماثلة تمتعت بها في الأزمان الغابرة اللهم إلا في بعض الجهات القاصية من العمورة في أفريقيا وأميركا وأستراليا وبين بعض قبائل الملايو حيث نجد بعضاً من بقايا تلك الحقوق حتى اليوم .

والأمر الرابع هو أن التحول من مجتمع يعيش على الصيد وحده ، إلى مجتمع يعيش أبناؤه على الرعى والزراعة ، جعل الطوطمية القديمة تصبح عديمة النفع ولا موضوع لها . فلم يعد الإنسان يعتبر الحيوانات من جنسه ونوعه بعد أن دجنها ووضعها تحت خدمته يتصرف بها حسب رغبته . غير أن ما نهت عنه الطوطمية وحرمته ظل أثره باقياً مع تغير أصاب جوهره . لقد نسي الناس عموماً الطوطمية ولم يعودوا يكثرثون بالمحافظة عليها . وانحصر الاهتمام بها في رؤساء القبائل وبجالسهم من رجال السحر والطبابة الذين أخذوا على عاتقهم المحافظة على عادات الآباء وتراث الأجداد . وفي هذا

الدور اختلف النظر إلى الطوطم فاعتبر أنه مقدس عند إله القبيلة أو إلهاتها . وهذا الإله أو الإلهة كان في نظرهم أحد الجدود القدماء الذين يمثلهم رئيس القبيلة الموجود . وقد كانت الإلهة في المجتمع الذي تسوده أصول الأمومة من الاناث وكانت في مجتمع أمرة الأبوة من الذكور . وأما الآن لاحظ العلماء أمراً جديداً : فقد كانت القاعدة في المجتمع الذي يعيش على جمع الطعام أن يعتبر الحيوان أو النبات المحلي طوطماً فقد اعتبرت الأرض التي تنتج الحاصلات إلهة واعتبر المطر الذي يروى تلك الأرض إلهاً . وذلك في المجتمعات الزراعية وكانت وظائف الرئيس تشتمل على العمل لزيادة نوع الطوطم في السابق فأصبح اليوم مسؤولاً عن العمل لإنزال المطر وإنماء الزرع فإذا عجز عن ذلك أو فشل في عمله قُتل وخلفه شخص آخر ممتلئاً غيرة وحماساً ليقوم بتلك الوظائف . وقد يؤجل قتله إلى نهاية فصل معين لكي تنتقل - على زعمهم - قوته كاملة إلى الرئيس الجديد . وقد حدث في أحد الأيام أن قرر أحد هؤلاء الرؤساء أن يتمتع بسلطة وظيفته دون أن يتحمل من التزاماتها شيئاً . لقد رفض أن يموت في نهاية دورته . وقد خولته كثرة الحروب القبلية وانتشار الرقيق ووجود عصبية له بسبب أمرة الأبوة أن يصبح عزيزاً مهيب الجانب .

ليس من المناسب أن يقتل الجنود قائدهم في وسط الحروب وشدة المعارك . وكان الرئيس يحتفظ لنفسه بحصة الأسد من العبيد والأنفال . وكانت له السلطة المطلقة على أبنائه في داخل الأسرة . لقد حالت هذه القوى بين الرئيس وعشيرته . فأخذوا يبحثون في حلول مختلفة ، وأخيراً توصلوا إلى حل ذي شقين : إذا رضى مجلس الرئاسة عن الرئيس فقد يسمح له بأن يضحي عنه عبداً ، وإذا غضبوا عليه قدم للذبح أحد أبنائه . إن تضحية الإنسان هي من الأمور الخفيفة التي لازمت تقدم المدنية يبدأها لم تكن من الأمراض الشائعة عند ما تطور الإنسان في حياته من دور الصيد إلى دور الزراعة ، وقد بلغت ذروتها الشنيعة عند العبرانيين .

إن هذه الأدوار في تاريخ المدنية - التطور من جمع الأطعمة إلى إنتاجها ، ومن حالة سلم دأمة إلى حرب دأمة ، ومن اشتراكية عامة إلى الملكية الفردية ، ومن حقوق الأمومة إلى حقوق الأبوة ، ومن السحر إلى الدين - قد تركت طابعاً عميق الأثر في « الفكلور » الإنساني ، وهذا يتألف من « الاعتقادات المأثورة والعادات والقصص والأغاني والأمثلة الفاشية بين الأمم المتأخرة أو التي تحتفظ بها الطبقات المتأخرة في أمة متمدينة وهي تدل على عقلية الإنسان الأول في الفلسفة والدين والعلم والطب والنظام الاجتماعي » . إننا نجد (هيسويد) شاعر الفلاحين الإغريق يشيد في قصائده بذكر العصر الذهبي حينما كان كورونس ملكاً وأخرجت الأرض ثماراً يانعة من ذاتها وعاشت قبائل الناس بلا تعب أو نصب ولكن الإله (زفس) أخفى في غضبه أسباب المعيشة وأرسل (پاندورا) المغوية (وهي امرأة جميلة) للتضليل فجلبت للعالم العمل والحزن ، فتلا العصر الذهبي عصر الفضة والبرونز والحديد وظلم الناس الناس وامتلات الأرض ظلاماً وجوراً وحرباً . ونجد أن العبرانيين قد استقوا من أصل بابلي قديم فحكوا أن الرجل والمرأة عاشا سعيدين يأكلان من جميع شجر الجنة إلى أن أخذت المرأة من ثمرة شجرة معرفة الخير والشر وأكلت وأعطت رجلها فأكل . « فقال الرب لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل ، بمرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها . وقال للمرأة . تكثيراً أكثر أعاب حبلك ، بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك ! » (التكوين : الإصحاح الثاني) .

ثم انتهى دور الطهارة إذ فسدت الأرض بقتل قابيل أخاه هايل فكان قابيل أول عامل في الأرض وأول قاتل فيها . وأنت ترى في الروايتين شيئاً من الاتفاق .

ففي كلا الحالين اعتبرت الزراعة أساساً لتعب البشر واعتبر العمل لعنة حاقت بالإنسانية وبما أنهما تدوران حول مجتمع ساد فيه نظام «الأبوة» لذلك ألقى اللوم على المرأة واعتبرت سبباً لمحنة الإنسانية .

على أن العالم القديم كثيراً ما حاول تصحيح هذا الوضع والعودة إلى حياة العصر الذهبي . وليس عيد (سكيا) الذي كان يحتفل به البابليون للإلهة عشتروت ، وعيد الإغريق للإله (كورنس) وعيد الرومان المعروف باسم (ساشرناليا) إلا بعضاً من تلك المحاولات . فقد كان السادة يحتفلون مع عبيدهم في هذه الأعياد ويتبادلون الخدمة على المائدة فيخدم السيد العبد والعبد السيد أيام العيد .

حتى أن نظام الأبوة كان يعتمد على عادات الزواج القديمة في مناسبات خاصة . لقد عم الشرقين الأدنى والأوسط من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر الكنج في الأيام الغابرة عادة غريبة حتمت على المرأة أن تسلم نفسها في هيكل الإلهة الأم إلى أجنبي مرة في حياتها على الأقل ، كي تؤهل بذلك نفسها للزواج . ولم يكن المجتمع ليعتبر أن النساء اللاتي كن يقمن بهذا العمل قد ارتكبن شيئاً فرياً بل الظاهر مما كتب على لوحة وجدت في آسيا الصغرى يرجع تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد أن هذا العمل كان يعتبر مقدساً . لقد خلدت تلك اللوحة عدداً من النساء اللاتي انتسبن إلى عائلة واحدة وكن يعملن بنفائ في الهيكل جيلاً بعد جيل .

والواقع أن نظام الأبوة مع ما فيه من غمط لحقوق المرأة لم يكن القاعدة السائدة في المجتمعات الزراعية إبان الأدوار الأولى من حياتها . تبدو العلاقات الجنسية في نظام الأمومة مفككة أول الأمر ولكنها مع ذلك اتجهت تدريجياً نحو نظام زواج الفرد أي اختصاص المرأة بزواج واحد فقط . وعندما ظهرت حقوق الأبوة للوجود حتمت على الرجل رغبته في أن يكون له أولاد شرعيون أن يوجه المرأة إلى المحافظة على عفتها . وقد نتج عن هذا التحول في العادات أن اضطرت النساء لأن يقمن بواجبهن نحو أمهن الإلهة قبل الزواج ومن ثم

يقمن بواجبهن نحو الأزواج . ثم تغير الحال مع تغير الزمن وانتشرت السيادة المطلقة للرجل على المرأة واندثرت بانتشار المدنية بين سكان المدن واجبات النساء نحو المهتمين واعتبر اتصال المرأة بغير زوجها بغاء .

➤ على أن تقدم المدنية لم يكن متساوياً في جميع أنحاء المعمورة . فقد انتشرت الزراعة في الأراضي الواقعة في أحواض الأنهار وبقيت القبائل الساكنة في الأماكن الأخرى تعيش على تربية الحيوانات . وتقدمت الجماعات الزراعية في حياتها وتحولت من الشيوعية إلى الملكية الفردية وحيازة الماشية والعبيد ومن الإيمان بحقوق الأمومة إلى الاعتراف بسيادة الأب . إن تربية الماشية لا تستدعي عملاً شاقاً كالذي تستلزمه الزراعة ، ولا تحتاج إلى احتفالات دينية خاصة ليغاث الناس في سنى القحط كالاحتفالات التي تقوم بها جماعات الزراعة ، وقد كان رئيس قبائل الرعاة قائداً عسكرياً أكثر منه ساحراً طبيباً . وكانت قبائل الرعاة التي تقيم على حدود الأراضي الزراعية تغزو المزارعين وتحتسدهم على خيراتهم وأسباب معيشتهم . وقد تحكم مع الزمن عداء تقليدي بين « الورد » و « المندر » ولكن هذا العداء لم يمنع من إنشاء علاقات تجارية بين الفريقين ، ولم يحل دون خلق روابط واتصالات بين القبائل التي تسكن الصحراء كان من نتيجتها تفاهمهم جميعاً بلغة واحدة .

وهكذا نجد أن عدداً من القبائل العربية التي كانت تقيم على حدود المدينيات الناشئة في العراق ومصر تكلمت اللغة السامية التي تفرعت عنها الآشورية والفينيقية والآرامية والعبرية والعربية . ويقول علماء اللغات السامية إن العربية هي أقرب اللغات في هذه المجموعة إلى اللغة السامية القديمة ، وإن الساميين القدماء كانوا يعيشون على رعي الحيوانات كما تعيش بعض القبائل العربية اليوم . وكانوا منقسمين إلى قبائل وشعوب تربطها معاً لمة الانتساب إلى جد واحد من جهة الأبوة . وكانت طرق الحياة وأساليب

المعيشة بين هذه القبائل بسيطة ساذجة ولم يبد عليها شيء من التطور إلا بعد أن سكن العرب التلال الخصبية في العراق وسوريا وفلسطين .

وهناك جماعة أخرى من القبائل البدوية كانت تقيم في البوادي الواقعة بين آسيا وأوربا نشأت بينهم اللغة الآرية وتفرعت عنها السنسكريتية واليونانية واللاتينية والكلتية (لغة أهل اسكتلندة) والترتنية (الجرمانية) والسلافية وقد كانت هذه القبائل مقسمة إلى قبائل وشعوب، شأنها في ذلك شأن القبائل السامية بيد أن الانتساب فيها كان إلى جذات من جهة الأم . وكانت تعبد إلهاً ذكراً عرف بالسنسكريتية باسم « دايوس » أو السماء ، وباليونانية باسم « زفس » وفي اللاتينية باسم « جوبيتار » أو المشتري . على أن المدنية لم تبدأ بالرعاة الساميين أو الآريين ولكنها نشأت في أحواض الأنهار العظيمة كالنيل والفرات ودجلة والسند وهوانج هو حيث نتج عن انتشار الزراعة زيادة كميات الأطعمة ونمو عدد السكان مما جعل الحاجة ماسة إلى نظام اجتماعي معقد يحل مكان الشعب والقبيلة . ولما اجتمعت ثلاث قبائل وأقامت في صعيد واحد لتيسير سبل مقايضة محصولاتها أو للعبادة ، ظهر للوجود كيان آخر بين الناس هو « المدينة » وأصبح أقوى رؤساء القبائل (شيخ المدينة) أو ملكها وأصبح إلهه معبود السكان ، وقد أقطعت له خير الأراضي فبنى بيته وهيكل للإله وخصص عدداً من العبيد لخدمته . ولم يخصص الهيكل للعبادة فقط وإنما استعمل كستودع للسكان ولما تقدمت التجارة واستخدم الناس النقود المعدنية كان الهيكل المكان الذي تودع فيه تلك النقود كما تودع اليوم في البنوك . وقد مهدت إدارة الهيكل والمدينة لاختراع الكتابة . وتاريخ هذا التطور (وهو سنة ٣٠٠٠ ق. م في مصر وسنة ٤٠٠٠ ق. م في العراق وسنة ٢٠٠٠ ق. م في الصين) يعتبر نقطة التحول في حياة الإنسان وانتقاله من دور الهمجية إلى فجر المدنية .

الفصل الرابع

مِصْرَ وَبَابِلَ

إن أجل حادث في التاريخ المدون القديم هو اتحاد مصر العليا ومصر السفلى في مملكة واحدة في حوالي سنة ٣٤٠٠ ق م . ومع أن الكتابات التي سبقت ذلك التاريخ قليلة جداً إلا أننا نستطيع أن نقرر أن مصر كانت خلال قرون سبقت هذا العهد مأهولة بالسكان من الفلاحين الذين كانوا يستعملون الأدوات الخشبية والصوانية والنحاسية دون الحديدية التي لم يكونوا قد اكتشفوها بعد . وكانت البلاد منقسمة إلى مدن كثيرة ، كل مدينة تعتبر دولة منفصلة ، على رأسها ملك من رجال الدين ولكل منها هيكل للعبادة والهة محلية أو إله هو في الأصل طوطم القبيلة كأبيس مثلاً إله ممفيس الذي كان عجلاً ، وحاتور الهة تنتيرا أوخنوم وكانت بقره . والوعل الذي كان إلهاً في الأليفانيين . وقد كان اتحاد هذه المدن المنفصلة باديء الأمر في مصر العليا ومصر السفلى ومن ثم في مملكة واحدة ، ظاهرة اجتماعية جديدة في التاريخ . وكان فرعون الملك عليها ، وكان ملكه دينياً : فهو الواسطة بين الآلهة والناس وهو المسؤول عن ارتفاع مياه النيل وانخفاضها ، وهو الذي ينمي الزرع وينشر الرخاء بين السكان ، ليس في مدينة واحدة أو جهة واحدة من البلاد فحسب ، وإنما في مصر عامة من أقصاها إلى أقصاها . وقد أصبحت أسر الكهنة التي كانت تخدم الهيكل المحلية تؤلف طبقة النبلاء الاقطاعيين . وقد كانت السلطات الدينية والعسكرية والمدنية متمركزة أول الأمر في شخص واحد ، ولكنها وزعت على أفراد

عديدين فيما بعد . وقد حلت حقوق الأبوة محل حقوق الأمومة ببطء في هذه البلاد .
وقد اعترفت مصر بتوزيع الإرث على سلالة المرأة ولكن الخلافة على الملك كانت
للذكور ، وقد أباحوا الزواج بين الأخ والأخت وكان دون الملوك طبقة الكهنة والنبلاء
الذين حملوهم على ظهورهم ؛ ثم الفلاحين والصناع والعبيد الذين كانوا يفلحون الأرض
ويعملون الفخار والخزف ويصنعون الأدوات والأسلحة ويبنون الهياكل والتبوير
والاهرامات التي يلزم ذكرها اسم مصر اليوم .

أما في العراق المتاخم للصحراء العربية من الناحية الأخرى فقد قامت مدينة مماثلة
هي مدينة السومريين . وهنا - كما في مصر - تكتل الفلاحون حول عدد من المدن
المنفصلة التي كان لكل منها ملك ديني وإله أو الهة محلية . إن الآثار الكتابية الموجودة
اليوم في العراق تكاد ترجع في زمانها إلى عهد الآثار المصرية القديمة . ولكن نظام
الكتابة السامرية في العراق ليس كنظام الكتابة المصرية الهيروغليفية . وكذلك نجد
الدينيتين مختلفان عن بعضهما وقد نشأتا مستقلةين . لقد ظهر من الاكتشافات الأثرية
في السند التي كان من بينها كتابات تشبه الحروف السامرية أن صلة السومريين كانت
وثيقة بالهند .

وقد كانت مصر والعراق على السواء معرضتين دائماً للهجوم عليهما من الخارج .
ولدينا من الأدلة ما يحملنا على الاعتقاد بأن قبائل من رعاة الساميين هبطت مصر في
أزمنة ما قبل التاريخ بأعداد كبيرة فأثرت لغتهم في لغة البلاد العامة . غير أن الصلة بين
اللغة المصرية واللغات السامية مازال يكتنفها غموض كبير . أما العراق فقد كان أكثر
من مصر تعرضاً لأن يحتاج من الخارج . والواقع أن الساميين نازعوا سكانه من
السومريين منذ زمن بعيد جداً في التاريخ حيازة حوض دجلة والفرات . وقد نتج
عن ذلك أمران : استغرق اتحاد مدن العراق مع بعضها زمناً طويلاً يزيد عن المدة
التي اقتضاها اتحاد المدن المصرية وتشكيلها لمصر العليا ومصر السفلى وارتادت

القبائل البدوية لتلك البلاد ونشأت طبقة من التجار ووضع نظام تجارى وقانونى معقد لم يكن له مثيل فى مصر آنئذ . إلا أن المدينتين - مدينة مصر ومدينة العراق - كانتا متشابهتين من حيث نظام الحكم المطلق فيهما من جهة ، ومن حيث تقسيم سكانها إلى طبقات منفصلة عن بعضها البعض من الجهة الأخرى .

لقد كانت طبقة الكهنة فى فجر المدنية جماعة تستغل عن عمد جهل طبقات السكان الأخرى وحسن نياتهم . وحياة هذه الطبقة كانت على النقيض من حياة الأطباء السحرة الذين كانوا فى زمن الإنسان الأول . لقد كان هؤلاء السحرة يعتقدون بكفاءة أنفسهم ومقدرتهم على القيام بخوارق الأعمال . أما الكهنة المصريون والبابليون فلم يكونوا يعتقدون بأن السحرة يحكم بأحداث الطبيعة وظواهراتها . وآية ذلك أن اكتشاف الأسباب الحقيقية لتلك الأحداث بدأ خلال تلك العصور فى كلا البلدين .

إن اهتمام الكهنة فى مصر بمعرفة أيام فيضان النيل بادر الأمر جعلهم يشعرون بضرورة قياس الوقت « وقد كانوا يقولون فى ذلك على القمر فيحسبون الشهر من هلال إلى هلال . » ثم أحكموا مراقبة السماء فوضعوا لذلك أساس علم الفلك وقرروا « أن تكون سنتهم اثنى عشر شهراً كل منها ثلاثون يوماً وجعلوا الأيام الخمسة الباقية أعياداً تختم بها السنة . » إن لدينا بينات قاطعة على أنهم وضعوا تسويات صحيحة للأهرامات . وكانت هنالك مراصد للنجوم أقيمت ملحقة بالهياكل فى بلاد بابل وقد رصدوا بواسطتها حركات النجوم والسكواكب واستطاعوا أن ينبئوا بكسوف الشمس وخسوف القمر قبل وقوعهما . وقد تمكن السكان فى البلدين من زيادة حاصلات الزراعة بإنشاء نظام للرى وحفر ترع كثيرة تسيل فيها المياه إلى مساحات شاسعة من الأراضى . إن الرجال الذين قاموا بهذه الأعمال واكتشفوا قوى الطبيعة وسخروها لأغراضهم لا يمكن أن يكونوا قد اعتقدوا بأن السحر الذى يقوم به الكاهن أو الملك

هو الذى يخضع قوى الطبيعة له وينمى خيراتها . على أن العلم بوجه عام وعلم الفلك بوجه خاص كانا ما يزالان فى دور الطفولة . غير أن حقيقة الدين ظلت أمراً مكتوماً وحصناً منيعاً يتدفع به رجاله . فاستمرت العقائد والعادات البربرية بما فيها القرايين البشرية سارية المفعول يستوحى منها الكهنة قوة للتأثير على المجتمعات التى لم تعد بحاجة إليهم .

وقد كانت هذه الأمور أكبر دليل على فساد العادات القبلية وتفككها ؛ لقد كان الإنسان الأول فقيراً ضعيفاً جاهلاً يعتمد فى حياته على رحمة الطبيعة ، وبعبارة أخرى كان ساذجاً مغروراً ؛ ولكن الفقر والجهل والسذاجة كانت الصفات التى لازمت الجنس البشرى كله آنئذ . أما فى المجتمعات المتمدينة فكان الأمر على النقيض من ذلك ، فقد كانت هنالك طبقة حاكمة على جانب من الثراء والقوة والمعرفة عرفت تدريجياً أسرار العقائد وتحكمت بقوى الطبيعة ولكنها مع ذلك نشرت بين العامة من الشعب الجهل والخرافات . ولم يكن لتلك المجتمعات غرض مشترك ولا خلق مشترك ، ولكن كان بينها تنازع فى المصالح والأهداف أدى فى النهاية إلى تناحر الطبقات علناً .

إن معرفة الكهنة وعلمهم كان ما يزال محدوداً . وجل ما توصلوا إليه من المعرفة لا يتفق مع العلم الحقيقى فى شئ بل كان سلسلة من الخرافات والأوهام والخزعبلات ، من ذلك هيكل الآلهة البابائيون الذى خصص لمجموعة من الطواطم المؤهلة التى ورثها هذا العهد عن أيام ما قبل التاريخ . وكذلك العقيدة التى حبت مصر بها الإنسانية وهى التى تقول بخلود الروح الإنسانية . لقد رأينا فى فصل سابق كيف أن العادة فى المجتمعات الزراعية كانت تحتم إماتة رئيس القوم بين حين وآخر كيما تنتقل قوته إلى الأرض فتصبح خصبة . وقد كان الرئيس الميت فى عرف الإنسان الأول هو محصول الزراعة ذاته . لقد جعل المصريون للمحصول شخصية هو الإله أوزيرس الذى

قتل وشوهت أعضاؤه ثم دفن ولكنه ظل يقوم في كل سنة أيام حصاد الذرة وعلى ذلك فقد كان الرئيس الميت في عرفهم هو أوزيرس . أما في أيام التاريخ فلم يكن الملك ليقتل وإنما كان يحرق في البلاد بدلا منه رجل ذو رأس أحمر ويذرى رماده بالمدرة فتتشره الرياح في أما كن متعددة . وقد كان الملك يتمتع بأحسن ما في الدارين . فقد كان الأمر الناهي في الحياة الدنيا وبعد وفاته ودفنه كان الشعب يحترمه ويقده .

أما رجال الكهنوت فقد اتخذوا من الخرافات الشائعة أسبابا ليرسموا أصولا لعبادة الفراعنة المتوفين . فقد حنطوا أجسامهم لئلا يصيبها التعفن وجعلوا من قبورهم مساكن تليق بهم ، ملؤوها بالفراش والرياش والماء كل والشرب والذهب والفضة والصور والتماثيل وحفروا في جوانبها الرق والعزائم ليبعدوا من القبر الحيات والثعابين والأبالسة والشياطين لئلا ترزعج الموتي . ولعل أكبر أثر يدل على استئلال جهل وسذاجة الشعب في عصر ما هو الأهرامات التي أقيمت من الحجر الكلسي أو الجرانيت لفراعنة الأسرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة (من سنة ٣٠٠٠ إلى ٢٤٠٠ ق م) .

لقد كان التحنيط بادئ الأمر محصوراً في الملوك . ثم تعداهم مع مرور الزمن إلى النبلاء بوجه عام . كان الكهنة المصريون والطبقة المثقفة بثقافة ذلك العصر يؤمنون بصحة آرائهم وهذا أعجزهم عن إدراك أن الموت سيكون خاتمة حياة الطبقة الراقية التي كانت تضمهم . فهم لم يكونوا علماء إخصائيين بعلوم ما وراء الطبيعة « الميتافيزيقا » وكل ما كانوا يدركونه هو الحياة المادية التي اعتبروا موتها بقاء الأجسام ، أما وقد حفظ التحنيط الأجسام من الفناء فقد حسبوا أن هذا هو الخلود الأبدى وأن خيال الروح سيعود يوماً ما إلى الجسم فيبعث فيه القوة ويهب من سباته العميق . غير أن الفلاحين والصناع وعامة الشعب لم يكونوا يعتبرون في هذا الدور من الخالدين على الأرض بل كان دفنهم في القبور نهاية لحياتهم .

لقد أدى استغلال الشعب في بناء الاهرامات إلى ثورة اجتماعية أضعفت من قوة البلاد وجعلتها فريسة للغزو الأجنبي وقد شعرت الطبقة الراقية بخطورة الحال . إن المصادر التي بين أيدينا سقيمة ولكننا نستطيع أن نؤيد هذه الحقيقة من بعض المستندات التي اكتشفت حديثاً . يقول كاهن من سكان هليوبوليس : « لا قوة للفقير تقيه شر من هو أقوى منه ... فالحق مضاع والظلم مخيم على قاعة المجلس ... » وقد شعر غير هذا الكاهن بمساس الحاجة إلى ملك صالح يضع الأمور في نصابها « ويجعل من النار برداً وسلاماً . ويقولون إن هذا الملك هو الراعي الصالح الذي لا يضر في نفسه شراً لأحد ... ولكن أين هو الآن ؟ أهو نائم يا ترى ؟ هو ذا ! غير أننا لم نر قوته بعد ، غير أن الشعب سيتهيج في أيامه . وإن ابن الإنسان سيذكر اسمه أبد الأبد ، وسيعود العدل إلى نصابه ، ويرفع الظلم والجور من الوجود . »^١

وغنى عن البيان أن العدل المنشود هنا هو العدل النسبي . وهو في نظر المولى إعادة عبده الأبق إليه . وفي نظر العبد لم تكن إعادته إلى سيده إلا ضرباً من الجور والظلم . وكذلك كانت نظرة النبلاء الاقطاعيين إلى العدل تغاير نظرة الفلاحين والصناع إليه . على أنه ليس هنالك سور له باب يفصل بين طبقات الشعب ويعزل الواحدة منها عن الأخرى . فقد كانت أصوات الشكوى والتذمر تخترق حدود الطبقات فيشعر بها من أوتى الحكمة وقوة الإدراك . إن اقتبسات المينة أعلاه تشير إلى أن الفلاحين والصناع كانوا يشكون مر الشكوى في ذلك العهد . وقد تغفلت هذه الشكوى في صفوف الشعب فعملت عملها في النهاية . وليس هذا الأمر بعجيب فتلك سنة الله في خلقه ولا بد أن يعقب الضغط الشديد الانفجار . وسنرى في أبحاثنا القادمة أن شكوى الرقيق وتذمرهم وجدت لها في العصور القديمة أذناً واعية فكيف بشكوى الأحرار .

1. Breasted, History and Social Idealism, in the Rationalist Annual, 1936

بلغت مصر
مصر
XII (XII)

لقد نتج عن الاضطراب الاجتماعى ثورة جامحة انتهت بخلع الطاغية خيى الذى
« أضر بالشعب المصرى ضرراً كبيراً . » لقد بلغت مصر فى عهد الأسرتين الحادية
عشرة والثانية عشرة (حوالى ٢١٠٠ إلى ١٨٠٠ ق م) أوج مجدها وعظمتها فخاضت
غمار حروب كثيرة انتصرت فيها ، وقامت بأعمال عمرانية كبيرة فى داخل بلادها
منها سد بحيرة الفيوم وإقامة الهياكل والقبور والاهرامات . لقد كان الشعب المصرى
يتألف من الكهنة والنبلاء وموظفى الحكومة ومن عامة الشعب . « وكان بعض
هؤلاء أحراراً يتعاطون صناعاتهم المتنوعة وتجارتهم كما يشاءون ، وبعضهم أرقاء يعملون
فى أراضي الأغنياء إذ لم يكن لأحد من طبقات الشعب الدنيا عقارات خاصة بل كانت
الأراضى كلها فى حيازة النبلاء . »

لقد عرف هذا العصر فى تاريخ مصر القديمة بعهد الاقطاع « وقد تقدمت البلاد
فيه من جهة الأخلاق والسلوك كما تقدمت فى استهلاك عصر الاهرام تقدماً عظيماً فى
السلطة وهندسة البناء والفن . » فقد اكتشف قبر أمير مصرى من عهد الاقطاع هذا
وجد فيه أن ملكاً عدد حسنات نفسه فقال : « لم أعتد على شرف بنت من بنات شعبي
ولم أظلم أرملة ، ولم أغتصب مال أحد الفلاحين ، ولم أطرده راعياً من خدمتى ، ولم يكن
أحد بين جماعتى تيساً ولا جائعاً وأنا فى الحياة . ولما أنت سنو الجوع فلتحت وزرعت
كل أراضى احتفاظاً بحياة المقيمين فيها . فلم يكن بينهم جائع ، وقد ساويت فى عطائى
بين الأرملة وذات البعل . وفى كل ما وهبت لم أؤثر العظيم على الوضيع . »^١

لقد حاول المصريون أن يجدوا فى الدين مخرجاً من مشاكل الحياة المختلفة التى
أخذت تعترض حياتهم اليومية . فجعلوا آلهتهم من بنى الإنسان ، نشروا تماثيلها فى

١ بريدست ، المصور القديمة ، ص ٦١

هياكلهم مكان هياكل الحيوانات القديمة التي كانت تمثل «طهاطهم» ، وأصبح الإله أوزيريس الذي مات وكان يبعث سنوياً في موسم الحصاد رمز الحياة الأبدية التي كان يعمل لها كل مصري يستطيع أن يقوم بتكاليف التحنيط . وقد بدأ العمل بالسفر المعروف بـ « كتاب الموتى » من هذا العهد . وهذا الكتاب كان يُحفر على ألواح خشبية أو ينقش على الحجارة ، والغاية منه إسعاد الميت في الدار الآخرة . إن البحث في مصير المرء في الدار الآخرة دليل على تعبه من مشاكل الدنيا . وقد انغمس المصريون بعد الأسرة الثانية عشرة في حروب داخلية مزقت البلاد إلى جماعات كثيرة وهيأت السبيل لغزو المكسوس أو الرعاة لمصر .

أما تاريخ بابل فيختلف عن تاريخ مصر لأسباب جغرافية على الأغلب . فالعراق أكثر تعرضاً للاتصال مع الخارج في حالتي السلم والحرب . ولسنا نعلم بمعرفتنا التاريخية الحاضرة أن قوماً من الناس غزوا مصر قبل عهد المكسوس ؛ ولكننا نعلم يقيناً أن السومريين والساميين نزلوا العراق منذ زمن قديم . وقد كان المسيطر على التجارة في مصر جماعات من الأجانب ؛ وأما في العراق فقد كانت التجارة في أيدي طبقة خاصة من أبناء البلاد منفصلة بالكيفية عن الكهنة وموظفي الدولة . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الساميين الذين نزحوا إلى بابل من الصحراء اتخذوا التجارة حرفة لهم لخبرتهم في طرق الصحراء التجارية التي اكتسبوها من آبائهم وأجدادهم . وبعد أن وُحِدَ «سرجون» العراق في حوالي سنة ٢٨٠٠ ق م اتصلت أنحاء الأمبراطورية ببعضها بسلسلة من الطرق كان يسير عليها البريد المنظم وقد استخدمت أختام من الفخار لتقوم بمثل وظيفة الطوابع البريدية التي نستعملها اليوم . ثم انتقلت قيادة البلاد وزعامتها من مدينة إلى مدينة بسبب الخلافات الداخلية ولكن ظلت دائماً تتحدى وجه العدوان الأجنبي . وقد استوفى ملوك (أكاد) و (أور) و (أسن) الجزية من (الهلل الخصب) بين خليج فارس والبحر الأبيض المتوسط .

وإننا نستند في معرفتنا بحياة بابل الاجتماعية إلى اكتشاف شريعة حمورابي في سنة ١٩٠١ التي استنساها لأمبراطوريته . لقد كانت بابل كمصر بلاداً زراعية تديرها حكومة أتوقراطية . غير أن قيام طبقة التجار أدى إلى انتشار إقراض الأموال بشكل لم يكن ليتفق مع العادات القبلية . وقد سمحت شريعة حمورابي باستيفاء فائدة تتراوح بين ٢٠ إلى ٣٠ ٪ .

لقد كان السكان في بابل ينقسمون اجتماعياً إلى ثلاث طبقات منفصل بعضها عن بعض تماماً : طبقة النبلاء وكانوا يعرفون باسم (أميلو) وهم نسل الفاتحين الوافدين إلى البلاد منذ القديم ؛ طبقة العوام وكانوا يعرفون باسم (موسكينو) ولعلمهم كانوا من نسل التجار الأجانب الذين استوطنوا البلاد وأقاموا فيها ؛ وطبقة الأرقاء وكانوا يسمون (أردو) وهؤلاء كانوا إما من أسارى الحروب ، أو من العبيد مولداً أو المجرمين الصادرة عليهم أحكام ، أو المدنيين المفلسين . وقد كان المجتمع البابلي يؤمن بحق الأبوة وآية ذلك أنه كان يحق للمدين أن يسترد اعتباره ببيع زوجته أو ولده كما يباع الرقيق بيعاً مؤقتاً لمدة ثلاث سنين . إلا أن بعض آثار حقوق الأمومة كانت ما تزال باقية في البلاد من ذلك : بعض مواد قانون الزواج التي أباحت زواج الحرة بعبد على أن يعتبر نسلاً من الأحرار . أما العادة التي ذكرها هيرودتس التي حتمت على كل بابلية أن تؤهل نفسها للزواج بعرض نفسها للبقاء في هيكل (عشتروت) الهة الحب ، فلم تؤيدها الاكتشافات الأثرية بعد . إلا أن هيرودتس كان صادقاً ولم يعرف عنه أنه كان كذاباً وقد قال إن تلك العادة كانت واسعة الانتشار . « وكانت منزلة المرأة في العالم البابلي القديم سامية كما كانت في مصر ، فكان النساء يتعاطين لحسابهن انخاض الأعمال التجارية وسواها مستقلات تمام الاستقلال ويقمن مقام الكتبة الفنيين ، وكان لابد لهن من الاستعداد اللازم لذلك في مدرسة كالمدرسة التي وجد الأثريون آثارها في أطلال بابل وهي ترجع إلى عهد حمورابي . ومن تلك الآثار ألواح الآجر التي كان

طبقة
السكان
بابل

الطلبة من الجنسين يكتبون عليها الفروض المدرسية منذ أربعة آلاف سنة فقد وجدت مطروحة على أرض المدرسة . »

إن دراسة العقوبات التي وضعها شريعة حمورابي لأجرائم المختلفة تبين لنا القيم والأوضاع الاجتماعية التي سادت ذلك العصر . وأجل تلك القيم والأوضاع وأظهرها هو المحافظة على أسرة الأبوة ؛ فقد جعل الموت (بالخنازوق) جزاء للمرأة التي تقتل زوجها من أجل معشوقها . ووضعت عقوبة الموت حرقاً للأُم والابن اللذين يفسقان ببعضهما . وجعل الموت غرقاً من نصيب المرأة الناشز من بعلمها دون ما إثارة منه لها . وجعل الموت غرقاً جزاء للزاني والزانية إلا أن يعفو الملك عن الزاني ويعفو زوج الزانية عنها . ونصت شريعة حمورابي بأن عقوبة الموت (ولم يعين شكله) هي جزاء من يفتصب خطيئة غيره . وكانت المرأة المسرفة تطلق أو يستعبد لها زوجها . ومن ضرب من الأبناء أباه قطعت يده . ويقطع ثديا الظئر التي تبدل ابن مرضعها بولد غريب . وينفى الأب الذي يفسق بابلته . ويحرم من الإرث الابن الذي يفسق بزوجة أبيه أو يعق والدیه . وأما الأب الذي يفسق بمخطوبة ابنه فيغرم جزاء نقدياً .

ويتلو منزلة أسرة الأبوة ، من حيث القيمة ، كرامة الكهنوت . فالكهنة التي تدير شمارة أو تدخلها تحرق حية . والموت جزاء السحرة إلا نسل الذين أنعمت عليهم الآلهة ، منذ ازمان البعيد ، بالمقدرة على الإنباء بالمستقبل أى العرافة . ويدعى الذين مارسوا العرافة عرافين . « وكان هؤلاء الناس يرصدون النجوم الثابتة والسيارة معتقدين أنهم بذلك يدركون قضاء الآلهة من جهة المستقبل . » وكان يكوى بالنار ويستعبد من حقر كاهنة أو امرأة متزوجة .

ثم يتلو ذلك المحافظة على حقوق الملكية . فالأشخاص الذين ينهبون من بيت تأكله النيران يلقون في النار . والأشخاص الذين يبيعون الخمر منمشوشا يلقون في النهر . والموت جزاء السارق ومن يحوز المال المسروق . وكل من يقطع الطريق أو

يساعد العبد الآبق بعدم . وكل عبد يخون سيده تقطع أذنه . وكل مزارع يسرق من مال صاحب الأرض تقطع يده .

وقد فصلت الجرائم ضد الأشخاص وعينت عقوباتها حسب طبقة المندور : فكل من أحدث ضرراً بدنياً لأحد النبلاء فجزاؤه من جنس عمله ، أى إن مبدأ العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص ، يطبق على الفاعل . والعبد الذى يضرب حراً تقطع أذنه . أما الحر الذى يضرب نبيلًا أو كاهناً أو أحد موظفى الدولة فجزاؤه الجلد والتعزير . لكن الاعتداءات على النظراء والنبلاء التى لا تحدث ضرراً بدنياً ، والاعتداءات على الأرقاء ولو أحدثت ضرراً بدنياً ، فعقوبتها الجزاء النقدى . وقد كان الجزاء النقدى عقوبة للكثير من الجنح الأخرى ؛ كالاغتداء على الأراضى الزراعية وإهمال إصلاح قنى المياه واختلاس أموال الغير وما إلى ذلك . وكان القاضى المرتشى يفرم جزاء نقدياً كبيراً وتخفف درجته ويشهر به . وجزاء الشاهد الكاذب أن يحكم عليه بمثل عقوبة الفاعل الرئيسى .

« وقد حضت شرائع حمورابى هذه على وجوب إجراء العدالة للأرملة واليتيم والمسكين إلا أنها أبقت على كثير من الأفسكار والمبادئ القديمة المتعلقة بالعدالة . وقد كان الظلم والقسوة فى كثير من الأحيان عاقبة لها ، مثال ذلك لو سقط بيت وقتل بسقوطه ابن صاحبه وجب أن يقتل ابن بانيه أخذاً بالثأر . »

لقد ظلت شرائع حمورابى تطبق فى بابل خلال ألوف السنين التى انقضت بين وضعها وختام حياة العالم القديم ، ذلك لأن أساليب الحياة لم تتطور خلال تلك الأزمان بشكل يقتضى تعديل تلك الشرائع . فقد ظل السكان يعيشون عيشة الجماعات الزراعية وكانت أكتريه الناس تعتمد فى معيشتها على ما تنتجه لهم الأرض . لقد كانت فى بابل تجارة داخلية وخارجية ولكنها لم ترتق إلى الحد الذى يوجب تغييراً فى نظام

الحياة الاجتماعية . وكانت العناصر الاجتماعية بين السكان تتألف من الفلاح في مزارعه والصانع في معامله والكاهن في هياكله .

ويلاحظ الباحثون أن وظائف الكهان في بابل تشبه وظائفهم في مصر وهي القيام بالعبادات والصلوات التي تهدف في عرف جمهرة السكان إلى إدارة قوى الطبيعة بشكل يعود بالنفع والخير العميم على المجتمع . « وكانت الغاية الأولى والعظمى من الدين جر المنافع المادية من الآلهة والحيولة دون غضبها وسخطها . » وقد كان الملك في كل مدينة هو رأس الكهنة وكان يقوم بواجبات منصبه الديني كغيره من الكهان ؛ إلا أن قيامه بتلك الواجبات لم يكن لينقص شيئاً من اهتمامه بإدارة الأحكام في مملكته . وكان من واجبات الملك أن يذهب مرة في كل سنة إلى هيكل مردوخ إله البابليين السامى ، رمز الشمس ، المحي والمميت ، ويأخذ بيد تمثاله كي ماتحل قوة الإله فيه . وكان ملوك بابل كفراعنة مصر يُعتبرون بأنهم رمز الآلهة حال حياتهم وبعد مماتهم . على أن هذه البقايا من السحر القديم لم تسكن تمثل عقيدة الكهان . فقد كان هؤلاء يقومون بمراسيم العبادة المعتادة في الهياكل أمام أفراد الشعب . فيأتيهم الفلاح حاملاً تقدمته التي لم تسكن سوى رأس معزى وجرة ماء فيها بعض سعوف النخل الخضراء ، رمز حياة البلاد النباتية التي كان يحفظها الإله بفيضان النهر السنوى . وصارت هذه الجرة ، فيما بعد ، مع السعوف التي كانت توضع فيها « شجرة الحياة » ، وهي رمز كثيراً ما يشاهد منقوشاً على الآثار القديمة . « فكان العابد يضع هداياه أمام آلهة الأرض أو الهواء أو السماء أو البحر ، متوسلاً إليها - بحضور الكاهن - أن تهب له ماء غزيراً أو غلالاً وافرة بشرط أن لا يكون الماء طوفاناً يبيد الزرع والضرع كالطوفان الذي غمر مرة الأرض بمائه فهلك به كل ذى حياة . » لقد خلف كهنة بابل للمدنية تراثاً عظيماً بوضعهم مبادئ علم الهيئته . فقد رصدوا النجوم الثابتة والسيارة من هياكلهم ، ولكنهم خلطوا بين علم التنجيم وعلم الهيئته . وأنت ترى أنه كان هناك

تغاير واختلاف بين نظرة الطبقة المثقفة في مصر وبابل إلى الدين ، وبين نظرة الدهماء وعامة الشعب إليه .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى المدنية التي قامت في كريت بعد الأيام التي ازدهرت فيها مدنيات مصر وبابل مباشرة ، وانتشرت من هذه الجزيرة إلى مراكز أخرى في بحر إيجه وشرق البحر الأبيض المتوسط . إن وجود المدنية « المينوية » (نسبة إلى ملك كريت في خرافات الجزيرة الذي كان اسمه مينو) لم يعرف إلا في السنين الأخيرة نتيجة للاكتشافات الأثرية التي قام بها العالم الأثري الإنكليزي سير ارثر ايفانز . وقد أثبتت تلك الاكتشافات : أن المدنية المينوية كانت على اتصال دائم بمصر ، وأنها بلغت من الرقي شأواً جعلها في مستوى مدنيّتي مصر وبابل ؛ وأن نظام الحكم في البلاد كان أتوقراطياً ، وأنهم كانوا يؤمنون باللهة أنثى . ويستنتج من عبادتهم الإلهة أنهم كانوا يعتقدون بحقوق الأمومة من حيث الانتساب ومن حيث الميراث . غير أن رموز الخط المينوي لم تحل بعد حتى الآن ، ولذلك فإن كل ما يقال عن ذلك العهد هو نتيجة للحدس والتقدير والاستنتاج .

بدأت قبائل الرعاة التي تتكلم الآرية المقيمة في الصحارى الواقعة على الحدود بين آسيا وأوروبا تقوم بدور رئيسي في التاريخ منذ حوالي سنة ٢٠٠٠ ق م . فقد دفعت كثافة السكان والتغيرات الجوية هذه القبائل على مغادرة منازلها الأولى طلباً للرزق وانتجاعاً للكلأ . وكان لهذه القبائل ميزة على سكان البلاد التي هاجتها ، هي تدجينها للخيول واستعمالها للأسلحة الحديدية . وقد اتجهت بعض من تلك القبائل جنوباً نحو آسيا الغربية فاجتاحت امبراطورية بابل وامتد سلطانها إلى آسيا الصغرى والعراق وسوريا وفلسطين . وعرفت في التاريخ باسم الحيثيين وقد ورد ذكرهم في الكتابات المصرية والأشورية وفي أسفار العهد القديم . ويظن بعض العلماء أن الهكسوس أو ملوك الرعاة هم من هذه الأقوام ولكن هذا الظن لا تؤيده أية بينات تاريخية . واتجهت

قبائل أخرى آرية نحو أوروبا وحطت رحالها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث قوضت المدنية المينوية التي تعد ثلاثة المدينتين القديمتين ، مدينة مصر ، ومدينة ماين النهرين . « وكانت هذه المدنية الثالثة الصلة بين المدنية الشرقية ومدينة بلاد اليونان وغرب أوروبا فيما بعد . » وينسب إلى هذه القبائل الأيونيون والإيجيون والأبوليون وجميع القبائل الأخرى التي كونت فيما بعد الشعب الإغريق . وهاجرت مجموعة ثالثة من القبائل الآرية نحو الشرق فعبرت ممر خير واستقرت في حوض نهر السند حيث أزالوا عنه أو استبعدوا سكانه القدماء « ذوى البشرة السوداء » .

لقد كان هجوم القبائل المتأخرة اقتصاديا على الجماعات المتقدمة من أحداث العالم القديم المتكررة الوقوع ، وكان سبباً قويا في إثارة العوامل التي أدت إلى وضع حد له . ولم يكن ذلك الهجوم تنازعا على البقاء بالمعنى الوارد في علم الكائنات الحية وإنما كان تنافرا على طبيبات الحياة - من المؤن التي تزيد على الحاجيات اليومية التي ينتجها المجتمع المتمدن في كل مكان وزمان وتشبهها دائما القبائل البدوية . ولم تكن القاعدة أن يُفنى الغالب المغلوب في الحروب ، بل كان الغالب يؤلف من قومه طبقة أرستقراطية أول الأمر ، ثم تندمج بالمغلوبين بطريق الزواج وتصطبغ بصبغتهم وتصبح منهم . ولم تكن الأوامر التي يعلها الغالب على المغلوب عنصرية بل كانت اجتماعية . فقد كانت قبائل الرعاة التي تغلب على بلاد ما تجلب إليها معها عادات البوادي والقفار وعُرفها العام - حبُّ الذهب وروح الحرب وقليل من السحر والكهانة . وهذه الصفات هي على النقيض من صفات الفلاحين الذين كان الرعاة يفتشون بلادهم ، فقد كانوا دائما يكدحون في فلاحه الأرض ويمقتون الحرب ويؤمنون بالسحر والكهانة . وهذا يعني أن كلا من الطائفتين ينسب إلى فريق اجتماعي غير الفريق الذي ينتسب إليه الآخر وأن لكل منهما تقاليد وعادات خلقية خاصة .

كانت مصر أول دولة نهضت بين دول المدينيات القديمة التي اجتاحتها الرعاة . فقد

حدث في حوالى سنة ١٥٨٠ ق م أن طرد (أحموسى) ملك طيبة ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة الهكوس من بلاده وأبعدهم عنها إلى فلسطين وسوريا . وقد افتتح الملوك الذين جاءوا بعدهم بجيوشهم التى تدربت فى حرب الهكوس على القتال وشن الغارات - امبراطورية شاسعة الأطراف امتدت من الفرات فى آسيا إلى شلال النيل الرابع بأفريقيا . وصارت مصر تجبى الفنائم والجزية وتجلب إليها العبيد من جميع أنحاء مستعمراتها الجديدة . وقد مركز الفراعنة السلطة الداخلية فى أيديهم وأيدى موظفيهم وحدوا من شوكة النبلاء وعملوا على حماية الفلاحين من الظلم . إن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة كانوا فى الواقع أول من عملوا بالمبدأ المعروف اليوم وهو (حل المشاكل الاجتماعية عن طريق الفتح واستعمار البلاد الأجنبية) . إلا أن هذه الطريقة فى الحكم لم تؤد إلى نتيجة صالحة . فقد كلفت مصر امبراطوريتها الآسيوية حروباً كثيرة انتهت بتجزئتها على يد الحيثيين والجبيرى (وهم رعاة من الصحراء لعلمهم العبرانيون) .

لقد رأينا فى بحثنا السابق أن من مواطن الضعف فى المذنيات القديمة الفجوة الواسعة الواقعة بين رياء الطبقة الحاكمة أمام الشعب وعقيدتها الدينية الخاصة التى تحتفظ بها لأنفسها . وكانت عبادة الشمس ، من بين العبادات القديمة ، هى التى ظفرت بتأييد الطبقات الخاصة فضلاً عن العامة فى السر والعلانية .

كان للمصريين القدماء آلهة كثيرة مصطفاة من مملكتى الحيوان والنبات ، ومن قوى الطبيعة ، ولكن أجلاً كان اثنان : الشمس ، التى يتألق سنائها فى سماء مصر الصافية الأديم . « وكانت أعظم الآلهة عندهم » يؤمن بها الكهنة ، لأن مبادئ العلم التى وصلوا إليها آتت أوحى إليهم بقدرتها . وقد شادوا لعبادة الإله هياكل جميلة وجعلوا الهرم الكبير رمزاً مقدساً له . وله رمز آخر هو بازى طائر فى عرض السماء على شكل قرص الشمس ومن أسمائه (راع) . وكانت هليوبوليس المركز الرئيسى

لمبادته ، وكان له هياكل أخرى في جهات مختلفة من البلاد . والإله الثانى النيل الذى كانوا ينظرون إليه وإلى الأرض التى ينعمشها والحياة النباتية التى يبعثها فيها كشيء واحد ألوهه ودعوته (أوزيريس) حياة الأرض التى لا تنفى بل تزدوى ثم تتجدد كل سنة بحسب تعاقب الفصول عليها . وكان من بواغث السرور عند كل مصرى اعتقاده أن هذا الإله ، المانح الحياة وكل ما يحتاج إليه الإنسان فى هذا العالم ، هو الذى يعنى به فى العالم الثانى بعد أن يوارى جثمانه فى مدافن الجيزة . أما الآلهة الأخرى فكان يرمز إليها بصور حيوانات أو نباتات . وقد شجع الفراعنة توحيد الآلهة وعبادة الشمس لوحدها لأن توحيد الدين يساعدهم فى آله الحكم .

وقد آمن ملوك طيبة من الأسرة الثامنة عشرة بإله واحد هو الإله الشمس (آمون - رع) وبذلك أدخلوا فصلاً مهماً جديداً فى تاريخ مصر الدينى لأنهم حاولوا أن يثقفوا آلهة مصر القديمة ويكرهوا الناس على عبادة الإله الشمس وحده ، وأطلقوا عليه (ملك الآلهة) وأغدقوا الخيرات العميمة على كهنة طيبة .

ثم بلغ كهنة آمون ، فى طيبة من السطوة شأنًا خاف منه الملوك على سلطتهم فقام (أمنحوتب) والد (أخناتون) ونشر عبادة الشمس بين أعضاء الأسرة المالكة ، ونشر فى جميع أنحاء المملكة أنه لا يجوز تقديم عبادة ما إلا للشمس المؤلهة التى سماها (أتون) . ثم جاء بعده ابنه أخناتون (١٣٧٥ - ١٣٥٨ ق م) فأقفل الهياكل وطرد كهنتها وطمس فى كل مكان أسماء الآلهة ولا سيما التى على جدران الهياكل . ثم غادر أخناتون طيبة البهية لاحتوائها على كثير من هياكل الآلهة القديمة وبنى مدينة جديدة إلى الشمال منها بعيدة عنها سماها (أفق أتون) وتدعى الآن (المهارنة) وقد قصد أخناتون أن يجعل الكهنة يبشرون بين الناس عقيدتهم الحقيقية وهى الإيمان بإله واحد هو الشمس المؤلهة . ولا يزال الناس حتى اليوم يقرأون على جدران معابد

القبور، الأغاني التي نظمها أخناتون في مدح هذا الإله . « وهي تظهر لنا بساطة وجمال إيمان الملك الشاب بالإله الأحد . وكان أخناتون مريضاً بمرض بعض الأنبياء والعبريين وهو الصرع . فكانت تنتابه نوبات هذا المرض فيخيل إليه أنه يسمع أصواتاً ، وأن الآلهة تلتق في قلبه الوحي ، فإذا شفى صرح بما كان يشعر به . ومازال كذلك حتى اعتبر نفسه ، ونظر إليه من حوله من بطانته ، أنه نبي مرسل . » وكانت خلاصة رسالته « أن الأصنام كاذبة وأن هنالك إلهاً واحداً خلق جميع المخلوقات العاقلة وغير العاقلة ، خلق المصريين والأجانب ، ليس له ذات تحس أو تلمس لأنه كائن مجرد من الصفات الإنسانية يحب الناس ويفر للمسيئين . » وفوق ذلك كله فقد رأى أخناتون في إلهه أباً رحيماً يعم جميع مخلوقاته بجوده ، حتى الطيور كانت تشعر بذلك الجود وترفع أجنحتها التي بمثابة أيديها كأنها تسبحه بها . لقد تتبعنا تاريخ تقدم البشر مدة ألوف من السنين ولم نسمع أن أحداً منهم رأى في الله العظيم باري البرايا ما رآه هذا الشاب . واعتقاد كهذا هو التوحيد أي الإيمان بآله واحد . وقد حكم هذا الملك سبع عشرة سنة توفي في نهايتها في التاسعة والعشرين من عمره . وقد جاهد في تعميم عبادة (أتون) فلم يفلح لأن الوثنية كانت متأصلة في قلوب العامة الذين لم يكونوا كلهم في مستوى عقله ونظاره . هذا فضلاً عن قصر مدة حكمه وعدم تمكنه من التأثير في الجمهور لأن ذلك يحتاج إلى زمن طويل لم تتمعه الأقدار به . وبعد موت أخناتون بسنين قلائل هجرت مدينة (أفق أتون) وعاد المصريون إلى عبادة آلهتهم القديمة . وقد دعى أخناتون (أول فرد في التاريخ) وهو ولا شك أول فرد قاوم عبادة ما كان يعبده الناس من الآلهة الباطلة جرياً وراء آبائهم . وقد قضى أخناتون كلاً بلا عقب ففقد بيماته الأيمان بآله واحد الذي حاول نشره وتعزيره وخلفه توت عنخ آمون الشهير فأعاد عبادة الآلهة القديمة وباشر ترميم الهياكل المهمة .

وقامت من بعده الأسرة التاسعة عشرة وشرعت باسترجاع المملكة المفقودة في آسيا فاستولى سبتي الأول على فلسطين وجنوب سوريا وترك آثاراً في بيسان وتل قدس بالقرب من حمص . وسعى ابنه رعمسيس الثاني أن يطرد الحيثيين من سوريا فحبط مسعاه ودارت الدوائر عليه . ومنذ ذلك الحين أخذت إمرة مصر تنهار : فاكتمرت الكهنة الأموال الطائلة ، وتفشى الجور والظلم بين الحسكام ، وفرضت الضرائب الباهظة على البقر ، وقامت في البلاد فتن وثورات داخلية ، هاجمها الأعداء من الخارج ومنذ ذلك الحين أيضاً انتقل مشعل المدنية إلى أياد أخرى .

الفصل الخامس

فلسطين - الهند - الصين

لقد كانت القرون الواقعة بين سنة ١٢٠٠ و سنة ٩٠٠ ق م فترة في التاريخ القديم احتدم فيها القتال بين ملوك آشور في شمال العراق وبين الرعاة الفاتحين الذين جاءوا البلاد من آسيا الغربية، فنتج عن ذلك انتصار الآشوريين ووضعهم لأركان الإمبراطورية الآشورية . وقد وجد في الأراضي الحرام الواقعة بين مصر وبلاد آشور عدد من الممالك الصغيرة منها الفنيقيون والعبرانيون والفلسطينيون والآراميون . وكانت نار الحرب تستمر بين هذه الممالك لا تترع الأراضي ونهب الغنائم . وفي القرن التاسع ق م اتجه الآشوريون نحو الغرب وقضت جيوشهم على هذه الدويلات واحدة تلو الأخرى . وكانت جيوش آشور قوة لا تغلب بالنسبة لتلك الأزمان . فأوقعت القتل والنهب والسبي تدريجياً وكما توسعت في الفتوحات ازدادت الجزية الواردة إلى الإمبراطورية وأخيراً أصبح « الهلال الخصيب » من أقصاء إلى أقصاء سجنًا للأثم المحكومة وأصبح ملك آشور يقبض على يدى مردوخ البابلي بوصفه خليفة لسرجون وحمورابي .

إن أحداث هذه الحقبة من التاريخ مفصلة في العهد القديم بالرغم من أن تاريخه يرجع إلى زمن متأخر عنها . وإننا لنجد الدويلات الصغيرة في حالة حرب دائمة مع بعضها : تقتل فريقاً من أعدائها وتستعبد فريقاً آخر، وتنصب على الأرض جحياً لخصومها باسم آلهتها (يهوه ، شمش ، وداجون ، وريمون) . واستمر حالها على هذا المنوال إلى أن برز للوجود ملك آشور فجاس خلال ديارهم باسم إلهه (آشور)

واستولى على مدنها وجبى خيراتهم وسبى الشعب بكامله وأقام لهم جميعاً جحياً كبيراً .
لقد رأينا في بحثنا السابق كيف أن ظلم عهد الاهرامات أنتج ثورة اجتماعية وأبان الحاجة
إلى حاكم يملأ الأرض عدلاً ، والآن نرى أن الشقاء والبؤس الذى حاق بشعوب آسيا
الغربية عزم الثورات ونشر القلق والاضطراب بين الشعوب . إن قيام أنبياء العبرانيين
وتعاليمهم كانت ثورة على حكم آشور .

ولا نستطيع بمعرفتنا الحاضرة أن نقرر أن الأنبياء الذين من هذا القبيل حصر
وجودهم بفلسطين وحدها . إن كلمة أنبياء بالعبرية تعنى « المبشرين » وليس من اللازم
أن يتحدثوا عن الغيب . وقد وجد هذا الفريق من الناس فى الشرق منذ القديم وقد
تلمذوا على العرافين كما تلمذ عليهم الكهنة والملوك . بيد أن الكهنة والملوك كانوا
يؤلفون الطبقة الحاكمة فى المدينت القديمة بينما ظهر الأنبياء بين الناس كنفر من رجال
الذين لا ينتسبون إلى كهنة الدولة رافعين أصواتهم بالانتصار للمظلوم من الدولة الظالمة .
ومع أن هؤلاء الأنبياء لم تختص بهم فلسطين وحدها إلا أن حالتها الاجتماعية والسياسية
رحبت بهم فزادوا وترعرعوا فى أراضيها . فقد اجتاحت قبائل الرعاة هذه البلاد كما
اجتاحت البلاد الأخرى فى « الهلال الخصيب » وأقامت فيها ، وقد تزوج الرعاة
مع الفلاحين فى البلاد واقتبسوا عنهم تدريجياً أساليب معيشتهم وعبادة (البعل)
(و عشتاروت) وأخذوا عاداتهم الدينية الأخرى كالاحتفالات التى تقام لإيماء الزرع
وتقريب القربان وما إلى ذلك . ولم يكن (البعل) فى نظر الفلاح الفلسطينى أكثر
من إله آخر فى سلسلة آلهته . إن بعض قبائل الرعاة لم تستقر فى مكان ما من فلسطين
لأنهم وجدوا جميع الأراضي الخصبة قد استولى عليها الآخرون ولذلك فقد فضلوا
أن يعيشوا حياة القبائل الرحل وظلوا يتنقلون من مكان إلى مكان فى أطراف بلاد
المدينة يعيشون فى الأرض فساداً وينشرون بذور الثورة على الظلم والجور . ومن هذه

القبائل « القينيون » الذين تحدث عنهم « العهد القديم »^١.

وقد وجدت الدول الكبرى في ذلك العصر ، ومنها آشور ، أن من مصلحتها أن تحمى هذه العناصر من الوجود انقاء لشرها وخطرها . غير أن دولة فلسطين الصغيرة لم تكن قادرة على الوقوف في وجه هؤلاء المحاربين الأشداء الذين سلطهم الله عليهم وحلفائهم كما يظهر ذلك لنا جلياً من قصص « إيليا واليشع » (في الملوك الثاني من العهد القديم) . وقد أقام « أبناء الأنبياء » في فلسطين قوة حربية ونظاماً سياسياً وثقافياً قبل أن تستولى آشور على البلاد : واستمر هذا النظام قائماً في عهد الأمبراطورية الآشورية وخلفائها البابليين الذي أقاموا امبراطوريتهم بعد سنة ٦١٢ ق م ولكن التبشير به والعمل له كان مكتوما وثقافته كانت مهملة .

لقد ادعى كل الأنبياء أن الله يوحى إليهم بواسطة ملك كريم . إن ادعاءات الكهنة في الدولة في الأحوال التي كانت تسود الثقافة البشرية آنئذ لم يكن ليفلها إلا ادعاءات مماثلة . فعند ما كان أنبياء العبرانيين يتحدثون باسم يهوه إله إسرائيل كانوا يجعلون لحديثهم قوة تدعمه من جهة ، كما كانوا يمتكون لعادات حياة البداوة لتؤيد وجوب القيام بثورة اجتماعية ، تقضى على الملوك والكهنة الذين « باعوا البار » بالفضة والبائس لأجل نعيمين . المضطجعون على أسرة من العاج والتمددون على فرشهم والآكلون خرافاً من الغنم وعجولاً من وسط الصيرة ، الهاذرون مع صوت الزباب ، المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود ، الشاربون من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان ، الذين يهتممون تراب الأرض على رءوس المساكين ويصدون سبيل البائسين ويذهب رجل وأبوه إلى صبية واحد .^٢

وقد احتكم الأنبياء إلى عادة الصحراء وتقاليدها وتوجهوا بكليتهم إلى إله يعقت

١ صموئيل الأول ، الإصحاح الخامس عشر .

٢ عاموس الإصحاح الثاني .

القرايين الحيوانية والإنسانية على السواء وينفر من عبادة الهياكل وزخرف حياة المدنية ومفسداتها . إلا أنهم جعلوا من يهوه حليفاً للضعفاء والمظلومين فلم يعد إلهاً لبعض القبائل البدوية . وقد اعتبرت الجماعة الاجتماعية التي أخذ الأنبياء على أنفسهم إنذارها وكانت تسمى بادئ الأمر « إسرائيل » تنسح تدريجياً إلى أن شملت في النهاية كل من اعترف بيهوه إلهاً له وقبل مبادئ الحق والباطل على الوجه الذي عينوه لها وفقاً لشريعته . ولم يكن دين الأنبياء هو الذي طبع رسالتهم بطابعه وإنما كانت ضرورات العصر الاجتماعية هي التي أثرت في دينهم وطبعته بطابعها .

لقد حدث أن وقع في آسيا الغربية في عهد الأمبراطورية الآشورية « تغير في تقدير قيم الأوضاع » كما أوحى بها الديانة اليهودية . وفي جهة أخرى من آسيا وتحت ظروف أخرى وقع تقدير آخر لقيم الأوضاع . فإن غزاة الآريين قد توجهوا نحو الشرق من السند إلى حوض نهر الكنج حيث استقروا واتخذوا تلك الأراضي وطناً لهم وأصبحوا يمثلون أعيان البلاد وأرستقراطيتها .

وهنا نشأت لأول مرة في التاريخ المشكلة العويصة — مشكلة اللون — التي ما تزال قائمة في بعض أنحاء العالم حتى هذا اليوم ، وما تزال تعكس صفو الحياة الاجتماعية في تلك الأنحاء . لم يكن هنالك حاجز لوني بين الآريين و (الدرافيديين) سكان الهند القدماء . ودليلنا على ذلك أن أقدم المؤلفات السنسكريتية — المعروفة بأناشيد القيدا — (وهي ترجع في تاريخها إلى أيام الفتح الآري) لاتذكر شيئاً عن ذلك . وقد تزوج الجنسان الآري والدرافيدي واقتبس الفاتحون كثيراً من عادات سكان البلاد وتقاليدهم الدينية والاجتماعية . أن سلطة البراهميين مثلاً — وهي تفوق كل سلطة — منشؤها الحياة البدوية ولذلك فلا بد أن تكون قد اتسعت بعد أن استقروا في الحياة المدنية . على أن اختلاط الآريين بالدرافيديين أنتج استمرار بشررة أجسام الآريين الأمر الذي جعلهم يحسبون حساب

عواقبه ويتخوفون منها . ولذلك أوجد البراهمة - وهم الأشراف والعباد - نظام الطبقات وبنوه على أساس لون البشرة . وهؤلاء يقسمون إلى ثلاث طبقات : السودية وهم أصحاب الزراعة والتجارة وهم من الأحرار ولكن بشرة الكثيرين منهم ملونة ؛ والبيشية : وهم الصناع وبشرة أغليبتهم ليست ملونة ؛ والبراهمة وهم الأشراف والعباد وهم رأس المجتمع استناداً إلى نقاوة دمهم حقيقة أو حكماً . أما الطبقة الرابعة وهي السندالية^١ وهم أصحاب اللحون فحرم عليهم الاختلاط بالآريين ومحظور عليهم أن يقوموا بأى عمل سوى الأعمال اليدوية والأشغال الشاقة وليس لهم أن يعبدوا آلهة الآريين .

إن روايات المصادر الهندية في أصل الديانة البراهمية كلها خرافية . ولسنا نجد بين أيدينا مصادر تاريخية يصح الاستناد إليها تظهر فساد رواياتهم . وقد استمر تسطير تلك الأساطير قروناً عديدة . إن معرفتنا بالمجتمع الهندى القديم مستقاة من كتاب للشريعة صنفه البراهمة الهنود ونسبوه إلى الرجل الأول مانو ، ومع أن تاريخ تأليفه ما يزال موضوع جدل ، إلا أن علماء السنسكريتية يوقنون بأن هذا الكتاب يمثل حال المجتمع الهندى حوالى سنة ٦٠٠ ق م. ، ولكنهم يضيفون إلى ذلك أن لغته بشكلها الحاضر تعود إلى عدة قرون بعد ذلك التاريخ . والكتاب يصور مجتمعا زراعياً مؤلفاً من جماعات من العشائر والأمر التى تؤمن بنظام الأبوة يتعاطى أفرادها التجارة وإقراض الأموال بفوائد ؛ يحكمهم ويوزع العدل بينهم الملوك المحليون . وهذا المجتمع هو أشبه ما يكون بالمجتمع البابلى من حيث مناحى حياته وأسباب معيشتة ولا يختلف عنه فى شئ سوى التشدد فى تمييز طبقاته . فالبراهمى فى نظر الكتاب سيد العالم ؛ وله أن يتحكم بأموال السندالية ويقبضها إلا مقداراً يسيراً معيناً يبقية لهم . وهو منزله

١ . مفاتيح العلوم ، للخوارزمى ، ص ٧٤ .

عن العقوبات في نفسه وماله ومعنى من الضرائب أيًا كان نوعها . وإذا حقر البراهمي أحد أبناء الطبقات الدنيا يجازى بغرامة بسيطة ؛ أما إذا حقره أحد أبناء تلك الطبقات عوقب بغرامة باهظة . وإذا حقر سندالي براهميا فجزاؤه الجلد . ولم يكن الزواج بين الطبقات محظورا تماما . إلا أن زوجة الرجل الأولى يجب أن تكون من عين طبقته على أن يحق له الزوج من نساء أخريات من طبقة دون طبقته إذا كان بوسعه إعالتهم . وفي هذه الحال ينتسب الأولاد إلى طبقة الأم . على أنه محرم على النساء أن يتزوجن رجالا من طبقة دون طبقتهن . ومحظور على السنديالية تعلم « الفيدا » أو الكتب المقدسة . ولا يجوز لبراهمي تلاوة شيء من آيات الفيدا في مكان يسترق سندالي ما منه السمع .

وقد برر البراهمة هذا التحريم أمام العالم بادعاءات تستند إلى أساطير قديمة تثبت أنهم أنفسهم يؤمنون بصحتها . وهم يقولون بنظرية تعرف عندهم باسم (كارما) وهي في عرفهم تعنى أن حظ كل إنسان في الحياة الدنيا هو نتيجة لأعماله في تقمصه خلال حياة سابقة وهذا هو تعليلهم لتقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية . إن الضعف الذي لاحظناه في المذنيات المصرية والبابلية المؤلف من فقدان الروابط الاجتماعية العامة من أخلاقية وبدنية ، وانعدام وجود عقيدة دينية عامة يؤمن بها جميع السكان — قد وجد في المجتمع الهندي بشكل أوسع من ذلك ، لأن الهنود لم يحاولوا أن يدعوا أن هنالك لجنة قرابة ونسب بين الحاكم والمحكوم . ولسنا نجد أن البراهمة قد تقدموا في العلم والثقافة كما فعل عبّاد المصريين والبابليين .

لقد حمل إنكار الذات البراهمة على القيام بعبادات وصلوات لم يكونوا يؤمنون بها في قرارات نفوسهم . وكان فريق منهم يعتبر الحياة الدنيا خالية من كل خير ولذلك أقبلوا بكليتهم على البحث فيما وراءها . والواقع أن البحث فيما وراء هذه الحياة — الميتافيزيقا — هو تخلص من مجابهة مشاكل الدنيا . وإنك لتجد البحث في المادة

وعناصرها والجوهر الفرد وفي الفرضيات الوهمية أكثر ما يكون انتشاراً بين الناس الذين لم يلهمهم عنها كسب معيشتهم والإنفاق على عيالهم ، لأن ذلك قد آمن لهم من ثرواتهم الطائلة أو من موارد الرزق الأخرى المعينة لهم . إن الذين لم تقيض لهم السعادة في هذه الحياة هم أنفسهم الذين ينظرون إلى الحياة بمنظار الشقاء والتعاسة ويعتبرون قتل أنفسهم فضيلة والفناء خلاصاً وحسن جزاء .

قد تبدأ النظريات التي من هذا النوع بين العبّاد والكهنة ولكنها لن تنتهي على الغالب بينهم . فإذا أتاحت للعامة الفرصة تقدموا في هذه النظريات إلى حد أبعد من الحد الذي وقف عنده أولئك . وهذا ما وقع فعلاً في الهند . فقد كان - سيدها تاجوتاما - الذي أطلق عليه لقب بوذا أي « المثقف » - من طبقة البيشية الأشراف الذين ينتسبون إلى عشيرة كانت تقيم في حوض نهر الكنج خلال القرن السادس ق . م . لم يكن هذا المصلح من الثورويين ولم يحاول قلب نظام الطبقات البرهمي والاستعاضة عنه بنظام آخر . وكان يقول إن الحياة مصدر الشر ، ويؤمن بالتناسخ فيقول - كما يقول الهنود وغيرهم من الأمم القديمة - أن قوة ما تفارق الجسد عند الموت ولكنها تعود فتتقمص في أجسام أخرى حيوانية أو إنسانية . إلا أن (جوتاما) رفض أن يسمى هذه القوة روحاً ، وعلى ذلك فقد كان مادياً بقدر ما سمحت له إمكانيات زمانه . بشرّاً (جوتاما) بأخوة عامة نشر بينها آراءه في فلسفة التشاؤم التي طهرها من جميع القشور التي قنعتها بها أساطير البراهمة وعاداتهم . وقد كانت البوذية كما بشر بها جوتاما عقيدة للخاصة ، حتى أن الاسم الذي دعاها به وهو « الصراط الشريف » يدل على أنها ديانة أرستقراطية . إن الحياة الدنيا متاع للشر والغرور ؛ وإن الذين يدخلون في هذه الأخوة يمتنعون عن عمل كل ما يؤدي إلى تخليد الشر أو استفحاله . وعليهم أن يعملوا صالحاً وأن لا يقتلوا كائناً حياً وأن لا يتذوقوا ملذات الحياة وأن يهجرُوا النساء مدفوعين بشعورهم مع العالم الممذّب دون أن يستندوا في ذلك إلى عوامل

وهمية تهدف إلى تخليص نفوسهم . وقد شدد جوتاما في هذا الأمر . ليس ثمة روح تعمل لخلاصها . إن هنالك شهوة جامحة تحتاج إلى من يكبحها ويفنيها . وقد عبر عنها بحالة (نيرفانا) - الفناء - أو فناء الشهوة ويمكن التخلص من العذاب الذي يلازم وجودها منه باتباع « الصراط الشريف » الذي من سار عليه تخلص من شر الولادة والمات على السواء .

إن تعاليم « جوتاما » لم تدع مجالاً للكهنة والعبادات الرسمية أو التمييز الطبقي . إن جوتاما لم يحمل على هذه الأمور كما فعل أنبياء العبرانيين ولكنه انتقدها وفندها كما يفعل العلماء الارستقراطيون ، قال : « كما تفقد الأنهار الأربعة التي ترد إلى الكنج أسماءها عند ما تمتزج مياهها بمياه هذا النهر المقدس ، هكذا كل من يؤمن ببوذا لا يعود براهميا ، أو (كشتاريا) أو بيشيا أو سنداليا » . على أن الواقع هو أن البوذية لم تغير شيئا من الوضع . فقد بقيت البراهمية ديانة أغلبية السكان ، ولم تصبح البوذية ذاتها ديننا عالميا إلا بعد أن نبذت تعذيب النفس وعمرت هياكل وضعت فيها تماثيل وخصصت لها كهنة ونشرت فيها العبادة وأصول الدين وهذه الأمور انتقصتها البوذية في أول عهدها ونفرت منها .

أما مدنية الشرق الأقصى فقد نمت وترعرعت - على ما يبدو - مستقلة عن تأثير المدينيات الأخرى ، ذلك لأن تلك البلاد كانت إلى عهد قريب بمعزل عن بقية أنحاء العالم . وقد دلت الاكتشافات الأثرية أن شمال الصين كانت مأهولة منذ العصر الحجري بحفص من السكان لا يختلفون في شيء عن عنصر السكان الحاليين . إن سكان حوض نهر (هوانج هو) قد دجنوا الحيوانات ومارسوا الزراعة وبدأوا ينسجون الملابس ويصنعون الأواني من الخزف والفخار ويستخدمون النحاس لصنع الآلات والأدوات منذ سنة ١٧٠٠ ق م . ثم تلا ذلك العهد مباشرة عصر استعملوا فيه الحديد والتنك . أما الكتابة الصينية الأولى فيرجع عهد أقدم ما اكتشف منها إلى حوالي سنة ١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق م ، وهي تتألف من أسئلة وأجوبة فقهية حفرت على قطع من العظم

وعلى أصداف السلاحف . وقد تبينا منها أن سكان الصين في تلك الأيام زاولوا الصيد ومارسوا الزراعة ، وأنهم ربوا دودة القز ، وأنهم كانوا يؤمنون بأن أجدادهم القدماء تقمصوا في النباتات ، وأنهم إذا عبدوا على الوجه الصحيح فإن المواسم الزراعية تيجيء مخصصة . إن عبادة الأجداد في الصين تشبه عبادة أوزيريس في مصر . وقد كان الإمبراطور ملكاً من العباد كما كان الفراعنة المصريون . وكان يلقب بـ « ابن السماء » ومن واجباته أن يقرب القرابين ويؤدى الصلوات باسمه واسم الشعب عموماً وفقاً لأصول خاصة معينة . ويلوح لنا - مما اطلعنا عليه في المصادر المختلفة - أن المجتمع الصينى في هذا العهد كان يؤمن ببعض حقوق الأمومة . ولم تكن الخلافة على عرش الإمبراطورية منوطة بالأبناء وإنما كانت من حقوق الأخوة ما دام هنالك إخوة أبدأً ، وكانت تركة الميت تؤول إلى أخوته أيضاً . وكان بعض النساء بين الأجداد الذين عبدوا في البلاد وأشهرهم إلهة المطر « الجدّة يى » .

لقد اشتملت إمبراطورية الصين آنئذ على النصف الشمالى فقط من بلادها الحالية ، وقد فصلها عن أقرب المدن إلىها - وهى مدينة الهند - حوالى ألف ميل من البوادر ومن أعظم جبال العالم ارتفاعاً . وقد نتج عن ذلك أن الصينيين كانوا إلى القرن الثانى ق م ، يجهلون وجود مسكونة غير بلادهم . ولم يكونوا يعرفون إلا النزر اليسير عن جيرانهم من القبائل البدوية الضاريين أطناهم في حدود بلادهم الشمالية والغربية وقد ستمهم مؤرخو الصين القدماء باسم « هونيو » . ولم تكن تحجب هؤلاء « المردة الأجانب » عن الصين حدود طبيعية ولذلك فكثيراً ما كانوا منذ أيام ما قبل التاريخ يشنون غاراتهم على حوض نهر هوانج هو العظيم المكتظ بالسكان . ولكن الصين ابتلعت هؤلاء الغزاة ، لأنهم كانوا هم أيضاً سكان الصين من الجنس المنغولى ، ولأنهم لم تكن فيها طبقات .

وقد حدث في حوالى سنة ١١٢٢ ق م ، أن انتهز بعض الفاتحين القادمين من الغرب فرصة ضعف امبراطور ذلك العهد فاكسحوا الصين وأقاموا فى الحكم آل (شو) الذين امتد حكمهم للبلاد زهاء تسعمئة سنة . وقد أقطعت هذه الأسرة أتباعها مساحات شاسعة من الأراضى وجعلت منهم طبقة النبلاء الذين كان على الفلاحين أن يعملوا فى الأرض من أجلهم . وقد شهد هذا العهد أيضا انتصار حقوق الأبوة كاملة فى الصين . فقد وضع آل (شو) تشريعا نصوا فيه على أن تركة الميت ، ومن ضمنها الخلافة على العرش ، تؤول من الأب إلى الابن . ولعلمهم فى هذا التشريع قد دونوا العادات التى كانت شائعة فى البلاد وجعلوها مكتوبة . وما تزال الصين حتى هذا اليوم تسير فى نظام الإرث على أساس الأبوة .

وبعد هذا العهد نشاهد فى تاريخ الصين عصر الانحطاط . فقد أخذت الأمبراطورية الاقطاعية تتفرق إلى دويلات صغيرة منذ القرن السابع ق م . وأصبح « ابن السماء » لا يمارس من الحكم إلا السيادة الاسمية . وقد بدا لحكام الصين فى القرن السادس ق م . أن يقوموا بإعادة « تقدير قيم الأوضاع » وكان أول من قام بهذا العمل (لاءوتسو) وكان كُتُبياً فى دار الأمبراطور فأوجد الديانة (الطاوية) . إن تاريخ هذا المصلح محشو بالأساطير ؛ وإن العلماء يشكُّون اليوم فى صحة نسبة كتابه إليه ، ويشكون كذلك فى أن شخصا بهذا الاسم والوصف قد وجد على الأرض . إن لفظة (طاؤو) تعنى فى لغة الصين « الطريق » وفى الاصطلاح « الطريق الطبيعى للأشياء ، المغاير للطريق الاصطناعى والحكمى . » لقد اعتبر (لاءوتسو) أن المدنية هى أساس شقاء البشر وتعاستهم ولذلك فقد بشر بالعودة إلى حياة الطبيعة الفطرية . قال « إن حكومة يسيطر عليها الحكماء تظهر قلوب أبناء الشعب من الشهوات ، وتعلم بطونهم بالأغذية ، وتحد من مطامحهم ، وتقوى عظامهم . » وعلى المرء « أن يعظم الصغير كالعظيم ، ويقدر العظيم كالصغير وإن يدفع السيئة بالحسنى . » وفى رأيه أن المجتمع الفاضل هو مدينة

زراعية بسيطة تكفي حاصلاتها لإعالة أهلها ، لم تشوهها أنظمة الاقطاع أو تدخل الحكومة . وقال : « ومع أن الدويلات قد تجاور بعضها بعضا وقد تسمع في إحداها صياح الديكة ونباح الكلاب في الأخرى ، فيجب أن لا يلتقي سكان الدولتين المتجاورتين أبداً مدى حياتهم » . ويكاد (لاءوتسو) يشبه أنبياء العبرانيين ومعاصره (جوتاما) في تنفيره من المدنية وشرورها . وهو يختلف عنهم بأنه لم يكن سياسياً فعالاً كالأنبياء ولا مفكراً محترفاً مثل (جوتاما) كما انه لم يحمل علناً وصراحة على الأوهام والخرافات الدينية كما فعل أولئك . ويقال إنه في آخر أيامه اعتزل عمله وهجر موطنه متجهاً نحو الغرب ولعله كان محبوب البلاد ليقضى بقية أيامه عند أحد قبائل الرعاة ويتمتع ببساطة الحياة الفطرية التي كان يبشر بها .

أما الحكيم الثاني فكان (كونفوتزو) أي (كون - المعلم) الذي عرف عند مؤرخي العالم باسم (كونفوشيوس) . لقد تلاعبت الأساطير بهذا الاسم كثيراً كما تلاعبت من قبل باسم (لاءوتسو) غير أنني لم أعثر على رواية تنفي وجود (كونفوشيوس) على الأرض كما نفى جمهرة العلماء مجيء (لاءوتسو) إلى هذا العالم . ولد كونفوشيوس في سنة ٥٥١ ق م . من أسرة شريفة قعد بها الدهر وأفقرها . ولما بلغ أشده التحق بخدمة أحد النبلاء الاقطاعيين ثم اعتزلها ليصبح معلماً . وقد كانت نظريته إلى الحياة على النقيض من نظرة لاءوتسو إليها . فبينما نرى أن (لاءوتسو) قد نفر من المدنية وعظم محاسن الحياة الفطرية وبساطتها ، نجد أن (كون) قد اقتبس المثل العليا لتعاليمه من حياة المجتمع الاقطاعي الذي عاش في ظلاله زمناً ما وحاول أن يرجع إليه الفضائل التي كانت سائدة فيه ثم فقدتها . وقد وضع كونفوشيوس القاعدة الذهبية الشهيرة : « لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به . » ولكنه انتقد نظرية (لاءوتسو) « إن جزاء السيئة هو الحسن . » ولم يكن من الذين يؤمنون بالأساطير والخرافات الدينية . وإن تعليقه على عبادة الأجداد لأشهر من أن يبحث فيه . قال : « مادمت

عاجزاً عن خدمة بني الإنسان ، فكيف بك إذا تحتم عليك خدمة أرواحهم ؟ وإذا كنت ما تزال تجهل كنه الحياة ، فكيف تستطيع أن تعرف شيئاً عن الموت ؟ » إلا أنه بالرغم من كل هذه الأقوال مارس عبادة الأجداد . لقد كان هذا المصلح ارسقراطيا ، محافظاً على العادات والتقاليد ، محباً للقديم لمحض أنه قديم . وكان يقول إنه « مبلّغ » وليس « مشرّع » وإنه يعتقد بالقديم ويحبه . وكان يحترم الأشراف وبمظهم ويحتقر صغار الناس ويحبهم فيقول « إن فكر النبيل يشغل دوماً بفضائل الأمور بينما يشغل فكر الدماء بزيادة الربح . »

على أن المؤسف في الأمر أن النبلاء لم يكونوا يشغلون أنفسهم بفضائل الأمور كما زعم . ولما بلغ كونفوشيوس الحادية والخمسين من عمره عين وزيراً لأمر بلده . واعتزل العمل بعد أربع سنوات لشعوره بأن سيده يفضل زينة الحياة ونساءها على القيام بواجبه نحو أمته وشعبه . ثم بدا له أن يبحث عن حاكم يتخذه وزيراً له فتجول في البلاد عاملاً وراء هذه الغاية قرابة أربع عشرة سنة انتهت بموته مهيبض الجناح منكسر القلب في سن الثالثة والسبعين .

وقد امتد عصر « الدويلات المتحاربة » إلى سنة ٢٢١ ق م . عند ما نصب (شيه هوانج تي) حاكم مقاطعة الصين نفسه حاكماً عاماً للبلاد . وقد عمد هذا الامبراطور إلى تركيز جميع السلطات في يديه وأبدى موظفيه (كما حدث في مصر أيام حكم الأسرة الثامنة عشرة) فخل الاقطاعات وحد من شوكة النبلاء وسلطانهم . وقد حرم العمل بتعليمات كونفوشيوس ، حكيم طبقة النبلاء الاقطاعيين ، فأمر بجمع كتبه وإتلافها ، كما أمر بإتلاف جميع المؤلفات الصينية التي لا تبحث في الطب واللاهوت والزراعة . وكان الامبراطور ذا كفاءة ممتازة . وقد امتد سلطان حكمه فشمّل حدود الصين الحالية جميعها وعبد الطرق ومد الترع وبني سور الصين العظيم ليحول دون هجوم

قبائل الرعاة لبلاده . وقد خلدت أعمال هذا الرجل العظيم حتى ان اسم المقاطعة التي جاء منها - الصين - أصبح الآن يطلق على البلاد بكاملها . ولكنه أسرع وأغرب في حياته . ثم قضت الحروب الأهلية على خلفائه في زمن قصير . وحكم الصين من بعده في سنة ٢٠٦ ق م ، آل (هان) فخلدوا أعماله ولكنهم رفعوا الحظر عن المؤلفات الصينية وقراءتها . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الكونفشيوسية دين النبلاء الرسمي ، وأصبحت الطائفة دين الدهماء ، وأخذت الصين توسع حدودها بالغلبة والاستيلاء على أراضي جاراتها ، ففتحت أمامها سبل التجارة واتصلت بمدنيات العالم التي لم تكن تسمع بوجودها فأثر كل ذلك في حياتها وسُطر في تاريخها فصل جديد .

الفصل السادس

اليونان

ولنعد الآن إلى المجموعة الغربية من القبائل التي تتكلم الآرية التي اندفعت خلال الألف سنة الثانية ق م . نحو البحر الأبيض المتوسط فزقت المدنية المينوية في كريت وشواطئ بحر إيجه . لقد جلبت هذه القبائل معها أركان حياة البداوة : من أساليب النهب ، وشطف العيش ، ونظام الأبوة ، وإلهمهم زفس - مجمع الغيوم ، والتحرر من ربقة الكهنة ، إلى قليل من المعرفة بشؤون الزراعة وممارستها . وقد وجد هؤلاء الأقوام في الإيجيين شعباً زراعياً أكثر منهم تقدماً في مضمار المدنية يؤمنون اجتماعياً بحقوق الأمومة لهم دين أبرز صفاته الانصباع للسحر واحترام آلهتهم من الإناث . فنهب هؤلاء الغزاة المدن وتوزعوا الأراضي فيها ، واستقروا عليها ، وأصبحوا سادة المنطقة الجنوبية - ذات الشمس الساطعة . ولم يزعج هؤلاء الناس أنفسهم بتعلم الخط المينوى كما أنهم لم يتعلموا كتابة أخرى إلى أن جاب الفينيقيون فيما بعد شواطئهم فوضعوا الحروف اليونانية .

إننا نجد صورة لهذا العصر القديم واضحة في أشعار هوميروس . إن الألياذة والأوديسية بشكلها الحاضر ترجعان إلى حوالى سنة ٨٠٠ ق م . ولكنهما تشتملان على مواد ترجع إلى زمن أقدم من هذا العهد . إن قصة أوديسيوس وسيكلوب مثلاً قد وجدت منقوشة بالحجارة الكريمة على لوح حجرى يرجع عهده إلى القرن السادس عشر ق م . ولم يكن الأغريق في ذلك الزمن يعتبرون أنفسهم أمة موحدة .

إن لفظة «هيلانيين» التي سموا أنفسهم بها في عهد بعد هذا الزمن والتي ترجمها اليوم بـ «الاغريق» قد استعملت مرة واحدة في الألياذة وكانت تشير إلى سكان مقاطعة صغيرة في شمال اليونان هي أفثيا وذلك «نسبة إلى هيلانة ابنة دؤقليون» (الياذة هوميروس - لسليمان البستاني صفحة ٢٩٩) وقد دعى الأقوام الذين هاجموا طروادة «اخائيين»^١ أو «دانويين»^٢ ووجدت هذه الأسماء منقوشة على الألواح المصرية عند ذكر الشعوب التي غزت مصر سنة ١٢٠٠ ق م، في زمن قريب من عصر حرب طروادة. ولم يكن الإغريق قد اتحدوا حتى ذلك التاريخ ليقفوا في وجه «برابرة» الغزاة. ولم يكن الطرواديون في نظر أعدائهم الإغريق «برابرة» بل كانوا شعباً له لغة وثقافة خاصة به. لقد كان الاخائيون والطرواد في الحقيقة فرعين لأرومة آرية واحدة انقض أبناؤها من الشمال على معاقل المدنية «المنيوية» في الشواطئ الإييجية قبل قرن أو قرنين من هذا التاريخ.

إن وصف المجتمع الهوميروى ينطبق على جماعة متغلبة من الغزاة تحولوا من رعاة إلى قراصنة. وتظهر في رؤساء «الاخائيين» صفات الشجاعة والخشونة والروح الحيوانية وكرم الضيافة وروح التعاون في الأيام العصيبة؛ ولكننا نجد قساسة خائنين ينقضون عهودهم إذا اقتضت مصلحتهم ذلك. وكانت الحرب تجارهم، فيتجولون من مكان إلى آخر يحاصرون المدينة تلو الأخرى فيفتحنها ويسلبون خيراتها ثم يتحولون عنها بالسبايا والأسلاب ويقتتلون في النهاية على توزيعها فيما بينهم. وقد دارت ملاحم الألياذة حول وصف التطاحن والصراع الذي من هذا القبيل. ولم يكن مركز المرأة قد وصل بعد إلى مستوى عال كما كانت الحال عند الإغريق في العصور التي تلت ذلك العهد. وكانت المرأة خاضعة لسلطان الرجل. ومع ذلك فإنك ترى من شعر

١. الاخائيون هم طائفة يطلق اسمها توسعا على كل طوائف الاغريق (الياذة، ص ١٢٠٣)

٢. الدانويون: سكان أرغوس مملكة أغاممنون وقد يراد بهم جميع الاغريق (ص ١٢٢٦)

هوميروس « إن غادة حسناء كانت العلة في تلاحم أمتين عظيمتين وهى هيلانه زوج منيلا ، وإن شئت فقل زوج فريس ، وإن عذراء أخرى كانت السبب في انهيار غضب الآلهة على اليونان فكادوا يبادون في الوباء - وهى خريسا . ثم مالبثوا أن تقام الخطب عليهم بسبب فتاة ثالثة هى سيبية أخيل . » وإن معظم الفن التى ثارت بين الأرباب نشأت عن مكامن صدر الأنثى حتى فى السماء - نرى هذا فى شعر هوميروس « مع أنه لم يعرف شاعر ما غيره وفى من حق بنات الجنس الجليل بكل أحوالهن ومدح أخلاقهن وأثبت فضائلهن ، وهن بنات وأخوات وأزواج وأمهات أحراراً ورققات . » (الباذة هوميروس - سليمان البستاني ، ص ٢٢٠) إن آلهة هوميروس تبين أساليب حياة رجاله . فتجد زفس كبير الآلهة يعقد مجلساً فى الأولبس - جبل الآلهة - كما يعقد أحد زعماء الأخائيين مجلساً فى قصره « وقد كان اليونان يمثلون آلهتهم تمثيلاً محسوساً (على نحو من اعتقاد المشبهة من فرق الإسلام التى كانت تشبه الخالق بالخلق وتمثله بالحدث) وينسبون إليهم جميع ما يروى عن البشر من العواطف وحاسات اللين والغضب والحلم والظلم والحب والبغض والغيرة والاستكانة . فإذا وصف هوميروس مثلاً حديثاً أو واقعة بين الأرباب علمنا منها وصفاً دقيقاً للقطرة البشرية فى بعض شؤونها . » (الباذة ص ٢٤٠) ويلاحظ الباحث أن إلهين عظيمين لم يكونا من جملة الآلهة التى كانت تجتمع فى الأولبس فى مجلس زفس وهما ديميتر ، إلهة الزراعة ، وذيونيس ، إله الكرم والخمرة ورب اللهب والطرب ، وهذان الإلهان هما أيسيس وأوزيريس اللذان كان يعبدنهم فلاحو الإيجيين المغلوبين ويقدمون لهما القرابين .

وفى حوالى سنة ١١٠٠ إلى سنة ١٠٠٠ ق.م. ، تغلبت على الاخائيين الفاتحين مجموعة أخرى من القبائل الآرية هم (الدوريون) . ويبدو أن هؤلاء الغزاة كانوا متوحشين وفتاكين أكثر من كل الذين سبقوهم . وآية ذلك أن الاكتشافات الأثرية دلت على

أن هؤلاء الأقوام قد قضوا على البقية الباقية إلى عهدهم من المدينة المائوية .
وإننا لنجد في سنة ٧٠٠ ق م . وهي سنة فجر التاريخ اليوناني . إن
أرستقراطي الدوريين قد استقروا في سبارطة وكرت واستعبدوا جميع سكان
البلاد القدماء . أما في الجهات الأخرى من اليونان فنجد أن الدويلات الصغيرة مثل
(كورنت) و (سيكون) و (إيجينا) نصفها فقط خاضع لحكم الدوريين ، أما
(أثينا) و (ميليتوس) و (ميتلين) فلم يتطرق إليها العنصر الدوري . وكانت
الأرستقراطية تحكم هذه الدويلات وكان السكان يعملون في القرصنة تارة وفي التجارة
المشروعة تارة أخرى ؛ وقد طردوا الفينقيين من تجارة البحر الأبيض المتوسط وأنشأوا
على شواطئه مستعمرات يونانية تمتد من صقلية إلى البحر الأسود . وتكلم هؤلاء
الأقوام جميعاً لهجات يونانية ودعوا أنفسهم « هيلانيين » .

وكانوا يؤمنون بدين واحد يتمركز في دلفي ويعبدون الإله أفلون ، ولعل هذا
الدين قد جلبه الدوريون معهم . وذلك لأن أفلون كان من الآلهة التي جرى بها إلى
دلفي في زمن متأخر . ولم يكن لكهنة دلفي بين اليونانيين مركز محترم يضاهي مركز
الكهنة المصريين والبابليين وهذا راجع إلى أسباب اجتماعية وجغرافية . فلم يكن
اليونانيون يعيشون في أحواض أنهار خصيبة وإنما كانت إقامتهم إما في شبه جزيرتهم
التي يتخللها سلاسل جبلية مرتفعة ، وإما في جزائر قريبة من شواطئهم لا تساعد على
الاتحاد الديني والسياسي . وكانت الطبقة الحاكمة في البلاد تتألف من سكان الشمال
الذين كانوا يفخرون بتسلسلهم من الآلهة غير أنهم مع ذلك لم ينظروا أبداً إلى وظيفة
الكهنوت نظرة جدية .

ويكاد يسيطر على تاريخ اليونان القديم تفصيلات النزاع بين حكم الاقطاع الذي
كان سائداً في ثيساليا وكرت وسبارطة ، وبين المجتمعات التجارية الممثلة في أثينا

والمدن الإغريقية الواقعة في آسيا الصغرى . وكان النزاع بين سبارطة وأثينا اختلافاً في مستوى المدنيات بينهما أكثر منه نزاعاً بين دويلات إقطاعية . ولكي يتسنى لنا فهم سبارطة علينا أن نتصور آلافاً عديدة من قبائل الهنود الحمر ينقضون على بعض المجتمعات الزراعية وقد تساحوا بأحدث الأسلحة فيفتكون بالسكان وينزلونهم على أحكامهم . لقد اتصف الأسبارطيون بأخلاق المتوحشين من بني الإنسان فلم يقيموا في مدن مسورة وإنما كانت منازلهم مؤلفة من مجموعة قرى مكشوفة، وكان كل اسبارطي حرمقاتلاً من الدرجة الأولى . وكانت طباع الرجولة تلقن إلى أبناء الاسبارطيين بأقصى الأساليب وأخشنها ؛ وعلى الجملة لقد عاش الاسبارطيون في حالة حرب دأمة وكان محظوراً عليهم أن ينغمسوا في التجارة أو الصناعة بل كانوا يعتمدون في معيشتهم على الصيد وعلى المخصصات التي يتناولونها من عبيدهم أو « أجرائهم » . وهكذا احتفظت سبارطة بمهارتها الحربية وبسطة سيادتها على لاكونيا وبيلوبونيس . من أجل ذلك نرى في التاريخ أن العالم الإغريقي ، ولا سيما أمراء الإقطاع فيه ، كانوا دائماً يتقون شر سبارطة ويعظمونها . أما في ميدان المدنية اليونانية - المؤلفة من الفن الإغريقي والأدب الإغريقي والفكر الإغريقي - فلم تشترك سبارطة في شيء منه .

لقد نشأ المدن اليوناني في المدن التجارية اليونانية الواقعة على الشواطئ الأسيوية وفي الجزر المجاورة لها . أوجد الأيونيون^١ والأيليون الذين طردهم الدوريون من أوروبا اليونانية ، تلك المدن قبل فجر التاريخ اليوناني . وأقامت هذه الأقوام في أطراف آسيا عند مفترق طرق التجارة بين بابل وبلاد الإيجيين فأهلهم موطنهم لأن يكونوا وسطاء للتجارة بين بلاد المدينة القديمة وبين الغرب البربري . إن تداول العملة المسكوكة في اليونان ، التي اخترعها لأول مرة (جيجس) الليدي يشهد على نمو التجارة الإيجية في القرن السابع قبل الميلاد . وقد أدت ضرورات التجارة بدورها إلى التنقيب عن معدني الذهب والفضة في إيجيا ولاسيا في ثريسيا وأتيكا . وقد

روج هذه التجارة أمر آخر : ذلك أن بسامتيك المصرى قد فتح حوالى سنة ٦٦٠ ق م بلاده لتجارة الإغريق جزاء لما قامت به البعثات العسكرية الأيولية فى المساعدة على إنقاذ مصر من الحكم الآشورى . ومن هنا نشأت لأول مرة فى التاريخ طبقة من التجار محرة من سيطرة الكهنة تسافر من قطر إلى قطر من أجل التجارة والربح وتحرر السفائح وتعامل بالسلع .

وكانت أولى نتائج التجارة اجتماعية وسياسية . إن الأقوام الذين ذاقوا لذة الربح والثراء لم يخضعوا لحكم أمراء الاقطاع الاستقراطيين ، بل ترأسوا صفار العمال وجعلوا من أنفسهم طبقة صمدوا فى وجه أولئك الأمراء ، فقتلهم وشتمهم ووزعوا أراضيهم بين صفار الفلاحين ثم نظروا فى مصالح السكان فعبّدوا الطرق ونظموا حياة المجتمع على أحدث أساليب التمدن التى عرفت فى أيامهم .

وكانت النتيجة الثانية دينية ؛ لقد أبطل الأخائيون والدوريون المتغلبون عبادة ذيتمر - الالهة الزراعة - وذيونيس - إله الكرم والخمر واللهو والطرب - ، ولم يكن لهما شأن يذكر فى أشعار هوميروس . فلما تمت التجارة والصناعة اتجهت عبادة الفلاحين نحو أهداف أخرى . فقد جمعت ضرورات النقل والتعدين بين أقوام من طبقات مختلفة ، منهم الرقيق والأحرار ، وكونت منهم طبقة واحدة جديدة لا تتصل بالفلاحة فى شيء .

إن الأخويات الأورفية^١ التى نشأت فى ثراقة^٢ قد انتشرت خلال القرن السادس ق م . فى جميع بلاد اليونان الواقعة على طرق التجارة وقد احتضنت أسطورة ذيونيس وبشرت بأن كل من يعبد إله الكرم والخمر واللهو والطرب من

١ . نسبة إلى أورفيوس وهو شاعر وهى عند قدماء اليونان مشهور بسحر موسيقاه فيسحر الحيوانات ويحرك الصخور والأشجار .

٢ . وهى بلاد التراقيين حلفاء الطرواد

السكان التمساء سوف تنفصل روحه عن جسده عند الوفاة وتتصل بذلك الإله. وأوجه الشبه بين الأورفية في اليونان وتعاليم جوتاما المعاصرة لها في الهند واضحة جلية . على أن الأورفية تنقصها براعة بحث البوذية في شؤون ما وراء الطبيعة . لقد نمت هذه العبادات في اليونان خلال حكم الطغاة . فقد حتم براندر السكورني وكليستيفس السيكوني ويزستراتوس الأثيني عبادة ذيونيس إله عامة الشعب ، وجعلوا ذلك من برامج ثوراتهم . وقد نشأ عن احتفالات موت ديونيس وبعشه التراجيدي والكوميديا في التاريخ . ويظهر أن يزاstrانوس أيضاً قد عمم عبادة ذيتمير بين أفراد الشعب جميعاً من أحرار ورقيق .

وقد كانت النتيجة الثالثة لانتشار التجارة ثقافية . فإن التجار امثال تيلس . وميليتوس قد وقفوا ، خلال أوائل القرن السادس ، من المصريين على اكتشافاتهم في الهندسة والفلك وأدخلوها إلى العالم الإغريقي . ولم ير علماء الإغريق إخضاع العلم إلى أساطير الكهنة كما فعل عبّاد المصريين والبابليين والآشوريين ولا سيما لأن أساطير العبّاد كانت متناقضة ، متضاربة . ولذلك فقد نبذوا تلك الأساطير وعللوا الظواهر الطبيعية لا بالرجوع إلى الآلهة الذين لم يكونوا يعرفون عنهم شيئاً ، وإنما بالنسبة إلى الجواهر المادية التي شاهدها الناس جميعاً ؛ وقد كان هؤلاء أول علماء للمادية في العالم كما كانوا إلى جانب ذلك ، رجالاً عمليين في شؤون الحياة . وقد حاول ثيلز أن يجعل من الدويلات الأيونية دولة اتحادية ولكنه أخفق في مسعاه . وقد رسم اناكسيمندر أول خارطة للعالم . أما فيثاغورس فقد كان فيلسوفاً آخر أيونياً . وكان أبوه حفاراً للألواح . لقد زار هذا العالم مصر وتخصص في الرياضيات والفلك . وكانت نظرياته في هذين العلمين مبتكرة . وأهم نظرية له هي دوران الأرض في الفضاء . وهذه النظرية تقول إن الأرض تدور حول مركز متأرجح بالنيران ، ولم يقل أنها تدور حول الشمس وقد ابتكر نظرية الموسيقى وكانت له جولات في العلوم الطبية . ولكنه على النقيض

من ثيلس وانا كسياندر لم يكن ماديا . وتجمعت في فيثاغوروس علوم
الفلاسفة وتصور الأقدمين فزجهما في مبتكراته . فقد تلقن منذ طفولته (ولعل
ذلك كان أيام ترده على مصنع والده) عقائد الأورفية الخاصة بالتمص والبعث
وكانت هذه العقائد سائدة بين طبقات الإغريق الدنيا فحاول أن يمزجها
بالعلوم المتمدنة في أيامه . والظاهر أنه وقع بين نارين . وفي حوالى سنة ٥٣٠ ق م .
هاجر من ساقوس إلى مستعمرة كروتون الإيجية في جنوب إيطاليا وشكل من
أتباعه جماعة دينية كانت في عين الوقت حزبا سياسيا . وقد نجح الفيثاغوريون في تسلم
زمام الحكم في هذه المستعمرة وفي مدن إغريقية أخرى . غير أن حكمهم الاستبدادى
ألب عليهم النبلاء والشعب على السواء ؛ فثاروا عليهم وأقصوهم عن الحكم في القرن
الخامس ق م .

وقد انتهى عصر اليونان الذهبى عند ما انقض الفرس في النصف الثانى من القرن
السادس ق م . من أعالى بلاد إيران على آسيا الغربية ومصر وأصبحوا سادة فيها . لقد
كان هؤلاء الغزاة الآريين عند انقضاضهم على تلك البلاد ما يزالون في حالة بربرية
ولذلك لم ينظروا إلى التجار الإغريق نظرة عطف وإحسان . ويسجل هيرودتس في
تاريخه احتقار الملك كسرى للأقوام الذين يجتمعون في ساحة السوق « ويعملون
على غش بعضهم بعضا معتمدين على أيمانهم الكاذبة . » ولما تمت الغلبة للفرس على
أيونيا انتقلت القيادة الاقتصادية والسياسية والثقافية في بلاد اليونان إلى الدويلات
الأوروية ولا سيما إلى أثينا التى سبق لها أن تألق نجمها وأصبحت دولة تجارية إبّان
حكم بيزستراتوس وولده هيبياس . وقد حدث في سنة ٥١٠ ق م . أن خلع النبلاء
الاقطاعيون تساعدهم سبارطة ، هيبياس . ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على المصالح
التجارية التى خلّفها عهده . وفي سنة ٥٠٨ ق م . ظهر في ميدان الحكم كليستينيز ، أحد

النبلاء ، وطلب مساعدة السكان له ، فخرر الكثيرين من العبيد والأجانب ووضع دستوراً جديداً للدولة بناء على دعامتين : أن جميع الأحرار متساوون أمام القانون ، وأن جميع وظائف الدولة توزع بين الطالبين لها بطريق القرعة ما عدا أعلى الوظائف فيعين موظفوها تعييناً . غير أن هذه الديمقراطية الجديدة لم تكتب لها الحياة أكثر من جيل واحد : ذلك لأن غارات الفرس على أوروبا الإغريقية قد هزتها وأقلقتها إلى حد بعيد . على أن انتصار الأثينيين في معركة ماراثون سنة ٤٩٠ ق.م . ، وانتصارهم في سلاميس سنة ٤٨٠ ق.م . ثبت مركز هذا الحكم في أثينا وجعل ذلك العهد أزهى عصورها وأزهى عصور الإغريق أيضاً .

وقد كانت ديموقراطية أثينا بدعة جديدة في تاريخ الدويلات اليونانية . وقبل هذا التاريخ لم تكن المدينة سوى مجموعة من القبائل وحدتها مصلحتها في الدفاع المشترك عن كيائها وفي شؤونها التجارية . وقد كان أعضاء تلك القبائل فقط هم الذين يعتبرون مواطنين . ولم يكن الأجانب الذين يقيمون في المدن للتجارة يعتبرون من المواطنين أيضاً . وكذلك كان حال الرقيق فلم يعتبرهم القانون من رعايا الدولة . وفي عهد كليستينيز أدخل مئات الأجانب والعبيد في رعية الدولة وعفت آثار الوشائج القبلية القديمة . وقد تجاهل السكان أصل قبائل اتيك الأربعة وأنشأوا بدلاً من ذلك تقسيمات إدارية في البلاد . ومنذ ذلك العصر لم تعد حقوق الشخص وواجباته تتوقف على انتسابه لقبيلة ما ، وإنما أصبح مركز كل فرد في المجتمع يتوقف على أنه مواطن أثيني حر .

إن اتساع التجارة ، وانتصار الديمقراطية ، والتغلب على الفرس في المعارك الحربية الفاصلة ، أنتج نهضة فكرية عظيمة في أثينا وفي الأصقاع الإغريقية الأخرى التي تربطها بأثينا صلة ما . أخذ اليونانيون يشعرون أنهم يختلفون عن البرابرة الذين يحيطون بهم ويقدرهم لأنفسهم منزلة أرفع من مستواهم . إننا نرى تفاخر اليونان

هذا ونلمسه في الروايات المحزنة التي ألفها أخيل ، ذلك النبيل الأثيني الذي حارب في معركة ماركتي مارثون وسلاميس . وقد نسب إلى هذا الرجل أنه كان فيثاغورياً وإن آراءه لتدل على أنه كان في الواقع من أتباع فيثاغورس فقد مزج باعتقاده الديني بمبادئ العلوم التي سادت في زمانه . ففي -فارسياته- التي حررها في سنة ٤٧٢ ق.م. أشاد بذكر انتصار أثينا على حكم الشرق المطلق . وفي الرواية الأورستية المثلثة (أغاممنون والساقيات والإلهات) التي ألفها في سنة ٤٥٨ ق.م. نراه قد ذهب إلى أبعد من هذا الحد واحتفل بانتصار أثينا على العالم القديم المبني على العادات القديمة - الخاصة بالانتقام وأخذ الثأر - التي نشأت منها المدنية الإغريقية . لأن أخيل لم يكن مواطناً خصب ، وإنما كان فوق ذلك من العاملين في التطور والارتقاء - فكان أول مؤلف يشرح فكرة التطور عن طريق العمل من الأدنى إلى الأعلى في الحياة الاجتماعية . وإنما نرى في الرواية البروميشية المثلثة أن الآلهة أيضاً ينشأون ويتطورون . وفي أول الرواية يبدو زفس كأنه عدو للجنس البشري ويعدم برومثيوس لأنه يساعد بني الإنسان . غير أن تيتار المصلوب يزدري زفس ؛ ثم نرى في ذيل الرواية أن زفس يتكلم في أصول الرحمة فتأخذه الشفقة على برومثيوس وعلى بني الإنسان . ومن هذا يتبين أن الآلهة كالإنسان يتطورون ويتغيرون . ولو تقدم المؤلف في كتابه خطوة أخرى قصيرة لأبان أن الآلهة في الأساطير هم رمز لهجز الإنسان عن التحكم في قوى الطبيعة وإنك إذا طلبت من ذلك الإله شيئاً فوق قدرته تفقده من الوجود .

والواقع أن الأثينيين في أيام أخيل لم يكونوا يختلفون كثيراً عن « البرابرة » الذين احتقروهم ، فنظام الرق لم يكن قد أُلغى بل على النقيض من ذلك زاد عدد الأرقاء زيادة كبيرة بسبب اجتياح الأسطول اليوناني والجيش اليونانية بقيادة أبناء أثينا آسيا الصغرى وقبرص ومصر ، حتى إن عدد الرقيق أصبح في سنة ٤٣١ ق.م. يؤلف ثلث سكان اتিকা (وهي شبه الجزيرة التي تقع في أثينا) وقد أحلهم السادة الأحرار محلهم في

الزراعة والصناعة والتجارة واستخدموا أصواتهم في الحصول على نفقة من الدولة .
ولكي يتسنى لأئينا أن تدفع الأموال المقتضاة انغمست في سياسة استثمارية وأصبحت
في نظر الإغريق عامة - وفي رأى سياستها بوجه خاص - « دولة طاغية » .

وقد أنتجت هذه الحال حرب البليونسية الطاحنة التي قضت فيها تجارة أئينا
بمساعدة سبارطة والذهب الفارسي والخيانة الداخلية على الديمقراطية ، وكان ذلك في
سنة ٤٠٤ ق م . وكان الدرس الذي تلقاه العالم من ذلك أنه لا يمكن لدولة نصفها حر
ونصفها مستعبد أن تعمر طويلا في الحياة .

ولم يكن الرق اللطخة الوحيدة في شعار أئينا . إن مركز المرأة عند الإغريق
القدماء ، وإن كان يضعها دون مستوى الرجل ، يجعل لها كرامة واحتراما . إن
بطالات هوميروس - اندروما في (امرأة هيكتور) وهيلانة (امرأة متيلاوس ومعشوقة
فارس) وفينيلوب - لم يكنن أشخاصا وهميين لا وجود لهم . لقد كانت نساء سبارطة
وهي أقرب بلاد اليونان إلى الوحشية - في أزمنة التاريخ يتمتعن بحرية كبرى
ويتمسكن الأموال ويتمتعن بنفوذ عظيم . أما في أئينا وفي البلاد التي سارت على أثرها
اعتبرت المرأة عبئا على المجتمع وسلعة من جملة أموال زوجها . لقد حذر باركليز زعيم
الاستعمار الأيوني النساء في تأيينه قتلى الحرب البليونسية من « نشر الإشاعات
الصحيحة أو الكاذبة بين الرجال جهد الاستطاعة » . وكان النساء الوحيدات اللاتي
سمح لهن في أئينا بأن ينلن نصيبا من التعليم ، البغايا وكانت اسباسيا معشوقة
باركليز مثالا لامعا من بينهن . وكان الرجال الذين لا يرتاحون إلى جهل نسائهن
يعمدون إما إلى تلك البغايا أو يأتون الذكران .

ولم تلغ الديمقراطية النزاع بين الملاكين والتمولين ، الذين اغتنوا بمنتجات أعمال
عبيدهم ، وبين جمهرة السكان الأحرار الذين لا يملكون رقيقا ، والذين كان الرقيق
يزاحهم فيخرجهم من أعمالهم . ولكن الديمقراطية شوهدت السياسة لأن الطبقة

الحكمة اضطرت إلى طلب رضا الرأى العام بوعود خلافة كاذبة . وكانت إحدى نتائج تحول الفلسفة من دراسة الطبيعة إلى دراسة المجتمع الإنسانى . لقد كان تجار أيونيا ورحلتها يهتمون بمعرفة شكل الأرض وحركة الأجسام السماوية . أما مواطنو أثينا الحيارى فقد كانوا يهتمون بوضع تعاريف للخير والشر والعدل والجور وزلاقات اللسان الواردة فى أحوال الخطباء السياسيين وما إلى ذلك . وأما الأساتذة الفنيون « السفسطائيون » فقد كانت حلقات دروسهم تعج بمئات الطلبة الذين جاءوا يتعلمون أصول الجدل . لقد كان هؤلاء الأساتذة أصحاب فضل السبق فى العلوم الاجتماعية . وقد أثاروا أبحاثا كثيرة منها : « هل يمكن تعليم الفضيلة ؟ أو بعبارتنا الحاضرة : هل الأخلاق تأتى الإنسان بالطبع أم بالتطبيع ؟ » وهذه الأمور ما تزال موضع جدل حتى يومنا هذا . إن زعيم السفسطائيين بروتاجورس قد وضع نظرية لم يتمكن العالم من تقدير قيمتها الحقيقية إلا فى المئة سنة الأخيرة وهى « إن الإنسان مقياس الأمور كلها » .

إن اضمحلال وتفكك الدويلات اليونانية لم ينشأ عن آراء « السفسطائيين » دروسهم وإنما قد نتج عن محاولة نشر الحرية على أساس أركان الاستعباد . لقد خلف بريق الفخر الذى نراه فى أخيل وفى الروايات المحزنة التى جاءت بعد ذلك مستقبلا مظلمة وثورة جامعة . وقد وضع سوفكليس الذى عاش فى عصر مجد أثينا وقاد جيوشها فى ساحة الوغى روايتين لدراسة (أوديس) (الرجل الذى يقصد الخير ويضمه ولكنه يسيء إلى نفسه وإلى الآخرين) أكد فيها زوال الحياة وبطلانها . أما يريديس ، وقد كان من أصل ضيع ، فقد أبان فى رواياته المختلفة الوجهة المظلمة فى حياة المجتمع الإغريق ، وعدد مساوئها وكانت تتألف - فى رأيه - من نظام الرقيق وإخضاع المرأة والحروب الاستعمارية والنصب والشعوذة الدينية . وقد حملتنا روايات يوريديس منتصف الطريق بين هوميروس وأخيل وبين شكسبير واسكندر دوماس وانا تول

فرانس وغيرهم من الشعراء . وما تزال روايات يوريديس يقبل عليها الناس من بين الروايات اليونانية .

وقد كان سقراط من المعجبين بيروبيديس . وكانت وضاعة المنشأ تجمع بينهما فقد كان أبوه نقاشاً وأمه داية : وقد زاول صنعة أبيه أول حياته ثم كان جندياً في فرق المشاة أيام الحرب اليلوبونيسية . وقد درس وهو شاب الفلسفة الأيونية وأصبح أستاذاً للعلوم في أثينا . ثم اعتزل العلوم المادية الأيونية وانصرف بكليته إلى دراسة علم الأخلاق فنجد رأى السفسطائيين القائل «إن الأخلاق نسبية يتوقف حسنُها وقبيحُها على حاجات المجتمع ومصلحه » وزعم أن الأساليب الرياضية يمكن تطبيقها على دراسة الأخلاق - أى أنك تستطيع أن تُعرّف العدل مثلاً بشكل يفهمه كل إنسان كما يفهم معنى العدد والخط وما إلى ذلك ، وإنك تستنبط من تلك التعاريف نتائج جلية واضحة . ونحن اليوم نعرف أن الأعداد والخطوط أسماء مجردة نستخدمها في عالمنا المادى المعقد ؛ وإننا نعلم أن الصور الفكرية للأسماء المعنوية كالعدل مثلاً هى من الأمور التى نستخدمها فى الحياة الاجتماعية . أما فى رأى سقراط فإن الأعداد والخطوط والخواص الخلقية كانت أشياء محسوسة كالمائدة والكرسى مثلاً . وهذا العجز فى التمييز بين المحسوس والمعقول توارثته الجامعات والمدارس القديمة أمداً طويلاً .

أما حياة سقراط فقد كانت أعظم من فلسفته ؛ لقد رفع سقراط صوته عالياً فى الاحتجاج على حكم الإعدام الذى أصدره المجمع الأثينى العام على ثمانية من القواد وقد قاوم الأثينيين الذين خانوا بلادهم عند ما احتلتها سبارطة فأوجد لنفسه أعداء سياسيين من الأثينيين والاسبارطيين على السواء . وقد أنَّهُم ، عندما عادت الديمقراطية إلى البلاد فى سنة ٣٩٩ ق م . بالخيانة العظمى . وكانت تلك التهمة صحيحة . فإن سقراط لم يعد يؤمن بأساطير هوميروس وهسيود أكثر مما كان يعتقد بها يوريديس . وكان دفاعه ، على ماروى أفلاطون الذى حضر المحاكمة ، قطعة أدبية خالدة ودفاعاً مجيداً عن

التفكير الحر ولكنه كان تخلصاً والتواء عن مجابهة موضوع الدعوى. ومع ذلك فكادت المحكمة تحكم ببراءته وكان بوسعها أن ينقذ نفسه لو استعمل شيئاً من اللباقة. ولكن انتباهها كحرمة المحكمة عن تعمد وقصد واصرار أنتجت الحكم عليه فتجرع سم الشوكران وكان شهيداً للفكر الحر؛ بالرغم من أنه لم يكن مثالا للمفكرين الأحرار.

إن المصير المحتوم لهذه الفلسفة، التي كان ركنها البحث عن تعريفات للأشياء، كان تفرق أتباعها إلى مذاهب شتى. وكان من تلامذة سقراط ارستيبوس الكبيرين وهو الذي اعتبر الخير في اللذات، وأن الأخلاق الحسنة هي التي تؤدي إلى اللذات وتبعد عن الشر والشقاء. أما أنستينيس الأثيني فإنه اعتبر الخير في القناعة وحاول أن يحصل عليها من طريق الفقر ونبد مسرات الحياة. وقد عرف أتباع هذا المذهب الغريب باسم الكاينيز - أي الكلاب. وقد نبذ أتباع مذهب كيرين والكاينيزيين السياسة واعتبروا أنها عمل غير مجدى. أما ديوجينيس - تلميذ أنيتشينيس فقد اعتبر نفسه مواطناً في العالم. ولكن عمله هذا لم يأت بفائدة ما، فقد نبذ رعية الدويلات المحلية، في وقت لم تكن فيه رعية أكبر قد وجدت في العالم.

على أن أشهر تلامذة سقراط كان أفلاطون. وكان نبيلاً أثينياً أزرق الدم وورث كره الديمقراطية ومقتها وأبغضها بعد قتل سقراط. وعندما يريد أفلاطون أن يشير إلى فيلسوف لا يميل إليه كان يقول إنه « صفار سخي ». وقد ورث أفلاطون عن سقراط نظريته التي تقول: إن المبادئ الأخلاقية حقائق محسوسة يمكن إدراكها بالعقل الخالص، ولذلك فقد رأى أن هذه الحياة الدنيا هي الحقيقة الواقعية وأن العالم المادى الذى حولنا ليس إلا ظلاً خلاباً لها. وعلى ذلك فاعتبر أفلاطون واضعاً للفلسفة المثالية في الغرب كما كان تيلز وانا كسيناندر واضعين لمذهب الفلسفة المادية. فالفلاحون والصناع والتجار والساسة والفلاسفة والعلماء الأيونيون انهمكوا جميعاً في الظل الخلاب. بينما الفيلسوف الحقيقي أخذ يبحث في القيم الخالدة - في الجمال

والحق والصالح . غير أن المجتمع لن يصلح إلى أن « يصبح الفلاسفة ملوكاً أو أن تحمل في الملوك والأمراء في هذا العالم روح الفلسفة وقوتها وتتجمع لهم العظمة والحكمة السياسية » . وفي هذه الدولة المثالية - التي هي مثل سبارطة ولكن بشكل أوسع - تحكم طبقة الحكماء ويحرس البلاد جيش من المحاربين الأشداء ويقوم بأود هؤلاء جميعاً الصناعات الذين عليهم أن يلزموا السكينة ويقبلوا بوضعهم لأن الله أنشأهم من طينة غير طينة سادتهم . والعدل - في رأى أفلاطون - يتألف من تحكم العقل في حياة الأفراد ، ومن حكم الدولة من قبل الطبقة الوحيدة العاقلة وهي جماعة الفلاسفة .

إن مثالية أفلاطون تذكرنا بفلسفة البراهمة الهندود، وهي في الواقع تشبهها من حيث انهادليل على الإفلاس السياسي . ولو أن أفلاطون توسع في نظريته لعلم أن الظل ينتج عن الأشياء المادية ؛ وأن بوسع الإنسان أن يتحكم في تلك الأشياء وهذا التحكم يدل على أنه على اتصال دائم في العالم الواقعي . إن نظرية أفلاطون في الفيلسوف الملك تذكرنا ببحث كونفوشيوس عن حاكم فاضل للصين قبل ذلك العهد بقرن واحد تقريباً . وقد علم أفلاطون - كما أدرك قبله كونفوشيوس - أنه لم يوجد الشخص الذي يبحث عنه ، وأن مصلحة القوى (على حد تعبير تراسيا كوس السفسطائي) هي التي تملئ شكل الدولة وأصول الحكم . وكانت عاقبة أفلاطون أن رجع إلى المذهب الأورفي فقال : إن الطغاة سيمذبون عذاباً أبدياً لا يعذبه أحد ، وإن المحسنين ستتممض أرواحهم عند موتهم في أجسام الحيوانات أوفى أجسام إنسانية وسيؤتون الحكمة عن طريق الفلسفة وبذلك يميزون الجزء الأوفى . ولما تقدمت السن بأفلاطون تعصب تعصباً شديداً للالهيات . وقد روى عنه أنه رغب في إحراق كتب الفيلسوف المادى ديموكريتوس جميعها . ووضع في آخر كتاب له « كتاب القانون » عقوبة الإعدام ، لكل من يشرك بالله ويكفر بالدين .

ولما توفي أفلاطون في سنة ٣٧٤ ق م. كانت السياسة اليونانية قد فسدت. وكانت الديموقراطية قد بلغت من القوة ما مكّنها من أن تصمد في وجه الثورات والحركات الرجعية - كالحركة التي حاولت القيام بها سبارطة -، ولكنهم لم تستطع أن تحمدن قوة انتشار البؤس والشقاء الاجتماعى الناجم عن نمو انتشار الرق . وقد استنكف الناس عن تربية أولادهم في تلك الظروف ، وانتشر الاجهاض وقتل الأطفال انتشاراً كبيراً . فكانت النتيجة أن نقص عدد السكان . ثم إن الرجال الذين سُدَّت في وجوههم سبل الرزق في بلادهم باعوا أنفسهم جنوداً للزواود الأخير - وكان الفرس على الغالب هم ذلك المشتري ، غير أن الأمراء الذين شقُّوا عصا الطاعة على الأمبراطورية الفارسية كثيراً ما استأجروا هؤلاء الجنود . وكان هؤلاء يعودون إلى وطنهم حاملين معهم المال والثراء ، يتحدثون لمواطنيهم عن ضعف الشرق . وكانوا جميعاً يتطلعون إلى قائد عظيم يقودهم إلى البلاد الآسيوية ويهبهم خيراتها وبذلك ينقذهم من أخطار الثورة الاجتماعية . وقد وجدوا في فيليب المقدونى ذلك القائد، فجعل من نفسه سيداً لبلاد الإغريق دون منازع . وقد انضم إلى صفوفه فريق كبير من كل مدينة يونانية وبلغت به الحال أن قضى على الديموقراطيات سنة ٣٣٨ ق م في شيرونيا . وقد تمكن الإسكندر بن فيليب خلال بضع سنين من أن يغير مجرى التاريخ في العالم القديم وأن يفتح غربى آسيا ومصر ويصل بمجنوده إلى ضفاف نهر السند .

وكان بين الذين ربحوا من الفتح المقدونى واحد من تلامذة أفلاطون يدعى أرسطو، وهو ابن أحد أطباء البلاط المقدونى وقد كان أستاذاً للإسكندر . وعندما تبوأ الإسكندر العرش تحول أرسطو إلى أثينا وأقام فيها زمناً يدرس الفلسفة .

وقد انعكف أرسطو على دراسة السياسة والأخلاق دراسة وافية كما فعل قبله سقراط وأفلاطون ؛ ودرس العلوم التي نبذها سقراط والتي لم يلتفت إليها أفلاطون أبداً . وقد جعلته تلك الدراسات أعظم الفلاسفة الذين أنجبهم بلاد اليونان منذ عهد الانحطاط

الأبوني . وقد طبق على المجتمع الإنساني أساليب المراقبة، وجمع المعلومات، وتصنيفها كما كانت تطبق على الطبيعة ، ولم يقع قط في الخطأ الذي شاع في أيامه وهو : افتراض أن العالم المادى ليس واقعيا ، وأن بالإمكان استخلاص أية معرفة منفصلة عنه . وقد عجز إدراكه عن تصور أن السعادة متصلة بالحياة من ذاتها أو أنها متصلة بالحركات الخارجية التى تقوم عليها . قال : إن السعادة تتصل بحياة العقل ولكي يتمكن الإنسان أن يعيش تلك الحياة لابد أن تأتية الحاجات من الخارج وأن يستريح . وأرسطو هو صاحب نظرية الرقيق : « إن بعض الشعوب هم أرقاء بالطبيعة ... وهم دون الآخرين درجة بقدر ما هو الجسم دون الروح درجة . وقد حبت الطبيعة هؤلاء الناس بما يؤهلهم لأن يطيعوا الأوامر لا غير . ولذلك فن العدل أن يستخدمهم الأعلون كآلات حيوانية » . إن الصناع هم إلى حد بعيد أرقاء ، ولذلك فإن الديمقراطية التى تمنح هؤلاء حق التصويت فاسدة . وفى رأيه يجب ألا يشترك فى الحكم سوى الملاكين وأن تفلاح أراضيهم من قبل الرقيق المجلوب من الخارج لأن هذا الضرب من الرقيق قليلا ما يثور . وقد اعترف أرسطو بأن نظريته هذه قد لا تصدق دائما . لأن بعض الرقيق يحمل بين جنبه روح الأحرار . ومهما يكن من الأمر فإن من المزجج بجارة هؤلاء الناس : فإن أحسنت إليهم استضعفوك ووضعوا نفوسهم على قدم المساواة معك ؛ وإن أسأت إليهم ثاروا عليك وأبغضوك . ومن هذا يتضح لك أن الذين يتعاملون بالرقيق لم يتوصلوا بعد إلى خير الطرق فى إدارته .

إن تجربة اليونان ومساعدتهم فى نشر الحرية قد أخفقت . فعادت الدويلات اليونانية مجالس بلدية فى الأمبراطورية المقدونية . وقد نشأ فى هذا العهد فيلسوف عظيم آخر هو أبيقور . وهذا الفيلسوف نحى عنه السياسة جانبا وجعل هدفه العمل لتيسير الحياة للناس فى مجتمع كل ما فيه مملوء بالمتاعب التى لم يبعث هو لإزالتها . وقد ولد أبيقور من أبوين فقيرين . ولما شب جمع حوله حلقة من الأحرار والرقيق

رجالاً ونساء وأخذ يدرسهم الفلسفة العملية . وقد أخذ عن ديموقريطس نظريته في الفلسفة المادية أو الواقعية ونبذ وراءه ظهرياً مذهبي أفلاطون وأرسطو في تقديم المعقول على المحسوس . واقتبس من الكيرائيكيين مساواتهم الخير باللذة، ولكنه عرف اللذة بأنها سلامة العقل والجسم من الآلام والأوجاع . يتجنب المرء الألم الجسماني بقهر النفس وعصيانها . ويستبعد الألم العقلي بالتغلب على الخرافات والأوهام بواسطة العلم وبالتالي بواسطة إلغاء الخوف من الموت . والروح كالجسم مادية وفانية وعلى ذلك « فالمرت لا يهمننا ، فما دمنا موجودين ، فلم يطلونا الموت ، ومتى متنا فلسنا موجودين » . (كتب ابيكور في مجموعة ديجونيس - الترجمة الإنكليزية لهيكز) وقد انتشر مذهب ابيكور في اليونان حال حياته وبعد مماته وخلف من بعده مدرسة قالت بمذهبه . ولم نعلم أن أحداً ممن تمذهب بمذهبه قد اعتزله فيما بعد .

وكانت الحركة الأخرى العظيمة إبان عهد الاضمحلال في اليونان هي الرواقية إن تاجراً فينيقياً قبرسى المولد اسمه زينون نزل في أثينا وأقام بها خلال القرن الرابع قبل الميلاد . وعند ما اعتزل العمل اعتنق العقيدة « الكينكية » القائمة على القناعة الذاتية . ثم توسع في هذه العقيدة وكون لنفسه مدرسة ذات فلسفة خاصة عرفت بالفلسفة الرواقية ، نسبة إلى المكان الذي كان يحاضر فيه، وهو رواق قريب من سوق المدينة في أثينا . إن آراء الكينكيين أصبحت عند زينون نظرية ثابتة في الأخوة الإنسانية . وقد ذهب فلسفته بالفروق الموضوعية التي يمتاز بها الإغريق عن البربري، والراقيين عن الحر، والرجال عن النساء، وقال: إنه يجب أن يعيش الناس على الفطرة في مجتمع أممي دون ما زواج أو نقود أو محاكم أو معابد . ولم يجد زينون سبيلاً لتنفيذ هذا المنهج في عهد خلفاء الإسكندر؛ ولذلك نرى أن الرواقيين جعلوا من مذهبه عقيدة دينية . إلا أنهم ظلوا يُعتبرون من مصلحي العالم القديم بالنسبة إلى زمانهم . قالوا: « يوجد هنالك شيء واحد صالح، هو الفضيلة، وشيء واحد طالح، هو الرذيلة؛ وإن

غاية الحياة العظمى يجب أن تكون طمأنينة النفس الحاصلة على الفضيلة التي يستوى
لديها الألم واللذة . واشتهر أتباعه بشدة الجلد . ولذلك شاع استعمال لفظة « الرواقية »
مرادفاً لعدم المبالاة بالألم .

وكانت المادية أو الواقعية ركن فلسفتهم - شأنهم في ذلك شأن الايبكوريين .
ولكنهم اختلفوا عن هؤلاء بالتوفيق بين مذهبهم وبين العقائد الدينية فخلعوا على مادتهم
وشاحاً من الآلهيات ومزجوا بها كثيراً من الخرافات والأوهام الفلكية . ومهما
يكن من أمر فإن الفضل في آخر محاولة للإصلاح قام بها الإغريق يرجع إلى الرواقين .
لقد عمل الملكيين الاسبارطيين - إبيجز الرابع (٢٤٥ - ٢٤١ ق م) وكليومينيس
الثالث (٢٣٥ - ٢١٩ ق م) على توسيع أداة الحكم في دولة اسبارطة فأعادوا توزيع
الأراضي بين السكان وأعتقوا الرقيق . ولكن المحاولة أخفقت : فقد خفق الأعيان
إبيجز ؛ وطرده الجيش المقدوني كليومينيس ولحق كثيراً من البؤس والشقاء آخر
أيامه في مصر . وفي ذلك الوقت كانت طلائع الجيش الروماني تزحف على اليونان
وتتقضى على الحرية التي ظل يحلم بها السكان زهاء ألفي سنة تقريباً .

الفصل السابع

رُومَا

لقد ضاع تاريخ روما القديم في سلسلة من الخرافات والأساطير . وكل ما نستطيع الجزم بصحته أنه لما كانت بعض القبائل التي تتكلم الآرية تتسرب إلى أوروبا ، جذبت سهول إيطاليا ومنحدرات جبالها التي تكسوها الغابات تلك القبائل فجاءت إلى شبه الجزيرة في موجات متعاقبة وأقامت فيها . ولم تكن في إيطاليا قبل هذه الهجرات الآرية ثقافة تذكر كالثقافة التي عمت اليونان . وفي المدة الواقعة بين سنة ١٢٠٠ و ١٠٠٠ ق م . اصطدم المهاجرون المقيمون في أواسط إيطاليا بأقوام كانوا أكثر منهم تمدناً يتألفون من « جماعة من لصوص البحر البواسل المعروفين بالترسكين وهم شعب لا يعرف لهم نسب وإنما كانوا يسكنون آسيا الصغرى الغربية . وقد غادروا بلادهم للبحث عن وطن جديد بإيطاليا ، ووجدوا هذا الوطن وردوا عنه القبائل الهندية الأوروبية واستولوا على ساحل إيطاليا الغربي - من خليج نابولي إلى جنوا ، يتبع ذلك قسم كبير يمتد من داخل البلاد إلى حدود جبال الأبنيس ووادي البو » . فتسلطوا على جميع تلك الأقاليم وأنشأوا فيها مدينة بقيت حتى عصر التاريخ ، وعندما أفاقت روما من عهد الأساطير كان يحكمها في حوالى سنة ٦٠٠ ق م . ملك من العباد وكانت اللغة الآرية السائدة فيها ولكنها مع ذلك اعتبرت مدينة إتروسكية . وقد أدخل ملوك الإتروسكيين إلى مدينة روما تحسينات وإصلاحات جمة وتركوا في المدينة أثراً جديداً بدا طابعه فيما بعد على المؤسسات الرومانية . وكان من أهم تلك المخلفات عادة

تقديم القرابين البشرية التي استمر العمل بها أمداً طويلاً خلال أزمانه التاريخ الروماني .

وقبيل نهاية القرن السادس قبل الميلاد كانت الدويلات اليونانية ولا سيما كومي وسيراكوس في الجنوب تنازع الاتروسكيين السلطة . وقد حمل عسف الحكم الاتروسكيين الناس على رفع لواء الثورة، يقودهم فيها نبلاء من الاتروسكيين أنفسهم، فكانت العاقبة طرد ملوك روما منها واستقلال البلاد . ومنذ ذلك الحين أصبحت روما في عداد الدويلات التي نشأت في سهل لاتيوم وعرف سكانها باللاتين وكانوا يتكلمون اللغة اللاتينية ودخلوا مع جيرانهم الإيطاليين الذين كانوا يعيشون جوالاً صغيرة في محالفات عسكرية . وكانوا يزرعون الحبوب ويرعون الأغنام في الأبناد والهضاب . وكان النبلاء - الذين طردوا الملوك الاتروسكيين هم الذين يحكمون المدينة وقد اعتبروا أنفسهم من العشائر الممتازة وكان رؤسائهم يؤلفون مجلس الأعيان أو مجلس الشيوخ الذي يتولى إدارة شؤون الحكومة كافة . وإلى جانب طبقة النبلاء الممتازة وجدت طبقة العامة المؤلفة على الغالب من سكان البلاد الأصليين الذين غلبوا على أمرهم ، وقد زاد عددهم تدريجياً بانضمام الأعراب الذين سكنوا في روما يتجرون ويعملون في الفلاحة . ولم تكن العامة أول الأمر يعتبرون من مواطني روما ولكنهم كانوا يقومون بالخدمة العسكرية في الحروب المتوارة . وكان حق الانتخاب لمجلس الشيوخ محصوراً في النبلاء ، محظوراً على العامة . فثار العامة على هذا الظلم واعتمدوا على أسلحتهم وكثرة عددهم فلم ير الأشراف بدءاً من النزول عن بعض امتيازاتهم فاتفقوا بأن يجمعوا للعامة نصيباً في وظائف الحكومة ومنحهم الحق لأن ينتخبوا للمجلس المختص بهم ، مجلس العامة ، فريقاً من الموظفين الذين سموهم تريبونين . وكان لهؤلاء سلطان في أن يلغوا أو يعطلوا حكم أي كان من موظفي الدولة حتى حكم الرؤساء . وكانوا يجلسون للمظالم فتستأنف إليهم الأحكام ويفسخون الجائرة منها حتى

لقد كان من حقهم إلغاء حكم الإعدام . وما كاد ينتهي القرن الرابع ق م . حتى اندثرت جميع امتيازات النبلاء وحل المال في روما محل الشرف كمصدر للقوة والسلطان . وكان هنالك عدا طبقتي النبلاء والعامّة طبقة الرقيق . وكان عدد أفراد هذه الطبقة يزداد يوما بعد يوم بازدياد الحروب . وقد تألفت أسرة الرجل من زوجته وأولاده وعبيده وأمواله المنقولة وغير المنقولة . وكان الأب الروماني يتمتع بسلطة واسعة في التصرف بأولاده وعبيده وأمواله . وقد تضمنت هذه السلطة حق الحياة والموت وعرفت باسم « سلطة الأبوة » . ولم يكن من حق الأولاد والعبيد أن تكون لهم أموال خاصة ؛ وكان كل ما بأيديهم من مال ومتاع هو ملك لأبيهم أو سيدهم . وكان يحق للأب أن يبيع ابنه كما يبيع رقيقه للآخرين .

وقد حدث في غضون القرن الرابع قبل الميلاد أن استبدلت روما حلفها مع الدويلات اللاتينية المجاورة لها بسيادة بسطتها عليها . ومنذ ذلك الحين اختطت لنفسها سياسة استعمارية أنتجت سيادتها الكاملة بادی الأمر على الجزيرة الإيطالية ومن ثم خلقت امبراطورية البحر الأبيض المتوسط . إن احتلال الرومان لإيطاليا قرب هذه البلاد من التمدن اليوناني . إن يونان إيطاليا وصقلية اعتبروا أن سكان روما هم من عصبتهم أكثر مما اعتبرت المدن اليونانية أن سكان مكدونيا هم من الإغريق . ذلك لأنهم كانوا يخشون من جهة قيام الثورات الاجتماعية الجارحة التي يؤججها ازدياد عدد الرقيق وفقر الأحرار ، ويتوقعون هجوم البرابرة عليهم من الجهة الأخرى . وهذا الأمر عبّد السبيل لروما لكي تكسب ود وإخلاص المدن اليونانية دون أن يقتضي ذلك منها كبير جهد وعناء . وقد كانت طبقة الأثرياء تقف دائماً إلى جانب حكومة روما ، يستثنى من ذلك فترات متقطعة في التاريخ حدث فيها أن تخلف هؤلاء عن الانتصار لها . وكانت إحدى تلك الفترات عندما خرج الديموقراطيون على الدولة في تورنتوسنة ٢٨١ ق م . وعندما غزا هنيبال روما واحتلها بضع سنوات وظن أن روما لن تكسب الحرب

أو تسترد مكانتها السابقة . ولعل نجاح روما وتقدمها السريع يعودان إلى ادعائها أنها تقوم بحماية الأموال والأرواح ونشر الهدوء والسكينة بين الناس . وقد كانت سياستها أن تلقى الديمقراطية في كل بلد تحتله وتعيد أصحاب المال والثراء إلى دفة الحكم . وقد وجدت عند الدويلات اليونانية مدنية عالية وكانت تتعلم منها وتقتبس عنها شريطة أن لا تخالف تلك المدنية النظم السياسية التي اختطتها لحكومتها .

وقد كان الحال في القرن الثاني ق م . أنه بينما اكتسحت الجيوش الرومانية اسبانيا ومكدونيا وبلاد اليونان الأصلية وضممتها إلى الأمبراطورية وأزالت قرطاجنة من الوجود ، كانت حلقات دروس الفلاسفة اليونان تعج بالمستمعين في روما وقد جذبت الرواقية المثقفين من الرومان . وعلموا ذلك بأن هنالك توافقاً بين المثل الروماني وبين أهداف فلسفة الرواقيين . على أن هذا التعليل لا يعتبر مقبولا إلا عند فريق من الناس الذين يؤمنون بالأقوال دون الأفعال . لقد حدث في الفترة التي هي موضوع بحثنا الآن أن الفتوحات الرومانية ملأت الأسواق بمئات الألوف من الرقيق ، فقد بيع بعد الحملة المكدونية في سنة ١٦٨ ق م مئة وخمسون ألف شخص من الرقيق دفعة واحدة . وكانت ديلوس أشهر أسواق النخاسة فقد بيع فيها - خلال يوم واحد - حوالي عشرة آلاف رقيق . أما الجنود الذين خاضوا غمار هذه الحروب فقد كانوا يجنون على أنفسهم . فقد عادوا إلى أوطانهم منتصرين فماذا وجدوا ؟ وجدوا مزارعهم الصغيرة قد طفت عليها مزاحمة الاقطاعات في إيطاليا وصقلية فجعلتها خرابا يبابا ينعم فيها اليوم والغربان : بينما كانت الألوف المؤلفة من الرقيق يعملون سحابة النهار في الاقطاعات وهم مكبلين بالسلاسل ، ويبيتون الليل في الكهوف تحت الأرض في حراسة قوية ؛ وكان أخشى ما يخشاه أولئك الرقيق إيقاع عقوبة الجلد أو الصلب فيهم - وكانت روما المنتصرة قد أخذت عقوبة الصلب البشعة عن قرطاجنة المغلوبة . إن الشيخ كاتو وهو شخص صورته الآداب الرومانية ، كإنسان متوحش عاش أيام الجاهلية واعتبرته

«رمزاً للفضيلة الرومانية - قد أوصى ببيع الرقيق المريض أو العاجز عن العمل تقادياً من تحمل أعباء إعالته . وقد اندلعت في صقلية نيران ثورة لواءة قام بها الرقيق خلال بضعة سنين واستدعى إخمادها إرسال جيش روماني كامل العدة والعدد ، يقوده أحد قناصل الدولة . والواقع أن الأمبراطورية الرومانية التي استعمرت جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط وسخرت سكانه لمصالحها لم تكن لتعطف على مبادئ الرواقين أو أهداف فلسفتهم العليا .

لقد حجب الفلسفة الرواقية إلى نفوس المسؤولين عن الحكم في روما تحميمها على الرعية الإيمان بدين الدولة ، والأخذ بأوامره والامتناع عن نواهيها . وإننا نجد أن المؤرخ بوليبيوس الروماني ، قد تمذهب بمذهب الرواقين ، يقول : إن على الرومانيين أن يشجعوا نشر الخرافات الدينية كي يستولوا بها على عقول العامة بوعدهم ووعدهم على لسان قوى مجهولة ، وتخويفهم عاقبة الخروج على الدين وأوامره . ولم يضع رجال الدين أبحاثهم عن الآلهة والحياة الأخرى وما إلى ذلك من الأمور لاعين ، وإنما كان كل ذلك قد أعد عن قصد وتصميم . وقد جرى باناتيوس الرودوسي زعيم فلاسفة الرواقين في ذلك العصر ، بوليبيوس في أبحاثه الدينية وكان هو الآخر - كوليبيوس - صديقاً لكبار الساسة في الدولة . ومن هذا نرى أن الرواقية ، التي بدأت نشأتها كفلسفة عامة يوتوييه قد أصبحت عند الرومان أداة لخدمة مصالح الدولة الرومانية البلوتوقراطية (أي التي يسيطر عليها الأغنياء) . على أن بعض الرواقين ظلوا ، حتى في ذلك العصر ، حريصين على التمسك بمبادئ أستاذهم الأعظم زينون . فقد كان بلوسيوس الكومي مثلاً أستاذاً لطيباريوس غرقس ومؤيداً له في سياسته التي رسمها في سنة ١٣٣ ق.م. ، للمحافظة على صغار الفلاحين وتوزيع الاقطاعات الكبيرة بينهم . غير أن أعضاء مجلس الشيوخ قتلوا جراً كشوس هذا . ووجد في قتله تأييد

من جمهرة طبقة الأعيان ، وارتياحا عاما حتى من صهره (سببوا ميليانوس) تلميذ
يليبوس وصديق باناتيوس لأن المقتول - في زعمهم - تلاعب بمحقوق الملكية الفردية
للأراضي .

على أن قتل جرا كشوس ، المتنازع على الفلسفة الرواقية ، من قبل الطبقة الحاكمة
لعبته بأحوالها ، واستحسان قتله من قبل الرواق سيبوا ، كان بمثابة وضع أساس
للسياسة الرومانية استمر العمل به زهاء مئة سنة . وكان الخلاف يدور على أمور
ثلاثة أولها : إحلال الرقيق محل صفار الفلاحين في إنتاج المحصولات ، أول الأمر في إيطاليا
وصقلية ومن ثم في بلاد اليونان وبقية مقاطعات الدولة . لقد كان سكان الإمبراطورية
في ذلك العصر يتألفون من طبقتين : طبقة الأحرار وهي تضم حوالى ربع السكان ،
وطبقة الرقيق وقد ضمت الثلاثة الأرباع الأخرى . والثاني : سخط حلفاء روما عليها
لأنها لم تعتبرهم من رعاياها . والثالث : غضب سكان المقاطعات من السياسة الرومانية التي
كانت تبيح للحكام نهب أموالهم ، وتجيز للترضى الضرائب أن يسلبوهم كل شيء حتى
أقواتهم الضرورية . وتد تلاموت جرا كشوس خروج أخيه في سنة ١٢٣-١٢١ ق.م.
في وجه سلطة الشيوخ السياسية ، وإعلانه العداء لها ثم موته . وفي سنة ٩٠-٨٩ ق.م.
جهز حلفاء روما جيشاً مؤلفاً من مئة ألف مقاتل ووجهوه إليها فاضطرت الى أن تعترف
لهم بمحقوق الجنسية الرومانية . ومن سنة ٨١ إلى سنة ٨٨ ق.م. ، شغلت روما وإيطاليا
بالحروب الداخلية والمذابح تلو المذابح فكانت النتيجة أن تبوأ عرش الدولة الطاغية
سوللا وأصبح ميزان القوة في يد جنود الدولة يرجعون الكفة التي يريدونها .
وقد اشترك الرقيق في النزاع من سنة ٧٣ إلى ٧١ ق.م . وفرّ من الجندية مقاتل
ثراق اسمه سبارتا كوس ومعه سبعون آخرون فالتف حولهم عديد أجزل من صفار
الفلاحين والرقيق الآبقين فكوّنوا عصاة قوامها سبعون ألف رجل نكثت بالجيوش
الرومانية مدة سنتين إلى ، أن برز إليها جراسوس و (بمبي) وهما من قواد الطاغية

مسلاتن فقصوا على الثورة وملأوا طرق البلاد بألوف من أشلاء المصلوبين . وتوجه يمي في سنة ٦٦ ق م ، إلى الشرق وكان في سنة ٦٣ ق م ، يقود جنوده عبر الفرات فبحر قزوين ، ويضم سوريا وفلسطين إلى الأمبراطورية . وانهز الناقون على الدولة انشغال الجيوش في الخارج فهبوا بقيادة كاتيلين ، والتف حولهم ألوف من الرقيق ومن الجنود الفارين ، ولكن جنود الدولة خذلهم وقتلت قائدهم في سنة ٦٢ ق م . وفي سنة ٦١ ق م ، عاد يمي من الشرق وأصبح سيد الموقف . وقد حكم يمي وقرسس وقيصر مجتمعين ، الأمبراطورية زمناً بالاستقلال عن مجلس الشيوخ ، وعملاً باتفاق شخصي بينهم عرف باسم « تريومفراتس » أي حكومة الثلاثة . أما قرسس فقد حلت به كارثة ؛ وأما قيصر فقد قضى سبع سنين يحارب جول وستين يحارب يمي إلى أن كتبت له الغلبة عليه . وبعدئذ حكم الأمبراطورية مستقلاً . فأكمل تحرير إيطاليا ، ونشر الرخاء في البلاد بإقامة المستعمرات الرومانية فيما وراء البحار ؛ وعمل على استخدام الأحرار في مزارع البلاد ؛ وحط الأثقال عن كواهل سكان المقاطعات الخارجية ؛ وأصلح التقويم الشمسي . ولكن القتل كان عاقبة له . وثر له من بعد سنتين من حوالى ألفين من أغنياء الرومان وبذلك قضى على نظام الحكم القائم على مجلس الشيوخ فلم تبق له قائمة فيما بعد .

إن أبرز ما في هذا العهد من النتائج هو التغير الواقع بين حكم الأخلاقيين المعاصرين ، وبين حكم التاريخ . وليس علينا أن نخدع أنفسنا بعظمة قياصرة الرومان ؛ وليس علينا أن نكون من أتباع الملكية لئلا نرى أن زوال الجمهورية الخداعة وتوسيع حدود الجنسية الرومانية من قبل قيصر والذين ملكوا من بعده ، كانت تطورات في مصلحة الشعب الروماني بوجه خاص ، وربما في مصلحة البشرية بوجه عام . على أننا إذا سمعنا ما قاله المؤلفون القدماء نرى أن جميع الحسنات قد ألصقت بالنظام القديم وأن جميع السيئات جاء بها النظام الجديد . غير أنه يجب أن لا يعزب عن بالنا أن المصادر

الرئيسية لتأريخ تلك الفترة كتبها رجال كانوا أنفسهم يملكون عدداً جزيلاً من العبيد؛ ولذلك فقد ضمّنها وجهات نظرهم الخاصة . إن شاهدنا المعاصر لسقوط الجمهورية الرومانية هو شيشرون . وهو يقول - ويجاريه في قوله المؤرخون الذين جاءوا بعد زمنه ، إن كاتيلين كان مارقاً خارجاً على الدولة وشقياً متعطشاً لشرب الدماء ، وإن قيصر كان خليعاً ، وإن كاتو وبروتوس ، كانا مواطنين عاديين . أما اليوم فإن رأى السائد هو أن خطب شيشرون هي أقوال محام ، لا تتفق دائماً مع الحقيقة والواقع ؛ ولا تعتبر دائماً ملائمة للوضع الصحيح ؛ ولا يجوز الاعتماد عليها أو الاستناد إليها كبنية فردية ولا سيما في المسائل التي من مصلحة قائلها أن لا يقول الصدق فيها . إن شيشرون كان دائماً المدافع عن الملكية الفردية . وقد هيأت له ظروفه جميع الأسباب التي تغريه على ذلك . فقد كان ثرياً ، وتزوج بامرأة غنية ، وكان له قصر في المدينة ، وثلاثة بيوت في الريف ، وأراض شاسعة يعمل فيها مئات العبيد . وإذا تركنا خطبه جانباً وانكبنا على دراسة كتبه نراه رجالاً يعيش عيشة الترف ، واللهو فيعبت بمؤرخي زمانه ليصوروه في التاريخ رجالاً عظماء ، وزعماء للطبقة الراقية يتمسح بأطراف قيصر حال حياته ولكنه يحزن جنونه فرحاً عند اغتياله . أما في مؤلفاته الفلسفية فيزعم أنه يستمع إلى جميع الفرقاء وأنه يتبع رأى الراجح . ومع ذلك فإنه يمتنع عن قراءة الكتب الأيكونورية زعماء منه أنها ليست بذات أسلوب أدبي . وقد وقفنا من إشارة مختصرة وردت في مؤلفاته أنه قرأ رسائل لوكريتيوس وقدرها حق قدرها .

وكان لوكريتيوس معاصراً لشيشرون وله كتابات كثيرة ، منها رسالته «طبيعة الأشياء» وقد درج فيها على فلسفة الأيكونورين . وهي قصيدة شعرية اتفق النقاد على أنها خير قصيدة تهذيبية أخرجت للناس في آداب العصور القديمة . ولم يزد - لوكريتيوس - نظرياً شيئاً إلى الفلسفة الأيكونورية ، ولكنه ثبت تلك الفلسفة بأسلوب طلي وعبرة خلاصة . ولما كان لوكريتيوس نفسه من طبقة الأعيان الرومانيين

فقد صعب على مؤرخي الأجيال التي تلت أيامه أن يدركوا كيف أن هذا الثرى يدافع عن الفلسفة الواقعية ذلك الدفاع المجيد، ولذلك فقد اتهموه بالجنون وقالوا إنه جن جنون العاشقين . ولكن جنونه لم يكن مُطابقا فكان ينظم قصيدته في فترات إفاقته . ولما كانت الفلسفة الواقعية قد ظهرت للوجود في العصور الحديثة كمنظريّة ثورية ، فلا ضرورة لنا لافتراض جنون لوكريتيوس كما تتمكن من إدراك مرامي فلسفته . لقد كانت الآراء الفلسفية تتمشى مع نظام الحكم . فقد رأينا بوليوس ، ببر ، قبل قرن من الزمن ، استخدام الخرافات والأوهام الدينية كأداة سياسية للسيطرة على عقول العامة . والآن نرى لوكريتيوس يدافع عن الفلسفة الواقعية ذلك الدفاع المجيد . وإن طعنه في صحة ادعاءات طبقة العباد وشعبذتها ، تناقلته ألسنة الطبقة الرومانية الحاكمة وسيرته مع الركبان مفندة به أقوال تلك الطبقة ، مؤيدة بذلك مركزها أمام جمهرة السكان .

لقد دخلت أفواج كثيرة من الناس في الأبيكورية . ولكن هؤلاء جميعا كانوا من الأحرار ، وكانوا يؤلفون أقلية ضئيلة بالنسبة لمجموع السكان . وكانت العثرة القائمة أمام تلك الفلسفة أنها لا تفيد الرقيق شيئا . قد يكون من السهل على لوكريتيوس أن يعتمد على بلاغته فيثبت لسامعيه أن بإمكان المرء أن يتحاشى الألم بالقناعة بحياة بسيطة لينة ؛ وأن يعتبر الموت شيئا لا يخيف ؛ وأن يبين أن « حياة المجانين » هي جهنم الحقيقية ؛ ولكن ما فائدة كل ذلك للرقيق ؟ فقد كان على هؤلاء أن يعيشوا عيشة بسيطة للغاية ؛ ولم يكونوا يخافون من الموت المجرد ، وإنما كان أخشى ما يخشونه أن يُلقوا طعاما للأسمالك في برك مياه سادتهم ، أو أن يصلبوا على جذوع الأشجار ويتركوا طعاما للغربان . لقد ألزمت الأبيكورية كل إنسان طائرته في عنقه وتجاهلت المسائل الاجتماعية والاقتصادية . فكانت فلسفة ملائمة للحر الأمين ؛ ولكنها كانت فاسدة بالنسبة لحاجة الرقيق الخائف .

لقد أصبح عالم البحر الأبيض المتوسط ميداناً خصباً لنشر المذاهب الدينية التي تتمتع بحمل مشكلات أكثرية السكان . وأخذت سيبيل وايسيس تعبدان في روما خلال آخر قرنين قبل الميلاد ، وقد اعتنق الإيمان بهما جمهرة الرقيق والأحرار الذين كانوا يؤلفون أكثرية سكان المدن . كان سكان روما الأحرار ، حتى آخر عهد الجمهورية ، ممنوعين من الإيمان بسيبيل وقد حرمت الدولة مرات كثيرة عبادة الالهة ايسيس المصرية . وسيبيل كانت نبيّة أفلون الدلفي وقعت تكهناتها لدى الرومانين موقعا ساميا وعدوا مجموعة كتبها ، تنبؤات عظيمة عن أحوال المستقبل . إلا أنه سمح لهم آخر الأمر بأن يؤمنوا بسيبيل ويعبدوا ايسيس كما يشاءون . وكان من نتائج انتصارات بيمى الشرقية أن جلب اليهود إلى الإمبراطورية الرومانية . وقد كان اليهود يقيمون منذ أيام الفرس في نواحي بيت المقدس كجماعة ثيوقراطية يحكمها كهان باسم الله لهم هيكل للعبادة ولهم فقه ديني حاول مؤلفوه أن يجمعوا بين مصالح الكهنة وآراء الأنبياء في العدل الاجتماعى . وقد هاجرت في عهد خلفاء الإسكندر ألوف من اليهود ، إما لأنهم كانوا من أسرى الحرب أو كجاليات مستقرة ، إلى الإسكندرية وقبرس وبقية أنحاء العالم اليونانى فتكلموا اليونانية واقتبسوا أساليب الفكر اليونانى ودرسوا التوراة باللغة اليونانية واستقروا في البلاد كأبنائها . ولما انتصر بيمى في حروبه توافدت ألوف مؤلفة من اليهود إلى روما وأقاموا بها . وقد حاولت روما أن تحكم اليهود كما حكمت الجاليات الأخرى . فحبت الطبقات الفنية بامتيازات تمتعوا بها أمداً طويلاً . غير أن روما كانت في نظر الطبقات الفقيرة من اليهود لا تريد شيئاً عن آشور وبابل وفارس واليونان . فكانوا يمتدحونها وحشاً أرسله الإله العلى ليلأ الأرض ظلاماً وجوراً ويقضى على الأخيار ولكن اليوم الذى يقضى فيه عليه آت لا ريب فيه وعندئذ تؤسس مملكة الرب على الأرض . لقد جذبت اليهودية كثيراً من الأشخاص الموتورين بسبب هذه النظريات الثورية التي كانت تنشر ، لا بطريق

الكلام فحسب، وإنما بواسطة كتب النبوءات كمجموعة سيئيل مثلاً . وجذبت قوما آخرين لم يكونوا من الثوريين وإنما تعشقوا « الحكمة » اليهودية ، وأعجبوا بالمؤلفات اليهودية وكان من بينهما مؤلفات فيلو الإسكندري الذى وفق بين المنطق الرواقى أو الناموس الطبيعى الذى يسير عليه المجتمع الإنسانى و « فكرة الخير » التى قال بها أفلاطون، وبين « الكلمة » التى جاء فى سفر التكوين أن الله خلق بها العالم . وهكذا نجد أن عقيدة التوحيد اليهودية قد ألبست ثوباً فلسفياً إغريقياً وأن « يهود » قد تطور من إله قبيلة إلى رب المتهورين فى كل مكان .

على أن الثورة الرومانية قد أفقدت البلاد منقداً، بقضائها على أوغسطس - الذى أعاد الأمن فى الوطن إلى نصابه ووسع الإمبراطورية فى الشرق فشملت مصر وجعل حدودها الأوروبية تمتد إلى نهري الراين والدانوب . ولم تعد الإمبراطورية فى زمانه وزمن خلفائه رومانية سوى بالاسم . وكانوا يجندون جيوشهم فى إيطاليا ولكن أولئك الجنود لم يكونوا من أهل روما . وكان شعراء الحضرة أمثال فرجيل وهوراس إيطاليين، كما كان مؤرخوهم أمثال ليفى إيطاليين أيضاً . ولكن هؤلاء جميعاً كانوا ينتسبون إلى روما ويتفنون بأمجادها، مع أنهم فى الواقع كانوا من الطبقة الإيطالية الراقية التى ورثت الحكم البلوتقراطى الرومانى وتمتعت بخيرات الثورة .

إن صحة المؤرخ الذى يبحث المستوى الخلقى فى الإمبراطورية الرومانية تبدو شاقة عسيرة إلى أبعد حد . فأمامنا روايات المؤرخين المعاصرين والنقاد الهجائيين، وهى تصورها لنا كأنها جحيم تتأجج نيرانه ، وبؤرة تعاسة وفساد أنقذت المسيحية العالم من شرورها . وأمامنا من الجهة الأخرى الفقه الرومانى ومفاخر المدنية الرومانية من طرق معبدة وحمامات وجسور وقناطر وأقنية المياه ومؤلفات الفلاسفة من سينيكا إلى ماركوس أورليوس ، وهذه جميعها تصور لنا البلاد فى ذروة المدنية . وعصر النور الذى رجعت الإنسانية بزواله القهقرى إلى عهود « البربرية » . ليس فى تاريخ البشرية

عهد كان حسناً للغاية أو قبيحاً للغاية كما يدعى رجال المنطق . وقد ورثت روما المدنية اليونانية بعد أن تسرب إليها الفساد . وكانت إمبراطوريتها منذ نشأتها تتألف من جماعات من السكان أكثرتهم من الأرقاء وعلى ذلك فحياتها الاجتماعية كانت متممة بالصفات الملائمة لحياة مجتمع الرقيق . وكان الرقيق في هذا المجتمع كثيراً جداً؛ ولسنا نعرف في التاريخ القديم أن مجتمعاً - سوى المجتمع الروماني - كانت ثلاثة أرباع سكانه عبيداً ومتاعاً يباع ويشترى للربح الرابع . لقد تمتع الإيطاليون الغالبون بخيرات الأمبراطورية بطمع وشراهة كما يتمتع المكتشف بكنز يعثر عليه تحت الأرض . وقد أخذوا عن اليونان رذائلهم دون الفضائل ، واقتبسوا عنهم فلسفتهم عارية عن الأسلوب والأصول .

ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد امتلأت ولائم السكر بالقيثات ليعود المدعوون إلى احتساء الخمر ثانية . وأقيمت المبارزات الوحشية في كل مقاطعة من ممتلكات الأمبراطورية . وانتشرت الرواقيّة الزائفة التي جعلت من كانوا المتعصب قديساً، ومن بروتوس الظالم بطلاً . على أن هذا لا يعنى أن كل سكان الأمبراطورية أو جلهم خلعوا العذار . وهذا أمر بين : ففي كل مجتمع إن لم تقم أغلبية السكان بصالح الأعمال لا تطيب الحياة ولا بد أن يختل النظام الاجتماعي . ويعتبر نظام العمل اليومى خير تأمين ضد اللهو والعبث المفرط . وكان يقوم بالأعمال في الأمبراطورية الرومانية الرقيق أو العبيد المحررون، ولكن أعمالهم آتت أكلها كاملاً غير منقوص . إن إخضاع الملايين من الناس من مختلف الملل والجنسيات والنحل واللغات لنظام سياسى واقتصادى واحداً زال الفروق القبلية، والحدود السياسية القديمة، وقضى عليها قضاء مبرماً؛ فلم تقم له بعد ذلك قاعة . وقد ظهرت الآن ثمرة من ثمرات أهداف الفلسفة الرواقية هي الأخوة الإنسانية التي أصبح وجودها حقيقة واقعية . وإننا نورد حادثة وقعت في سنة ٦١ بعد الميلاد للتدليل على أن السكان الرومان الذين كانوا يعيشون عائلة على الحبوب المستوردة

من أنحاء الأمبراطورية، والذين أفسدتهم حياة الكسل والفراغ، كانوا يشعرون شعوراً إنسانياً . لقد قتل عبد سيده الذى كان رئيس المدينة . فأمر مجلس الشيوخ تمشياً مع عادة رومانية قديمة بإعدام جميع عبيده الذين يبلغ عددهم حوالى الأربعمئة شخص . فهجم جمهور غفير من السكان المسلحين بالحجارة ومشاعل النيران لتخليص المحكومين واستمر القتال عنيفاً إلى أن حضرت فرقة من جنود نيرون وملأت الشوارع بأفرادها وحصرت السكان بسدها عليهم الطرق والممرات إلى أن نفذ الحكم .

لقد توافر كثير من حسن النية فى الأمبراطورية الرومانية . ولكن النظم السائدة حالت دون تنظيم الحياة الاجتماعية . وقد كان أصحاب العقول النيرة يعلمون أن أساس مجتمعهم كان فاسداً ولكنهم كانوا يشعرون بالعجز عن إصلاحه . إن فلسفة سنيكا تمثل لنا العقبة الكأداء التى اعترضت المدنية القديمة . وقد كان هذا الفيلسوف فوق مستوى معاصريه من وجهة عقله الراجح وتفكيره العظيم . وكان مدى أبحاثه انسكلوبيديا متشعباً . فكتب مجلدات كثيرة فى العلوم الطبيعية وعلم الأخلاق والإلهيات وخاصة فى أصول كتابة الدراما . وكان شديد الإيمان بالعقائد الرواقية ؛ وأعلن أن العالم وطنه ؛ وحمل على المبارزات الوحشية التى تودى بحياة الناس ؛ وجاهر بطلبه أن يعامل الرقيق ليس باللطف فقط ، وإنما بالاحترام أيضاً . ولكن كل هذا كان حبراً مسطراً على قصاصات من الورق فحسب . فقد كانت حياته حياة محترف يسير مع التيار . وقد جمع أموالاً كثيرة من الهبات الأمبراطورية ومن فوائد أمواله . وقد كان معاملاته المالية من مسببات الثورة التى قام البريطانيان بقيادة بوديكا . وكان مستشاراً لنيرون وهو الذى أشار على هذا الأمبراطور بقتل والدته . ولعل أبحاثه الرواقية كانت محاولة منه للتخلص من مشكلات هذه الحياة التى عجز عن التغلب عليها . وأخيراً طلب نيرون إليه أن ينتحر ففعل طائماً مختاراً . وقد ظل أميناً لآخر لحظة من حياته : فقال لأصدقائه إنه لم يبق لديه مال يوصى لهم به فقد صودرت أمواله

جميعها ولذلك فقد ترك فيهم أشرف ما كان يملكه وهو الشيء الوحيد الذي بقى له ذلك هو « شعاره في الحياة ومثله العليا ». والظاهر أن الاختلاف بين العلم والعمل لم يؤثر في نفسه . وكان المبشر الثاني بالرواقية هو إبيكتيتوس وكان عبداً محرراً عاش في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني بعد الميلاد . وكان يقول بالمبدأ السكينيكي المتعلق بقناعة النفس . ويحمل على كل من يحاول أن يغير شيئاً من البيئة التي يعيش فيها الإنسان .

كان من غير الميسور وقوع تطور في المجتمعات الرومانية خلال المدة التي استمرت فيها حروب النصر تلك الحروب التي زودت البلاد بالعمل الرخيص . إن فتح بريطانيا في القرن الأول بعد الميلاد ، والقضاء على الثورة اليهودية فيما بين سنة ٦٦ و ٧٠ م ، والحلمة الداشية بقيادة تراجانس ملأت الأسواق بالأسرى ومدت أجل النخاسة . وكانت المبارزات الوحشية منتشرة انتشاراً كبيراً . وقد احتفل تراجانس بانتصاره الداشي احتفالاً رائعاً دام أربعة أشهر ، يقال إنه كلفه إهلاك عشرة آلاف رجل وأحد عشر ألف حيوان . وقد وضع حكم تراجانس الاستعمار الروماني على مفرق الطرق . فقد انتهى الاستعمار بسفك دماء كثيرة في المشرق بسبب ثورة يهودية ثانية وقعت عند غزو تراجانس لپارثيا ؛ ثم إن خليفته هادريانوس رأى إلغاء سياسة الفتوحات والتوسع الروماني وحصر جهوده في إجراء الإصلاحات الداخلية .

لم يكن هادريانوس رومانياً ولا إيطالياً ، وإنما كان كتراجانس اسبانياً وصل إلى أعلى الرتب العسكرية بشجاعته وبسالته ، وكان فوق ذلك إدارياً حصيف الرأى في الشؤون السياسية . وفي أيامه نشر الرواقيون مذهبهم . وقد أدى وقف الفتوحات إلى ارتفاع أثمان الرقيق وقد قام هادريانوس ومستشاروه - دون ما كبير معارضة - إلى اتخاذ إجراءات حاسمة لحماية الرقيق . فقد حظر على أصحاب العبيد قتلهم أو بيعهم ليستخدموا في أمور تتنافى مع الأخلاق الحسنة أو لمعارض المبارزة ؛ وألغيت السجون

الريفية الموبوءة التي كانت تنقص بالرقيق . ومن الإصلاحات الأخرى كان: تعليم الأولاد الفقراء في إيطاليا مجاناً (وقد بدى بهذا الإصلاح في عهدى نرفا وتراجانس ولكنه عمم في عهد هدريانوس) ؛ والحد من سلطة الأبوة التي يمارسها رب العائلة ؛ وتحصيل الضرائب من الشعب مباشرة وليس بواسطة الملتزمين ، والبدا في تدوين القانون الروماني الذي أصبح فيما بعد خير تراث خلقتة الامبراطورية الرومانية للمدنية .

ولكن بعد كل هذا بقيت الامبراطورية الرومانية تتألف من مجتمع قوامه الرقيق . ولم تف الإصلاحات الرواقية بالغاية وجاءت متأخرة . وكانت شهادة الرقيق تؤخذ تحت الجلد والتعذيب ، وكان ينفذ فيهم حكم الموت صلبا . وقد أدت كثرة الرقيق في إيطاليا وصقلية إلى أمرين خطيرين : خراب المزارع والممتلكات ، ذلك لأن فلاحه الرقيق كانت رديئة ؛ وإلى نضب المعين الذي كان يورد إلى الامبراطورية جنودها . ومنذ أيام هدريانوس أصبحت الجنود تجمع من المقاطعات التي ترابط فيها . وأخذت امبراطورية الرقيق تحتضر . ولكن الرجال الذين عملوا على إصلاحها لم يكونوا يشعرون بما تركته تلك الأيام من تراث الآسى والبغضاء التي تأصلت في نفوس الأجيال التالية . وقد تغاضى الفلاسفة والفقهاء عن الاختلافات العنصرية ولكنهم لم يتغاضوا عن الفروقات الطبقيّة ، وهؤلاء الأقوام لم يتجولوا في مدن البحر الأبيض المتوسط يستمعون إلى شكاوى الناس الذين أثرت فيهم النبوءات اليهودية . وقد كان منع هدريانوس لختان الصبيان وإقامته مستعمرة رومانية على أنقاض مدينة القدس القديمة هو الذي أهاج عليه سخط اليهود فناروا ثورتهم الثالثة والأخيرة ضد روما التي أزعجت الامبراطورية ثلاث سنوات متتالية وجرى الدم أنهاراً وملأت النخاسة بالرقيق وشتت اليهود من فلسطين .

لقد حدث في القرن الثاني ب م . ، أن انتشرت الدعاية المسيحية في الامبراطورية الرومانية . ولم يبشر المسيحيون الأولون بعقائد أخلاقية جديدة . وإنما عرض هؤلاء

أنفسهم لعداء الدولة القائمة بسبب تبشيرهم بقرب نهاية النظام السائد آنئذ « وقيام مملكة الله على الأرض ». وفي هذا كانوا أشبه الناس باليهود الذين كانوا ينشرون نبوءات وتكهنات ضد الحكم القائم . إلا أن القضاء على الثورات اليهودية الثلاث وضع حداً لنشر تلك النبوءات . فأصبح الناس الذين كانوا يميلون إلى اليهود في حكم نيرون مسيحيين في حكم هدريانوس . وكلا اليهود والنصارى اعتبروا الأمباطورية الرومانية دولة الشيطان وانتظروا هلاكها على يد الله ومسيحه . غير أن اليهود حملوا السلاح ثلاث مرات في وجهها ولكنهم كانوا الأخسرين أعمالاً . وقد اعتبر المسيحيون أن ماحل باليهود كان بسبب تنكيلهم بالمسيح (عليه السلام) على يد يولانيوس . وقالوا إنه سيبيعت ويحكم الأرض بالعدل .

وقد نظرت دولة الأمباطورية إلى المسيحية نظرة عداوية فاعتبرتها « خرافة دينية فاسدة » ومؤامرة خطيرة لقلب نظام الحكم . وعلى ذلك فقد ترددت السياسة العامة تجاهها بين اللين والشدّة المتناهية في معاملتها . وليس بعجيب أن نرى الأمباطور ماركوس أوريليوس الرواقى (سنة ١٦١ - ١٨٠ م) يسرف في اضطهاد المسيحية ، بوصفه أمباطوراً قد ورث سياسة الإصلاح عن هدريانوس وزاد فيها . فحاول مثلاً أن يقضى على فظائع احتفالات المبارزة . أما من حيث الرأى والتفكير فقد كان أقل كفاءة من هدريانوس ودون مستوى أتباع المدرسة الرواقية . فقد اعتنق الدين السائد كما فعل جميع الرواقيين ولكنه فوق ذلك اعتقد بصحة دينه وعقيدته . ويبدو لنا من أعماله أنه كان « ذا عقل دينى لا علمى » . وقد شكر الله لأنه « لم يضع وقتاً كبيراً فى قراءة التاريخ أو دراسة المنطق أو النظر فى السموات » . وقال « إن العالم بدون آلهة وبدون عناية إلهية لا يصاح لأن يعيش المرء فيه » . ومع ذلك فإنه لم يضطهد المسيحيين لأسباب دينية . إن كراهيته لأهداف الأيكوريين الذين كانوا

خارجين على دين الدولة ، لم تمنعه من أن يفتدق على مدرستهم في أثينا الهبات المالية كما أغدقها على مدارس الرواقين والمشاين وأتباع أرسطو .

لقد قدر ماركوس بحق أن الأبيكوريين كانوا جماعة مثقفين لهم ملء الحرية في التمسك بأرائهم ، وإنهم لم يكونوا خطراً على جماهير العامة يسممون أفكارهم بنظريات في الحكم جديدة . أما الحال مع المسيحيين فكانت على النقيض من هذا : « كان معلومهم على الغالب حاكمة وخصافين ؛ وكان أتباعهم من الجهلة والعبيد ؛ فأى حق لهم في أن يتحكموا بأية آراء ما ؟ » وقد اعتبر ماركوس تمسكهم بعقيدتهم ضرباً من العناد . لقد أوجت الظروف السياسية والطبقية إليه سياسته تجاههم . وإنك ترى أنه كان هناك مبرر لاضطهاد المسيحية ؛ إذا علمت أن الطبقة الحاكمة اعتبرت أعمالهم ثورة دينية يقوم بها الرقيق وقد تنقلب إلى ثورة سياسية في أية لحظة ملائمة .

أما المسيحيون المثقفون فقد حاولوا أن يظهروا دينهم بمظهر آخر . كانوا يشعرون بتخوف الدولة منهم ولذلك أحجموا عن القيام بأي عمل يُشتم منه رائحة مقاومة الدولة الحاكمة . وإن من يقرأ العهد الجديد يتبين هذا الاتجاه فيه . وقد صرح جوستن وترتليان بأنه ليس من مناهجهم أن يناصبوا الدولة العدا ، لا سراً ولا علانية . وقد زاد ترتليان على ذلك قوله : « يستطيع المسيحيون أن يعملوا الشيء الكثير في ليلة واحدة وبعدد قليل من مشاغل النار فيما لو قابلوا السيئة بمثلها » . وعلى الجملة فعندما زاد عدد المسيحيين ، وأصبحوا من أصحاب الثراء ، وانقلبت الوظائف الأسقفية من نخوة إلى حقيقة ، واتسع نطاق الخلاف بين الألف أمل وأمل لفقراء المسيحيين ، وبين قادة الدين ورؤسائه . وكان على الكهنة لكي يمتنعوا انفضاض أتباعهم من حولهم أن يدفعوا لهم شيئاً من المال وأن يسمحوا بنشر نبوءات يوحنا الملهية التي تنذر بخراب يأتى إلى روما قريباً . هذا مع أنهم أنفسهم لم يكونوا يرغبون في خراب الأباطورية وإنما كانوا يؤملون اعتناقها لديهم .

وكانت آمالهم مبنية على أسس قديمة . فالمدنية القديمة كانت مهدمة الأركان . والجيوش الإمبراطورية لم تعد رومانية سوى بالاسم . وكانت تحارب من أجل المرتب والغنائم وكان أفرادها يتمتعون بخيرات البلاد على حساب السكان المدنيين . وقد زادت الضرائب المفروضة ، بينما هبطت إيرادات الإمبراطورية الحقيقية . وكثرت الثورات والاضطرابات في كل مكان . وقد حدث أن قامت في غابات أواسط أوروبا في عين هذا الزمان محالقات جديدة بين البرابرة غايتها الضغط على حدود الإمبراطورية .

وفي منتصف القرن الثالث تحطمت تحصينات الراين والدانوب وغزا القوط وغيرهم من الأمم الجرمانية حدود الإمبراطورية وبلاد اليونان وآسيا الصغرى وإيطاليا أيضاً . وقد تفككت الإمبراطورية أمام هذا الضغط الشديد . لقد جلس على العرش خلال هذا العهد بعض الأمبراطرة العسكريين مثل أورليانوس (٢٧٠-٢٧٥م) ووقفوا لإرجاع حدود بلادهم إلى ما كانت عليه سابقا بواسطة الجيوش التي حشدوها من البرابرة المتطوعين؛ إلا أن العالم الروماني لم يعد منذ أيامهم يدين بالولاء لرئيس واحد يحكمه . وقد شعر حكام الإمبراطورية بالحاجة إلى دين جديد يجمع شتات البلاد التي مزقت وحدتها هجمات البرابرة من الخارج وأنهكت قواها الحروب الداخلية وانتشار البؤس والشقاء بين السكان . وقد شجع الأمبراطرة المثرائية - وهي ديانة فارسية قديمة - فأصبح الأمباطور بموجبها إلها شرقيا « برتبة الإله الشمس ودعى في الشؤون الرسمية بالشمس المنيرة . وتعين في اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر عيداً لميلاده ، وهو اليوم الذي تتجه فيه الشمس إلى جهة الشمال بعد أن تكون قد بلغت أقصى انقلابها نحو الجنوب . وكان سكان الأقاليم المختلفة مطلق الحرية في عبادة آلهتهم الخاصة دون معارضة من لدن الحكومة الرئيسية . ولكن كانوا كلهم مجبرين أن يشتركوا في تقديم القرابين الرسمية لرأس الدولة باعتباره إلهاً . وبدخول هذا الشعور الشرقي في الإمبراطورية انقضى زمن الجهاد في سبيل الديمقراطية - ذلك الجهاد الذي تتبناه

قرونا عديدة في تاريخ الإنسان القديم - وقضى على الديمقراطية بفوز الحكم الاستبدادى . وكانت هذه الديانة تشبه الديانة المسيحية من وجوه كثيرة . وفي سنة ٣١٢ م، قرر قسطنطين ، وكان منهمكا في محاربة أخصام كثيرين - أن يعتمد على المسيحيين ويضمهم تحت لوائه . وبذلك تخلص من أخصامه واحداً إثر واحد، إلى أن قضى عليهم جميعا وأصبح الحاكم الفرد المطلق في الأمبراطورية ؛ وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الدولة الرسمية .

إن على من يزعم أن المسيحية أصاحت الأحوال الاجتماعية في العالم الرومانى أن يقرأ تاريخ الأمبراطورية في القرن الرابع . ولعل فصول كتاب جبون في انحطاط وتفكك الأمبراطورية الرومانية ، خير مرجع في هذا الصدد . فإذا كان الأمبراطرة الوثنيين أفضل بعض الشيء من قُطَاع الطرق فإن الأمبراطرة المسيحيين الأولين لم يكونوا ليختلفوا عن هؤلاء في شيء . ويزعم الكثيرون أن المسيحية مع أنها لم تلغ الرق قد حسنت معيشة الرقيق . لكن هذا الزعم فاسد . إن انتشار الرق بدأ يتقلص قبل اعتناق الدولة للمسيحية لأسباب اقتصادية محضة . وقد توقف استيراد الرقيق بتوقف الفتوحات الرومانية .

لقد دالت الأيام التى كان يعيش فيها الإيطاليون وسكان الأقاليم عيشة ليننة ناعمة يعتمدون فيها على عمل الرقيق الإجماعى . وقد ظلت مساحات شاسعة من الأرض بوراً لا فلاحه فيها ، وتغير الوضع الاقتصادى كلياً . فكان لابد من وضع نظم جديدة كيما تثمر من جديد عوامل الإنتاج . وقد كان تلك النظم هى المزارعة - وهى عقد يلتزم الفلاح بموجبه الإقامة على الأرض وفلاحتها في مقابل خدمة يؤديها إلى صاحب الأرض أوفى مقابل قسم معين من المحصول يسلمه إليه . وقد تم الانتقال من دور الرقيق إلى دور المزارعة قبل أيام قسطنطين . إلا أن هذا الأمبراطور كان أول من اعترف بهذا النظام وسن قانوناً لتطبيقه . وقد أبقى على احتفالات المبارزة واللعب

بالسيف . وألغى لأسباب دينية عقوبة الصاب ولكنه زاد في عدد الأمور التي تعتبرها الدولة جنايات ضدها وضد السكان .

لقد وجد بين المسيحيين من اعتبروا الاعتراف بالمسيحية كدين للدولة خروجاً على تعاليم ذلك الدين . لقد رفع ملاحدة (الدوناتيين) في شمال أفريقيا - تؤيدهم ألوف العبيد الآبقين وجوع الخارجين على الدولة - صوتهم بالاحتجاج قائلين : « ما شأن الأمبراطور بالكنيسة ؟ » وكانوا لذلك أول طائفة مسيحية اضطهدتها الكنيسة الكاثوليكية . إلا أن احتجاج جمهرة السكان جاء عن طريق سلبية . فقد كان هؤلاء يأبون مد يد المساعدة لإحياء عهود الدولة البائدة في الحياة الدنيا . لقد كان الزهد أحد صفات المسيحية الأولى البارزة وقد كانت ظروف الحياة في الأمبراطورية الرومانية آنئذ ملائمة لانتشاره .

عجلت كل هذه الأحداث والحوادث في مجيء النهاية المرتقبة . فقد التجأ رعايا الدولة إلى الصحراء هرباً من الخدمة العسكرية فاضطرت إلى استخدام البرابرة في سلك جنديتها؛ وكانت النتيجة أن هؤلاء الخدام أصبحوا السادة في الأمبراطورية . وقد كان قصر قسطنطين مملوءاً برجال الحاشية من الأفرنسيين . وفي سنة ٣٦٣ م .، وقع جوليانوس آخر أمبراطور وثني صريعاً وهو يقود جيشاً أغلبه من القوط يحارب فيه في بلاد فارس . وفي سنة ٣٧٦ م . قطعت جموع كبيرة من القوط نهر الدانيوب . وفي خلال سنتين بعد ذلك كسروا الجيش الأمبراطوري في معركة (ادريانوبول) واستقروا في داخل بلاد الأمبراطورية بعدئذ ، وأصبح الخلاف منذ ذلك الحين على السلطة بين رؤساء القبائل الذين كانوا يدينون بولاء اسمي للأمبراطور . وجاء حصار روما وفتحها على يد (الارل) وجيشه القوطي في سنة ٤١٠ م إيداناً بموت العالم القديم وبداية العصور المظلمة . وقد بكى جيروم من ديرته في بيت لحم عظمة المدينة البائدة . وحاول أوغسطين

في كتاباته أن يعزو خراب روما إلى الوثنية ويبرئ من ذلك . وكان آخر
شاعر وثني وصف الكارثة هو روتوليوس ناماتيانوس : فقد رأى ، حين عودته
إلى موطنه بلاد الغالين بطريق البحر ، وكان ذلك بعد مرور ست سنوات على سقوط
روما ، جزرَ البحر الأبيض المتوسط تعج بألوف الرهبان الذين لم يحرکوا
سأ كنأ لسقوط الامبراطورية فبكى واستبکی . قال : « ليت البلاد اليهودية لم تفتح أبداً
من قبل جيوش بمبي ! تنتشر العدوى عندما تعالج بالشرط ؛ إن الجنس المغلوب
يقضى على حياة غالبیه . »

الفصل الثامن

العالم العربي قبل الإسلام

وصف ييفان الأحوال في آسيا الغربية فقال : « إن الجزء بسيط من كل إقليم قيمة حقيقية . أما الباقي فأرض بلقم : هي خراب الصحارى وخراب الجبال ؛ تقع بينهما مراتع المدينة القديمة وتمتد إلى أحواض الأنهار العظيمة وسلاسل الجبال القريبة من البحر . وقد أوجدت طبيعة الأرض في هذه الأقاليم فوارق أبدية بين مزارعي السهول والهضاب المتمدين وبين سكان الجبال والصحارى المتوحشين ، كان من نتائجها أن الممالك العظيمة التي بسطت سلطانها على تلك الديار لم تكن لتستطيع أن تمتد بذلك السلطان إلى ما وراء حدود الأماكن التي ينزلها المتمدون ؛ وكانت الصحراء والجبال تؤلف عالماً آخر بالنسبة إلى تلك الممالك ، ولم يكن من اليسير عليها أن تصل إليه وتنشر حكمها في ربوعه . وكان ذلك العالم مصدر قلق مستمر للممالك المتاخمة له ، ترحف منه إليها جموع كبيرة من الغزاة في الفرص المؤاتية فتتنقض على السكان وتعمل فيهم السيف والنار وتنزل بهم القتل والدمار . وقد عرفت الجبال والصحارى منذ القديم بأنها ملجأ يأوى إليه المجرمون العابثون بالأمن والخارجون على النظام . وكان النزاع والخصام بين حكومات الملوك وقبائل الصحارى قائماً أبداً^١ . فكانت الصحارى تقذف برجالها إلى الأماكن المأهولة بالسكان ، تارة عن طريق الغزوات التي تستهدف النهب والعودة بالأسلاب ، وطوراً عن طريق الهجرة المنظمة والاستيطان إلى جانب السكان

1. E. R. Bevan, House of Peieucus, Vol. I, p. 21

القدماء والاندماج بهم ومشاطرتهم حسنات المدنية . وقد عدد المؤرخون خمساً من الحجرات الكبيرة خرج بها العرب من جزيرتهم - منذ فجر التاريخ المدون - لأسباب طبيعية أو اقتصادية ، دفعاً للظلم والنصب والخمسة ، أو لأسباب سياسية ، وانتشروا في أماكن معينة خارج الجزيرة . وأطلق ، جغرافيو المؤرخين ، على تلك الأماكن مع جزيرة العرب اسم « العالم العربي » أو « بلاد العرب » . وكانت بلاد العرب تشمل - في عرفهم - الأراضى الواسعة الواقعة في آسيا الغربية الجنوبية التي لم تكن ضمن مناطق أحواض الأنهار العظيمة والتي ظل سكانها زمناً كبيراً خارج دائرة التطورات الاجتماعية والثقافية . ولما كان بحثنا هنا يتعلق بالعرب من حيث أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية لذلك فسوف يشمل جميع البلاد التي افتتحتها العرب وأقاموا فيها علاوة على الجزيرة العربية .

لقد قطن هذه البلاد ، منذ أيام ما قبل التاريخ ، شعوب من العرق العربي ، ونعني بالعرق هنا « الجماعة الاجتماعية التي تغلب قوة امتصاصها للعناصر الأجنبية المندمجة بها وتطغى على كل أثر تتركه تلك العناصر في الحياة العامة محاولة منها في صبغ السكان بألوانها الخاصة . » كما يقول سير فلندرس پيتري . وكانت تلك الشعوب تقيم بين مدينتين : مدينة وادى النيل في شمال أفريقيا ، ومدينة ما بين النهرين في غربى آسيا ، في معزل عن كل اتصال بالعالم الخارجى . وقد اكتسبت في عزلتها صفات خاصة بها ميزتها عن بقية سكان العالم . وتلك الصفات نشأت من مقتضيات حياة اقتصاد البداوة التي تغاير حياة المدنية والاستقرار .

يقسم مؤرخو العرب السكان في العالم العربى القديم إلى قسمين : قبائل قحطان ، وقبائل عدنان . ويقولون ان قحطان سكنت جنوب الجزيرة وكانوا يعرفون باليمانين ؛ وأما عدنان فسكنوا شمالها وكانوا يعرفون بالمعديين . قال ابن هشام : « فن عدنان تفرقت القبائل من ولد إبراهيم بن إسماعيل عليهما السلام ؛ فولد عدنان رجلين : معد

ابن عدنان ، وعكَّ بن عدنان . فصارت عك في دار اليمن ، وذلك أن عكاً تزوج في الأشعرين ، فصارت الدار واللغة واحدة . والأشعريون بنو أشعر بن يعرب بن قحطان وولد معد بن عدنان أربعة نفر : نزار بن معد ، وقضاعة بن معد ، وقنص بن معد ، وإياد بن معد . فأما قضاعة فتيامنت إلى حمير بن سبأ . وقالت اليمن : قضاعة بن مالك ابن حمير .^١ وقد كانت هنالك فروق كبيرة في اللغة والثقافة والعادات الاجتماعية تميز عرب الممالك الجنوبية المتحضرين عن إخوانهم أبناء القبائل البدوية التي سكنت شمال الجزيرة . وبلغت تلك الفروق حداً جعل العلماء يُرجعون لغة الجنوب والآكادية والحبشية إلى فصيلة واحدة ، تقابلها فصيلة أخرى ، مستقلة عنها تماماً ، وضموها فيها لغة الشمال والعبرية والآرامية . ولم يكن اختلاف الثقافة والعادات الاجتماعية أقل من اختلاف اللغة . فقد نقل الرحالة اليوناني - سترابو - عن الجغرافي الإغريقي (إيراتوستينس) أن أربعة ممالك كانت قائمة في جنوب الجزيرة في حوالي سنة ١٩٦ ق م . هي مملكة (المينيين) الذين كان موطنهم في شواطئ البحر الأحمر ، ومملكتي (السبئيين) و (الكتبانين) وكانتا تمتدان عبر المضائق إلى خليج العرب ، ومملكة (الكتراموتيين) وقد قطعت تلك الممالك شوطاً بعيداً في مضمار المدنية ، بينما كان سكان الشمال يعيشون عيشة بداءة ويعتمدون في حياتهم على نتاج الحيوانات .

والواقع أن سكان جزيرة العرب كانوا حتى أيام الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يتألفون من جماعات إقليمية أكبرها الشعب - وكان في الجزيرة شعبان : بنو قحطان ، وبنو عدنان - ثم القبيلة ، وجمعها القبائل ، والحي . قالوا : « والفرق بين الحي والقبيلة أن الحي لا يقال فيه بنو فلان نحو قريش وثقيف ومعد وجذام ، والقبائل يقال فيها بنو فلان مثل بني تميم وبني سلول . ومن القبائل الأرحاء ، وهم القبائل التي تستقل كل

منها بنفسها وتستغنى عن غيرها . وبعد القبائل تأتي المهاثر ثم البطون ثم الأخاذ ثم الفصائل ثم العشائر . وكانت هذه الجماعات مرتبطة ببعضها ، ليس بحكم نظام سياسى متقن الحبك ، وإنما بشعور متوارث للوحدة هو اعتقادهم أنهم من دم واحد مشترك . وكان الحى هو الوحدة الاجتماعية وكان أبناء الحى الواحد يقال لهم «الأهل» أو «القوم» . وإنما لنتلمس الدليل على هذا الأمر فى قواعد الآثار للدماء المهذورة التى تبين فى بلاد العرب ، كما توضح عند شعوب أخرى كثيرة ، حدود درجات القرابة . إن جماعة الأهل هى الفئة التى لا تطبق فيها قواعد الآثار . فإذا قتل رجل ما أحد أفراد حية فإنه لا يجد من ينصره ؛ فإما أن يقتله قومه ، وإما أن يلتجئ إلى جماعة أخرى يحتوى بها . أما إذا كان القاتل والمقتول من قبيلتين مختلفتين فإن الأخذ بالآثار يصبح لازماً على أفراد حى المقتول فيحق لكل منهم أن يقتل من يصادفه من أفراد قبيلة القاتل . ولعل أكثر روايات العرب وقصصهم فى الجاهلية تدور حول الأخذ بالآثار والحروب وأيامها . إن قواعد الأخذ بالآثار تقرر أن «قوم» الرجل هم عصبته الذين يتعصبون له عند المطالبة بدمه المهذور . ولم تكن هذه العصبية يتألفون من الأسرة أو الدار أو ذوى القربى فحسب ، وإنما كانت تشمل كل الناس الذين يجمعهم اسم القبيلة العام . ولكى نعرف ما إذا كان رجل ما ملزماً بالأخذ بالآثار أو معرضاً لأن يقتص منه ، يكفى فى الحالة الأولى أن نعرف أنه ينتسب إلى قبيلة المقتول ، وأنه ينتسب إلى حى القاتل فى الحالة الثانية . وعلى ذلك فإن القرابة ، فى عرف العرب ، كانت تعنى المساهمة فى الدم المشترك الذى يجرى فى عروق كل فرد من أفراد القبيلة أو الحى ، وبتعبير آخر : كانت القرابة هى الرابطة القبلية التى تضم جميع أفراد الجماعة الواحدة ، وتلزمهم بواجبات عامة ، وتحملهم مسؤوليات معينة لا يستطيع أحد من أبناء القبيلة الخروج عليها . ويحدثنا التاريخ أنه كثيراً ما اتحدت عدة قبائل وأحياء فى مجموع أكبر وتحالفت على أمر ما ، ولكن

اتحادها لم يدم طويلاً لأنها كانت إذا زال المفتضى عادت سيرتها الأولى وتفرقت قبائل وأحياء مستقلة .

وكانت أساليب المعيشة وأسبابها عند الجماعات من سكان جزيرة العرب مختلفة ومتباينة : فقد كان فريق منهم يعيشون عيشة بداءة - يرعون الحيوانات ويقتاتون بلبنها ؛ وفريق آخر كانوا يعيشون عيشة استقرار في المدن والقرى ويعتمدون في حياتهم على الزراعة ؛ وفريق ثالث اتخذوا التجارة سبباً لمعيشتهم كما كان يفعل سكان مكة والطائف . وكانت القبيلة تضم علاوة على أبناء الدم الواحد فئات أخرى من الناس : « فكانوا يعتبرون الصريح من أبناء الحى فيحمونه وينزلونه منزلة الجار وإن عظمت جنايته وضعفت عزوته . »

وكذلك كان في كل حي عدد كبير من الموالى الذين كانوا إما أرقاء أعتقوا ، أو زلاء من أحياء أخرى هجروا قومهم لأمر ما وأقاموا في كنف قبيلة أخرى . وكان أبناء الإماء يعتبرون كأصحابهم بمنزلة العبيد الأرقاء إلا إذا أنجبوا وأتوا أمراً عظيماً . وكانوا يعتبرون الدخيل « جاراً » يتعهدون حمايته ويحلفون على ذلك ومن هنا سمي الجار حليفاً . وكان لهؤلاء العيال حقوق الإرث وواجبات معينة في الأخذ بالتأثر ، كلها ناشئة عن أمر اعتبارى هو أنهم جميعاً تربطهم بالقبيلة التى يعيشون في كنفها مشاركة في الدم . حتى إنه عند ما كانت تتحالف قبيلتان أو أكثر فيتعاقدون على الموت ، أى يأخذون على أنفسهم التأثر لبعضهم البعض ، كانوا يقومون باحتفالات ومراسيم معينة توحى بأنهم خلطوا دماءهم بعضها ببعض . وكانت هذه المراسيم تبدأ بالآيمان التى أسموها « القسامة » . وإليك أمثلة على ذلك ملخصة من التواريخ العربية . قالوا : اجتمع بنو عبد مناف فأخرجت لهم أم حكيم البيصاء بنت عبد المطلب جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند باب السكبة وقالوا : من تطيب بها فهو

منا ! ثم غمس القوم أيديهم فيها وتعاهدواهم وحلفواهم ومسحوا الكعبة بأيديهم
توكيداً على نفوسهم . وتطيب مع بني عبد مناف بنو زهرة وبنو أسد بن عبد العزى
وبنو تميم بن مرة وبنو الحارث بن فهر . فالمطييون خمس قبائل من قريش . وتعاهد بنو
عبد الدار وأحلافهم - وهم بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جح وبنو عدى - على أن
لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً وأخرجوا جفنة مملوءة دماً، من دم جزور ونحروها،
ثم قالوا: من أدخل يده في دمها فلحق منه فهو منا، فجعلوا يضعون أيديهم فيها ويلعنونها
فسموا لعنة الدم (ويقال لهم الأحلاف أيضاً) .

ولما تعاهد الفريقان (المطييون ولعنة الدم) اتفقوا على أن تكون حجابة الكعبة
واللواء والندوة لبنى عبد الدار ، والسقاية والرفادة لبنى عبد مناف ، ودخلوا دار الندوة
وتعاهدوا وكتبوا بينهم كتاباً : « باسمك اللهم ، هذا ما تحالف عليه بنو هاشم ورجال
عمرو بن ربيعة من خزاعة على النصره والمؤاساة مابل بحر صوفة ، وما أشرقت الشمس
على كبير ، وهب بفلاة بعير ، وما أقام الأخشيان واعتمر بمكة إنسان » .

إن خلط الدماء الذى ينتج عنه أن يصبح شخصان أخوين أو أن يصبح قريبان
حليفين ، وإن نظام الولاء ، الذى يعتبر بموجبه الجار ابنًا حقيقياً للقبيلة ، هما بينة قاطعة
على أن العرب القدماء لم يؤمنوا بأى نظام اجتماعى لم تكن أركانه القرابة والعصبية .
والواقع أن العرب القدماء كانوا يتجمعون ويتفرقون تحت تأثير قاعدتين : الأولى أنه
لم يكن ثمة رابطة صحيحة يملكون تحت تأثيرها غير رابطة الدم ؛ والثانية أن غاية المجتمع
كانت ترمى إلى التوحيد بين الناس لينتظموا صفوفاً للحروب الهجومية والدفاعية على
السواء . ويتبين من هذا أن قواعد القرابة كانت اعتبارية إلى حد بعيد ؛ فالصريح
والجار والحليف لم يكونوا فى الواقع يشاركون أبناء الحى فى دمائهم الحقيقية ، ولكن
التقاليد اعتبرت أنهم يشاطرونهم ذلك : وهذا ما جعلهم يتمتعون بمثل الحقوق التى

يتمتع بها أبناء القبيلة الحقيقيون ، ويتحملون أعباء الالتزامات التي تقع على عاتق هؤلاء .

ويتضح جلياً للباحث أنه في مجتمع شيدت أركانه على هذه الأسس لا يمكن لفرد ما أن ينتسب إلى أكثر من حي واحد في عين الوقت . وهذا ما جعل عرب الجاهلية يعملون بمقتضى قواعد عرفية عامة . فكان أمام من يريد أن يدخل في نسب قبيلة غير قبيلته طريقان : فإما أن يخلع نسبه القديم طائفاً مختاراً ؛ وإما أن تطرده قبيلته وتحرمه من الانتساب إليها . وهنا تنشأ المشكلة التالية : هل يعتبر ذلك الشخص - من أجل الحقوق والواجبات الاجتماعية - من أفراد قبيلة الأب أم يعتبر من أفراد قبيلة الأم ؟ إن أنواعاً معينة من الزواج تتوقع وجودها بين القبائل العربية التي تتألف من أناس يعتقدون أنهم من دم واحد . وهذه الأنواع من الزواج لا تتعدى ثلاثة :

١ : تؤمن القبيلة بالزواج الداخلي ؛ وهو لا يسمح لأى رجل أن يتزوج امرأة من نساء قبيلة غير قبيلته .

٢ : تؤمن القبيلة بالزواج الخارجى ؛ وهو يحرم على الرجل أن يتزوج من نساء قبيلته .

٣ : لا فرق عند القبيلة في أن يتزوج الرجل من نساءها أو من النساء الأجنبية عنها .

لسنا نجد بيئة على وجود قاعدة مطردة كانت منتشرة بين العرب في الجاهلية تحرم كل نكاح سوى الزواج الداخلى . بل الأمر على النقيض من هذا فإننا نجد بينات قاطعة تثبت أن العرب كانت قديماً تمارس الزواج الخارجى فيتزوجون بنساء أجنبيات عن قبيلتهم يلدن لهم خير الأبناء . ثم انتقلوا سريعاً إلى الزواج الداخلى أى ان رجال كل قبيلة أصبحوا يتزوجون في قبيلتهم وليس في قبيلة أخرى . وأصبح كل من يتزوج

خارج قبيلته يلحق - على الغالب - بامراته ويعتبر من أفراد حبيها .
على أن العرب - كما يظهر من الآثار المبعثرة هنا وهناك في كتب الأدب والتاريخ -
كانت تكره الزواج بالقريبات . قال عمرو بن كلثوم في وصيته التي تركها لمقبه بعده :
« لا تتزوجوا في حيكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض » . وفي أمثال العرب : « النزائع
لا القرائب » أى « تزوجوا النزائع ولا تتزوجوا القرائب » . وذكر باسنيان في كتابه
(الإنسان في التاريخ) عن تحييد العرب للزواج الخارجى مانصه : « لم يكن مسموحاً
للصينيين أن يتزوجوا في قبائلهم وذلك حباً في الحصول على أولاد نجباء . وقد عرف
هذا الأمر عن العرب أيضاً فقد ذكر ابن وهب أن بنى تميم لا تتزوج في تميم ، وربيعة
لا تتزوج في ربيعة ، وإنما تتزوج ربيعة في مضر ومضر في ربيعة ويدعون أن ذلك
أنجب للولد . »

على أنه ليس في كل هذا ما يشير إلى أن الزواج الخارجى كان إلزامياً عند العرب .
وقد نتج عن وجود هذا الضرب من الزواج وانتشاره في جاهلية العرب تباين في شكله
واختلاف في نتائجه : وإننا نجد أن نوعين من الزواج الخارجى كانت معروفة في
الجاهلية .

ففي النوع الأول كانت المرأة تصحب زوجها إلى بيته وتقيم معه فيه طيلة أيامها ،
على أن يعتبر أولادها من قبيلة الأب ، على أن تبقى الأم تتمتع بالانتساب إلى قبيلة أبيها .
وفي النوع الثانى لم تكن العادات القبلية تسمح للمرأة بالافتراق عن قبيلتها ،
وكان يحق لها أن تتزوج من أجنبي . على أن تقيم عند قومها ، سواء أقام ذلك الأجنبي
أبدياً عندها أو تردد عليها حيناً بعد حين . وكان الأولاد في هذه الحال يعتبرون تبعاً
لأمهم ينتسبون إلى قومها دون غيرهم . وقد اعتبرت الأم في هذا الزواج محوراً للأسرة
وأساساً لها . وكانت حقوق الإرث تنقل عنها إلى أولادها دون الأب الذى كان يرثه
أولاد أخواته لا أولاده . ولعل ما وجدته ابن بطوطه في نساء زييد من بقايا هذا

الضرب من الزواج الذي كان معروفاً في الجاهلية . قال : « وللعريب عندهم (عندنساء مدينة زيد) مزية ولا يتمنعن من تزوجه كما يفعلن نساء بلادنا . فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته ، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها ، وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة ، لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً ولو أعطيت إحداهن ماعسى أن تعطاه على أن تخرج عن بلدها لم تفعل » . وقد تسبب عن هذا الزواج أن العرب كانوا يعتقدون بوجود صلة داخلية بين الخال وابن أخته ولذلك قالوا في الجاهلية للولد الفاسد « نزع عرق الخال »^١ . وهذا الأمر من بقايا العصور الخالية التي كان يتبع الولد فيها نسب أمه فكان الخال أقرب شخص للأولاد بعد أمهم ، وكل ذلك من نتائج شيوع نظام الأمومة ومتعلقاتها بين عرب الجاهلية .

يعتقد الباحثون أن نظام الأمومة كان شائعاً عند عرب الجاهلية قبل نظام الأبوة ، فكان الولد ينتسب إلى أمه دون أبيه ويسمى باسمها ، وكان الإرث ينحصر في أولاد الأخت دون الأولاد ، وكانت الأم تكفل الأولاد دون الأب ولهم على ذلك أدلة كثيرة نورد بعضها فيما يلي :

يقول ويلكن في كتابه الأمومة عند العرب ، ما نصه :

« من الأدلة الواضحة على شيوع الأمومة عند العرب ، قبل استحكام نظام الأبوة عندهم ، كلمة « بطن » التي يستعملها العرب إلى اليوم بمعنى الأسرة أو القبيلة ؛ ولا ريب في أن هذه الكلمة بمعناها الصحيح نشأت في حقبة من الزمن كانت المرأة فيها ركن الأسرة والمحور الذي تدور عليه . وآية ذلك أننا نجد هذه الكلمة أو كلمات مرادفة لها تستخدم عند أقوام كثيرة ، للدلالة على جماعة الناس الذين يؤلفون أسرة واحدة ويقيمون في دار واحدة . مثال ذلك : إن سكان أعالي جزيرة صومترا ، الذين يتمسكون بنظام

الأمومة ، يطلقون عبارة معناها « من بطن واحد » على الجماعة من ذوى القربى الذين يقيمون فى دار واحدة ويؤلفون أسرة واحدة لتسلسلهم من امرأة واحدة هى أم القبيلة . وأن قبائل ما كاسل تستعمل عبارة معناها « النابتون من بطن واحدة » للدلالة على الأخوة والأخوات أو الأسرة بوجه عام ؛ ويغلب على الظن أن هذه العبارة المجازية ظهرت إلى عالم الوجود يوم كانت الأمومة نظام الأسرة الوحيد . وهنالك قبائل أخرى تستخدم للدلالة على الأسرة عبارة « رفقاء البطن » و « رفقاء الأم » و « الشاربون من حليب واحد » وما شابه ذلك .

ولدينا بعض الشواهد يظهر منها أن الأولاد - أيام جاهلية العرب - كانوا ينتسبون إلى أمهاتهم ويسمون بأسمائهن « وأن جملة قبائل كانت تنتسب لأمها دون أبيها كما هو معروف مثلاً عن بنى خندف من نسل إلياس وامراته خندف ؛ فقد روى أبو الفداء أن جميع ولد إلياس هم من خندف المذكورة وإليها ينسبون دون أبيهم فيقولون (بنو خندف ولا يذكرن إلياس بن مضر) . ومثلهم بنو مزينة كانوا ينسبون إلى أمهم مزينة دون أبيهم عمرو » . والأمثلة كثيرة على هذا فى تاريخ أنساب العرب .

ثم إن القرابة إذا كانت من جهة الأم فقط أى إذا كان الولد ينتسب إلى أمه دون أبيه فلا يعتبر وجود صلة قرابة بين بنى العلات (وهم أولاد أب واحد وأمها متعددة) ولا حرج عليهم أصلاً إذا تزوجوا فيما بينهم . وهذا كان الواقع عند العرب فقد كان الاخوة يتزوجون أخواتهم من أبيهم .

وكذلك فإن ما لأبناء الأخت من حقوق الميراث ، يعتبر من أعظم الأدلة على شيوع نظام الأمومة عند العرب . لقد قدمنا أن حقوق الوراثة فى الأمومة تنتقل عن طريق الأم دون الأب بمعنى أن الأب لا يرثه أولاده بل أولاد أخته . وأغرب من هذا أن الأب كثيراً ما كان يفضل أولاد أخته على أولاده ولا سيما فى وراثة ألقاب الشرف

وأمثال ذلك كثيرة في تاريخ العرب قبل الإسلام - كما يتضح من مطالعة تاريخ أبي الفداء - وقد نتج عن تمسك العرب قديماً بنظام الأمومة على هذا الوجه شيوعُ زواج المشاركة وتعدد الأزواج عندهم ، وسنبحث لك فيما يلي عن أنواع الزواج التي كانت معروفة في الجاهلية :

« كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء :

فنكاح منها نكاح الناس اليوم ؛ يخاطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها .

ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى ! ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد . فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .

ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومرّ ليالى بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها . تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ! تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل .

والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، - وهن البغايا - كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها دعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك »^١ .

ولنبحث الآن في أنواع الزواج الأربعة التي وردت في كلام البخارى مبتدئين بالنوع الثانى « نكاح الاستبضاع » . لقد كانت الغاية من هذا النكاح هى الحصول على ولد نجيب . وهذا الأمر غريب جداً إذا قوبل بغاية نكاح الاستبضاع عند الأمم الأخرى . فالمعروف عن تلك الأمم أن المرأة كانت تجامع غير زوجها إذا لم يكن لها ولد وأحب زوجها أن يكون له وريث ، أو إذا كان الزوج عاجزاً عن القيام بما عليه نحو امرأته وهى راضية عنه^١ .

أما النوعان الثالث والرابع فهما تعدد الأزواج ونكاح المشاركة . لقد وصف الشهرستانى فى الملل والنحل نكاح المشاركة عند كلامه عن صاحبة الراية « التى كان يختلف إليها نفر وكلهم يواقعها فى طهر واحد فإذا ولدت ألزمت الولد أحدهم » وكانت صاحبة الراية تسمى « المقسمة » . وكانت مباحة لجميع الناس . أما تعدد

١ كان الغرض من الزواج عند الجرمانيين القدماء الحصول على وارث شرعى وقد كان يحق للرجل أن يطلق امرأته ويتزوج غيرها دون ما معارضة إذا تحقق عقمها . وورد فى كتاب حكمة الشعب ما نصه : سؤال - إذا لم يكن فى وسع الزوج أن يقوم بما عليه نحو امرأته ، وكانت امرأته راضية عنه فإذا عليه أت يفعل ليرضيها ويطيب خاطرها ؟ الجواب - عليه أن يحملها على ظهره ويمجوز بها السياج ثم يسلمها إلى رجل يرضيها . وكانت هذه العادة معروفة عند اليونان القدماء فكان الهرم من سكان سبارطة إذا رأى فى نفسه العجز عن مواطئة امرأته يأتى بها إلى أحد أصحابه الشبان ليواقعها فإذا حبلى منه وضعت ولداً تبناه وجعله وريثاً له كما لو كان ابنه الحقيقى . وما تزال هذه العادة شائعة حتى اليوم بين قبائل التشوكشى فى شمال سيبيريا حيث يحمل الرجل امرأته على مواقعة غيره إذا لم يكن له ولد وأحب أن يكون له وريث . ولا ريب فى أن هذه العادات وما يقابلها من عادات العرب هى من بقايا الأزمان التى لم يكن الزواج الشرعى معروف فيها . ذلك لأن الأغراض الرئيسية التى كانوا يتوخونها من وراثتها هى الإشفاق على مستقبل الأسرة . (كتاب الأمم عند العرب ، تأليف G. A. Welkin وترجمة الأستاذ بندى الجوزى)

الأزواج فقد كان بين أفراد الأسرة الواحدة ولا سيما في آخر أيام شيوعه في جزيرة العرب . ويعتبر العلماء أن نظام الأمومة نشأ عنه وأنه لم يكن بادي الأمر مقيداً ، بمعنى أنه لم تكن ثمة صلة قرابة بين الأشخاص الذين كانوا يملكون امرأة واحدة . ثم أصبح مقيداً محصوراً أى إن المرأة أصبحت تخص جملة أفراد معينين من أسرة واحدة أو من أم واحدة . وتعدد الأزواج هو الذى وصفه الرحالة الإغريق سترابو في معجمه الجغرافى حيث قال: إن المرأة عندهم مشتركة أى تخص جميع أفراد الأسرة التى يرأسها شيخ هو أكبرهم سناً ، ولهم جميعاً امرأة مشتركة يختلفون إليها فن جاء منهم قبلاً دخل إليها ؛ ولكنها كانت لا تبيت الليل إلا عند أكبرهم سناً .

إن شيوع زواج المشاركة وتعدد الأزواج عند عرب الجاهلية هما فى الواقع سبب ونتيجة لنظام الأمومة عندهم . ولعل من الصحيح أن يقال إن نظام الأمومة ابتداءً يتشكل وينتشر بعد شيوع زواج المشاركة وتعدد الأزواج وظهور أول مبادئ الزواج الفردى . ويلوح لنا أنه مرّ على عرب الجاهلية حين من الدهر لم يكن فيه للولد - وذلك إما لشيوع زواج المشاركة أو لأسباب أخرى نجعلها - أب حقيقى ، بل لم يكن أحد يتبناه بإحدى الطرق ، كأن تلزم المرأة ولدها من أرادت من الرجال الذين وطئوها أو أن تعين القافة للولد أباً معتمدة فى ذلك على ظواهر خارجية - وهذا ما أدى الى شيوع قرابة الأم المطلقة أو نظام الأمومة .

ولنعد إلى النوع الأول من النكاح الذى ذكره البخارى - وهو النكاح الفردى - وقد أصبح شائعاً فى دور نظام الأبوة عند العرب وكان على نوعين : نكاح البيع - وقد نشأ عن الزواج الخارجى ، ونكاح الاختيار وقد نتج عن الزواج الداخلى . فقد كان أهل الفتاة أو أولياؤها فى نكاح البيع - يبيعونها للأجانب يبيع السلع ويقبضون ثمنها ويكرهونها على الاقتران بمن أرادوا لا بمن أرادت . ويختلف هذا الزواج عن زواج الاختيار من حيث أن

ثم الفتاة يعطى لذويها بينما يعطى المهر - وهو في زواج الاختيار للمرأة نفسها . وكان نكاح الاختيار مؤسساً على اتفاق الطرفين ومحبتهم المتبادلة . ولعل من الزواج الاختياري الذي عرف في الجاهلية « نكاح الذواق » وقد كان يعقد من دون شروط ويحل من ذاته إذا رغب في ذلك أحد الطرفين لأنه لم يعد يجد في استمراره لذة وارتياحاً . وقد نجد في قصة أم خارجة خير مثل على نكاح الزواج . « فقد روى أنها تزوجت بأكثر من أربعين رجلاً من عشرين قبيلة ، فكان يأتيها الخاطب فيقول خطب فتجيبه نكح فكانت تتزوج واحداً وتطلق غيره ولكن بعد أن تذوقه ومن هنا جاء المثل المشهور : « أسرع من نكاح أم خارجة » . ومثيلات أم خارجة كثيرات في تاريخ الجاهلية كما يؤخذ من الأمثال التي أوردها الميداني : كانت أم خارجة ومارية بنت الجعد العبدية

١ لقد عرف عن المرأة في الجاهلية أنها كانت - على الغالب - حرة في اختيار زوجها من غير معارضة من قبل ذويها كما نرى ذلك في نكاح المتعة ونكاح الذواق وكما هو معروف عن أم خارجة وغيرها . وقد حكى عن إسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري « انه اجتمع في طريقه بامرأة تميمية أباضية ، فأعجبها وقالت : أريد أن أتزوج بك ونحن على ظهر الطريق . قال : يكون كنكاح أم خارجة قبل حضور ولي ولا شهود ! فاستضحكت وقالت تنظر في هذا . قالت أفليس التزويج إذا علم انكشف معه المستور ، وظهرت خفيات الأمور ؟ قال : أنا أعرض عليك أخرى . قالت ما هي ؟ قال : المتعة التي لا يعلم بها أحد . قالت : تلك أخت الزنا ! قال أعيذك بالله أنت تكفري بالفرآن بعد الإيمان ، فإن الله عز وجل قال : « فاستمتع به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضين به من بعد الفريضة » فقالت ألا تستخير الله وأفلدك إن كنت صاحب قياس ؟ قال : قد فعلت . فانصرفت معه وبات معرساً بها ؛ وبلغ أهلها من الحوارج أمرها ، فتوعدوها بالقتل ، وقالوا تزوجت بكافر ، فجعدت ذلك ولم يعلموا بالمتعة . فكانت مرة تختلف إليه على هذا السبيل من المتعة وتواصله حتى افترقا . (الأمومة عند العرب - ولكن ص ٥٨ ؛ الأغاني ، ج ٧ ، ص ١٨) .

إذا تزوجت الواحدة منهن رجلاً وأصبحت عنده كان أمرها إليها ، إن شاءت أقامت وإن شاءت ذهبت ، ويكون علامة ارتضاءها للزوج أن تعالج له طعاماً إذا أصبح . «
وقريب من نكاح الذواق ، المتعة — وهو نكاح يعقد لأجل مسمى ثم يحل بعد انقضاء المدة^١ .

وكانت المرأة والرجل في الجاهلية سواء في ممارسة حق الطلاق كما هو معروف عن أم خارجة ومثيلاثها . ذكر أبو الفرج الأصفهاني « ان النساء في الجاهلية كن يطلقن رجالهن ، وكان طلاقهن أنهن إن كن في بيت شعر حوّلن الخباء ، إن كان بابه قبل المشرق ، حولنه قبل المغرب ، وإن كان بابه قبل اليمن ، حولنه قبل الشام

١ روى الكاتب اللاتيني (اميانوس مارسيلينوس) أن عرب الجاهلية لم تكن تعرف زواجا مستمرا تربط فيه المرأة مع رجل معين لأجل غير مسمى ولكنهم كانوا يفضلون النكاح الموقت على غيره . وهم يقضون عمرهم في التجول والتنقل ونسأؤهم يجامعون من أردن من الرجال لأجل مسمى بعد أن يأخذن منهم أجورهن ولكي يقربوا هذا الجماع من الزواج كانت المرأة تقدم لزوجها رحا وخباء تختبئ داخله متى أراد ذلك زوجها .

ولارب أن النكاح الوقفي الذي ذكره أريانوس هذا كان شائعا بين العرب يوم ظهر الإسلام وكان يعرف بالمتعة . قال الزمخشري : سميت متعة لاستمتاعه بها أو لتمتيعه لها بما يعطيها . والواقع أن المتعة هي النكاح إلى أجل ويفسخ عند انقضائه من غير طلاق ، وأن الرجل يقدم للمرأة ، في هذا النكاح ، هدية أو صداقا في مقابلة الاستمتاع بها . ولم يكن في نكاح المتعة ولي ولا شهود .

أما نكاح الذواق فكان يعقد من دون شروط ويحل من ذاته إذا أراد ذلك أحد الطرفين متى لم يجد فيه لذة وارتياحا . وهو ما يزال شائعا بين بعض القبائل التوحشة حتى اليوم . فقد روى الرحالون أن نكاح الذواق عند قبيلة المورون — من قبائل هنود أميركا الشمالية — لا يطول أكثر من بضعة أيام ؛ ولكنه يدوم عند قبيلة الكوج حولا كاملا ثم يعقد ثانية بعد انقضاء هذا الأجل إذا وضعت المرأة في غضون ذلك .

« فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقتة فلم يأتها . »

على أن الذي يستوقف الباحث في حياة الجاهلية هو التباين الذي يجده في أخبار تلك الأيام . غير أنه لا مندوحة له عن التقرير بأن عادات العرب لم تكن على نمط واحد في كل البلاد ، وأن لسكان المدن أخلاقا وعادات تختلف عن أخلاق وعادات أهل القرى والبادية . وإلى هذا التباين والتغاير في الأخلاق والعادات يعزى كثير من المتناقضات التي نجدتها في أبحاث العرب عن جاهليتهم . فمن ذلك أنهم كانوا في الجاهلية يحرمون المرأة من حقوق الإرث . « فلم تكن البنت المتزوجة ترث أباهما لأن بيعها عند الزواج ، كان يقطع كل صلة لها بأسرتها ويحرم عليها الاشتراك فيما لأعضاء الأسرة من الحقوق . وكانت تعد من جملة أموال زوجها الذي اشتراها من أهلها ، فإذا مات عنها تلحق بأحد أقاربه كأخيه أو عمه أو ابن أخيه أو من تبناه . قال ابن جرير الطبري في تفسيره : حدثني محمد بن الحسين ، قال : حدثنا أحمد بن مفضل ، قال حدثنا أسباط عن السدي : أما قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) ، فإن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه ، فإذا مات وترك امرأة فإن سبق وارث الميت فآلتى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبها ، أو ينكحها فيأخذ مهرها ، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها ، فهي أحق بنفسها .

وقد كان أحق شخص بأرملة المتوفى ابن زوجها الأكبر . جاء في أسباب نزول القرآن للواحدي مانصه : « فأتت كبيسة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ! إن قيساً توفي ، وورث ابنه نكاحي ! وقد أضراني وطول علي ، فلا هو ينفق علي ولا يدخل لي ولا هو يخل سبيلي ؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقعدى في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله عز وجل ، قال : فافترقت وسمعت بذلك النساء

بالمدينة ، فأتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقلن ما نحن إلا كهيتة كبيسة ، غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا بنو العم . »

على أن العرب كانوا يقبحون من كان يخلف على امرأة أبيه وكانوا يسمون من فعل ذلك « الضيزن » وكانوا يسمون هذا النكاح « نكاح المقت »^١ . وذكر الشهرستاني أن العرب في الجاهلية كانوا ينهون عن الجمع بين الأختين ، قال : إن أقبح شيء عندهم - عند العرب - أن يجمعوا بين الأختين . وأن أول من جمع بين أختين من قريش كان أبو أحيحة سعيد بن العاص ، جمع بين هند وصفية ابنتي المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم . »

ويؤدي بنا البحث إلى الوقوف على وصف الأحوال الاجتماعية في الجاهلية . وهذا الوصف يحتاج إلى تمحيص خاص قبل القطع بوجود قواعد معينة عامة شاملة كانت تطبق في الحياة الاجتماعية . على أننا بعد أن قدمنا ما اعتبرناه قدراً كافياً من روايات الكتب العربية نرى أن نختتم هذا الجزء من البحث بعبارة وردت في كتاب عالم انكليزي « عن القرابة والزواج عند العرب الأقدمين »^٢

إن زواج « البعل » وهو الزواج الفردي ، الذي يكون فيه الزوج « سيد » وزوجه كان حديث العهد عند ما بشر الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام بدعوته ؛ وكان الزواج القديم الذي يحتم على المرأة أن تعيش في جوار قومها وتحفظ بأولادها لقبيلتها يلفظ آتئذ أنفاسه الأخيرة . « فأخذ الناس ينظرون إلى هذا النوع من الزواج بأنه ضرب من البغاء ، ويعتبرون النساء اللاتي يمارسنه من البغايا المنتسبات إلى القبائل الحقيرة . أما نساء مكة الشريفات فقد كن يحافظن على عفافهن . »

١ . الشهرستاني - كتاب الملل والنحل ، ج ٣

٢ . Kinship and Marriage in Early Arabia, by W. Robertson Smith, Revised Ed., 1907, p. 167.

والواقع أن نظام الزواج ، على الوجه الذى نعرفه اليوم ، كان قبيل بزوغ فجر الإسلام ، شائعاً ومعروفاً ، ولا سيما عند الجماعات المستقرة من سكان الحجاز . وأصبحت النساء اللاتى يمارسن أنواع النكاح القديمة يعتبرن من البغايا . وهذا يشير إلى أن نظام الزواج تطور تطوراً كبيراً ، فبلغ الدرجة التى وصل إليها الزواج فى العالم المتمدن . إن وقوع هذا التطور العظيم من جهة ، وإن شيوع الزواج الفردى فى أوائل عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجهة الأخرى ، هما - كما يقول أوليرى - دليل على أن أمهات مدن الجزيرة العربية ، ولا سيما مكة والمدينة ، لم تكن بمنزلة عن بقية العالم المعروف آنذاك . بل إن الحياة الاجتماعية فيها كانت مماثلة لما كانت عليه الحال الاجتماعية فى الإمبراطوريات المتمدنة المجاورة لها .

والآن فلنبحث فى ما كان يعبده عرب الجاهلية . ومصادرنا لهذا البحث تتألف من الكتابات الأثرية القديمة التى عُثر عليها فى جزيرة العرب ، ومن فقرات وردت فى مؤلفات كتّاب الإغريق والرومان ، ومن بعض عبارات أوردها المؤلفون العرب

١ لقد كانت نساء بنى عامر من القمصة الحفيرة فى النساء وقد عرف عنهن أنهم كن يطفن حول الكعبة عراة حاسرات يرددن أشعاراً سفيهة (انظر رحلة هرجرونية ، القسم الثالث) . وقد ورد ذكر لإحدى العامريات فى حديث رواه سيرة الجهنى . قال : « أذن لنا رسول الله بالمتعة (يوم كان فى مكة بعد أن فتحها فى السنة الثانية للهجرة) فانطلقت أنا ورجل إلى امرأة من بنى عامر كانت بكرة عيطاء فعرضا عليها أغسنا ، فقالت : ماتعطى ؟ فقلت رداً ! وقال صاحبي رداً ! وكان رداء صاحبي أجود من رداً ، وكنت أشب منه . فإذا نظرت إلى رداء صاحبي - أعجبها ؛ وإذا نظرت إلى أعجبته . ثم قالت أنت ورداؤك يكفني ! فكنت معها ثلاثاً . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كان عنده شيء من هذه النساء التى يمتنع (بها) فليدخل سبيلها . » (صحيح مسلم) .

في كتبهم وأبحاثهم. وسوف نستعين في فهمنا لما ورد في هذه المصادر بمفاتيح علم الأديان^١ عند الأمم القديمة الأخرى. إن الكتابات الأثرية ضئيلة العدد ولا تذكر لنا شيئاً سوى أسماء الآلهة التي عبدها العرب ولا سيما في جنوب الجزيرة. أما المؤلفون الإغريق والرومان فلم يزدوا كثيراً على ما أثبتته الكتابات الأثرية. ولعل الكتب العربية هي المصدر الرئيسي الذي يمكن لنا الاعتماد عليه في بحث الدين في جزيرة العرب بالرغم من أن الذين كتبوها هم مؤلفون لم يعاصروا عرب الجاهلية، ولكنهم عاشوا في ظل الإسلام وتحت رايته. وبحوثنا في أنواع العبادات التي سادت في أيام الجاهلية عند تفسيرهم للقرآن الكريم أو لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. على أن أصول علم الأديان المتفرع عن (علم الإنسان) تنير أماننا السبيل لهذا البحث. ولعل أبرز مبادئ علم الأديان أنهم لم يكونوا، في المجتمعات القديمة، يخلعون على الآلهة صفات المخلوقات؛ وأن الغرض من العبادة كان تحريك قوى الطبيعة في اتجاهات معينة. وعلى ذلك فقد كانت العبادة تتألف من مراسيم واحتفالات معينة وليس من عقائد وأصول أخلاقية. ثم تلا ذلك دور كان الناس فيه يؤلهون الأجرام السماوية. وهذا ولا شك تطور في تاريخ الأديان. على أنك قد تجد جميع هذه المبادئ تعمل عملها في عصر واحد عند أمة واحدة؛ فقد تجد قوماً يؤمنون بالسحر كعبادة لتحريك قوى الطبيعة والاستفادة منها، يقيمون في صعيد واحد وزمن واحد إلى جانب قوم آخرين يعبدون الأجرام السماوية. وهذا ما حدث في بلاد العرب أيام الجاهلية فقد وجدت فيها جميع أنواع العبادات وأصول الأديان في وقت واحد. فهناك بقايا من آثار الثقافة البابلية؛ وهناك آثار للفكر اليوناني والنزعات العلمية الصحيحة، وإلى جانبها نجد مبادئ من أصول الحياة في العصر الحجري؛ كل ذلك قد اندمج واتحد في الدين بل وفي الحياة

1. Arabia before Muhammad, by O'Leary, p. 191

الثقافية التي سادت بلاد العرب قبل الإسلام .

لقد أرجع العلماء عبادة الأجرام السماوية التي عرفت في بلاد العرب إلى أصل بابلي . إن عبادة النجوم هي - في الواقع - فكرة نشأت في العراق . فقد كان السكان يراقبون حركة الكواكب لمعرفة مواعيد فيضان دجلة والفرات من أجل زراعتهم ، ومن ثم أخذوا يعتبرون هذه الكواكب سبباً للفيضان وواهبه للمحصول الزراعي . وقد ألَّهوا في هذا الدور آلهة معينة للخصب . وأخذ العرب عنهم عبادة العزى « وكان أول من اتخذها ظالم بن أسعد ، بواد من نخلة الشامية ، يقال له حراض ، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة ، فبنى عليها بيتاً . وكانوا يسمعون فيه الصوت . وكانت أعظم الأصنام عند قريش . وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح^١ . وكانت قريش قد حمت لها شعباً من وادي حراض ، يقال له سقام ، يضاهاون به حرم الكعبة . وكان لها منحرون ينحرون فيه هداياهم يقال له الغنغ . وكان سدنة العزى بنو شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم . ولم تزل العزى تعبد حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، فعابها وغيَّرَها من الأصنام ، ونهاهم عن عبادتها ، ونزل القرآن فيها . »

والعزى عند العرب تقابل « عشتروت » عند البابليين « ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى ، ثم اللات ، ثم

١ وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول :

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى

فإنهن الفرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى !

كانوا يقولون : بنات الله (عز وجل عن ذلك !) وهن يشفعن إليه . فلما بعث الله رسوله أنزل عليه : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألستم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى » (كتاب الأصنام للسكلي ، ص ١٩) .

مناة . وكانت ثقيف تخص الالة كخاصة قريش العُزَي . وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين . « وكانت اللات تمثل « الإلهة الشمس » . وقد ورد ذكرها كثيراً في الآثار النبطية . « هذا المعبد مؤبد للسيدة اللات » ؛ وهذا هو « سادن اللات » ؛ و « هذا هو بيت اللات » . وقد ميزت إحدى اللوحات التي اكتشفت في البتراء بين الشمس وبين اللات . وكانت اللات بالطائف ، وكانت صخرة حربة ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها . وقد ذكرها الله في القرآن ، فقال : « أرايتم اللات والعزى » . أما مناة فكانت أقدم هذه الأصنام وكانت منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة . وكانت قريش وجميع العرب تعظمها وتذبح حولها . وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونها ويذبحون ويهدون لها . وقد ذكرها الله عز وجل فقال : « ومناة الثالثة الأخرى » . وكانت مناة لهذيل وخزاعة وهي بمعنى « المنية » تلك القوة الفتاكة .

إننا نلصق في رموز الأجرام والقوى السماوية المعبودة تقدم الدين وتطوره في جزيرة العرب قبل الإسلام . لأن عبادة القوى السماوية هي الدور الثاني في العبادة أى الدور الذى يلي الطوطمية . وقد عبدت العرب الشمس وكان لها صنم عندها . إن أقدم دليل على الاعتقاد بالآلهة التى عرشها السموات هو حرق الضحايا لى يتصاعد دخانها نحو السموات العلى . ولكن هذا النوع من القرابين لم يكن أقدم أنواعها عند العرب ؛ فقد سبقه عندهم أنهم كانوا ينحرون عند بيوت العبادة ويذبحون عند رِكلها ويتقربون إليها بالقرابين .

وقد عبدت في بلاد العرب - عدا الأجرام السماوية - أصنام لحيوانات ونباتات ألَّهاها العرب . ويقول البعض إن تلك الأصنام كانت رموزاً تمثل القوى السماوية بصورة بعض الحيوانات . بيد أن من المحقق عند جمهرة الباحثين اليوم أن القبائل العربية كانت

في جاهليتها طوطمية^١ تعبد الحيوانات وقد اتخذت أسماءها من تلك المعبودات وانتسبت إليها مثال ذلك أن بني أسد نسبوا إلى الصنم « يغوث » وأن بني عقاب نسبوا إلى الصنم « نسر » اللذين كانوا يعبدونهما^٢. وكان يغوث على صورة أسد وكان نسر على صورة الطير الجارح المعروف بهذا الاسم. أما « يعوق » فقد كان على صورة « فرس » وكان لهمدان بقرية يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين، مما يلي مكة. ولعل عبادة « الفرس » قد جاءت إلى العرب من بلاد فارس فقد عبدت فيها قديماً.

وقد عرف عن العرب القدماء عبادتهم للأشجار والحجارة، من ذلك أنهم « صوروا العزى بشيطانة تأتي ثلاث سمرات يبطن نخلة .. حبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنبيائها؟ »

وكذلك كانت عبادتهم (لذات أنوات) فقد اعتقدوا أن معبوداتهم الحية كانت تحل في تلك الأشجار والأحجار. يقول ابن السكبي^٣: « واشتهرت العرب في عبادة

١ (لأنه من الطبيعي في كل ملة أن يرى بالأسماء إلى مقام مقصودة أو آلهة معبودة أو رجال معدودة. وقد جرى العرب جري غيرهم فقالوا عبد اللات وعبد العزى وعبد مناف وعبد شمس وعلى وعباس وهام وهلم جرا. على أنهم تفردوا بأمر قل من جارهم فيه وهو التسمية بمستفيع الأسماء ككلب وكليب وذئب وذؤيب وضبع وضبيعة وزبالة ومرار. ولقد تأول الناس في ذلك تأويلات مختلفة منها ما روى من حديث أعرابي لذي سئل فقيل له: لماذا تسمون عبيدكم بأحسن الأسماء كجوهر ومرجان ولؤلؤ ومسرور وأبناءكم بأقبحها كغضيان ومرار وكاب وذئب فقال: عبيدنا لنا وأبنائنا لأعدائنا. » والذي نراه أن تسمية العرب أبناءهم بأسماء الحيوانات هي من آثار طوطمية قديمة كانت شائعة بين قبائل الجزيرة العربية قبل الإسلام (الباذة هوميروس للباستاني، ص ٤٧١).

٢ الأمومة عند العرب لويلكن، ص ٦.

٣ كتاب الأصنام لابن السكبي، ص ٢٥.

الأصنام : فمنهم من اتخذ بيتًا ؛ ومنهم من اتخذ صنمًا ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت ، نصب حجرًا أمام الحرم وأمام غيره ، مما استحسّن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب . فإذا كانت تماثيل يدعوها الأصنام والأوثان ، (فإذا كان معمولًا من خشب أو ذهب أو من فضة صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن) . وسموا طوفهم الدوّار . »

وكانت العرب تنذر للأصنام ، من ذلك أن الحارث بن أبي شمر أهدى سيفين يقال لأحدهما « نغمدا » وللآخر « رَسُوبًا » إلى « الفلّس » صنم بني طيء وظلا معلقين عليه حتى أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب كرم الله وجهه في سرية إلى طيء في السنة العاشرة من الهجرة وأمره أن يهدم الصنم ، فسار إليه وأغار عليه فغنم وسبي وكسر الصنم وأخذ السيفين وحملهما إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم . وكان من مزاعمهم أن الميت يبعث جسده من قبره ، فكان من لوازم رعايته أن يقتلوا ناقته عند قبره ويتركونها حتى تموت ، يزعمون أنه يركبها إذا بعث من القبر . وهذا الاعتقاد تسرب إلى العرب القدماء من وادي النيل .

ومن المعتقدات الدينية التي انتشرت في الجاهلية أنهم كانوا يؤمنون « بأنه إذا قتل رجل ولم يؤخذ بثأره خرج من رأسه طائر يسمى الصدى ، ويسميه بعضهم الهامة فلا يزال يصيح على قبره حتى يؤخذ بثأره . ومنهم من كان يزعم أن ذلك الطائر هو نفس الإنسان تنشط من جسمه إذا مات أو قتل .

وكانوا يضحون بالضحايا ويقربون القرابين اقتداءً بمن تقدمهم كالبابليين والآشوريين ومن جاورهم وخاطبهم كالفرس واليهود حتى لقد كانت عندهم بقية من حسن الاعتقاد بذبح أبنائهم قربانًا . فقد أجمع مؤرخو العرب على أن عبد المطلب جد صاحب الشريعة الإسلامية نذر لئن ولد له عشرة نفر لينحرن أحدهم عند الكعبة . فلما كملوا عشرة واشتد بهم ضرب عليهم القداح ففرج قدح أصغرهم عبد الله والد

النبي ﷺ فنعه قومه من ذبحه وافتدوه بإشارة كاهنة حجير بمئة من الإبل . ولذلك جاء في الحديث الشريف : « أنا ابن الذبيحين » أى عبد الله بن عبد المطلب وإسماعيل ابن إبراهيم . على أنه يظهر من سياق هذه الرواية أن تلك العادة كانت قد نسخت من بين العرب وأشفت العرب من استحيائها بعد تناسيها بدليل قيامها من أنديةها وقولها لعبد المطلب : « ما تريد » ، قال : « أذبحه » ، فقالوا : « والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه . أى يمتنع عليك الفداء . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه . »

أما التضحية بالغنم والإبل فكانت شائعة يذبحونها للأصنام وربما قالوا هى قرية لله إذ كانوا آخر الأمر يعبدونه تعالى وهم لا يكادون يفرقون بينه وبين أصنامهم . ولقد كان يعتقد فريق منهم أن الصنم هبل الموضوع على الكعبة يمثل الشمس أو هو الشمس يقربون له ولزملائه القرابين ويهدون الهدايا المعروفة بالعزائم ويذبحون ذبيحة رجب ويدعونها العتيرة ، وأول نتاج الإبل ويدعونه القرع ولم يزالوا على ذلك إلى أن أبطله الإسلام^١.

قال ابن الكلبي : « وكان الذى سلخ بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظلمن من سملة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصباية بمكة . فحيثما حلوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بها وصباية بالحرم وحجاً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتصمون ثم سلخ ذلك أنهم عبدوا ما استحبوا »^٢.

وكان العرب يؤمنون بالعرافة . وكان العراف كاهناً ساحراً ومنبتاً بالغيب وطبيباً

١ شرح الباذة هوميروس للبستاني ، ص ٢٣٨

٢ كتاب الأصنام لابن الكلبي ، ص ٦

أيضاً . ولقد تعاطى النساء الكهانة أيضاً وأشهرهن طريفة الكاهنة ، التي يزعمون أنها أنبأت بانفجار سد مأرب وسيل العرم .

بقيت مسألة أخرى من العادات التي شاعت في الجاهلية يحذر بنا الإشارة إليها . وتلك هي عادة وأد البنات . لقد قرر المفسرون أن هذه العادة عمت بلاد العرب قبل الإسلام . ذلك لورود آيات يينات في كتاب الله تؤيد ممارسة العرب لدفن بناتهم بعد ولادتهن مباشرة . قال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » ، « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً » ، وهذا يخالف ماذهب إليه أبو الفرج في الأغاني من أن قيس بن عاصم السعدي وهو أحد الصحابة رضي الله عنهم ، كان أول من وأد البنات . لقد كان العرب يكرهون البنات خوفاً من العار ولعل ذلك كان شعور الأغلبية منهم في فجر الإسلام . يؤيد ذلك قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » .

هذا ما قبيض لنا بحته في ديانة العرب القدماء ، ولا يزال هنالك متسع للبحث ، إلا أن الثابت عندنا أن العرب في الجاهلية اقتبسوا تأليه الكائنات السماوية وعبادة الأصنام والأوثان من الخارج قبل عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بأجل طويل . وقد هيأ لهم موقع بلادهم على طرق التجارة العالمية السبيل لمعرفة ديانات العالم القديم والأخذ عنها .

على أن الدين لم يكن إلا ركناً واحداً من أركان الاجتماع الذي أخذ العرب القدماء بعض أسبابه عن غيرهم من الأمم . إن طبيعة جزيرة العرب تظهر للباحث أن سكانها كانوا في القديم منعزلين عن بقية أنحاء العالم ، ولكن عزلتهم كانت في الواقع عزلة نسبية . ومع أنه لم يكن من اليسير على اليونان والرومان والفرس أن ينفذوا إلى داخل الجزيرة العربية نجد أن تلك البلاد كانت مقسمة قبل أيام الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم إلى منطقتين للنفوذ الأجنبي : فكانت الحجاز منطقة للنفوذ الروماني ؛ وكان

النفوذ الفارسي يتبعه جزء من الحكم المباشر ، يسيطر في جنوب الجزيرة وشرقيها .
وقد سبق هذا العهد ، عهد آخر للنفوذ الأجنبي قديم : فقد شمل نفوذ المصريين والبابليين
أقساماً كثيرة من جزيرة العرب . لقد قطعت الجزيرة العربية طرقاً رئيسية لتجارة العالم
القديم وصلت العرب بالبلاد المجاورة وأنفذت إلى داخل الجزيرة أنواعاً مختلفة من عناصر
الثقافة وأصول الحياة . ونزحت إلى جزيرة العرب قبل الإسلام ، جماعات من النصارى
واليهود وأقام السريان واليهود والأحباش مستعمرات لهم في بقاع مختلفة من البلاد .
وتسربت عناصر الثقافة وأصول الحياة الاجتماعية من البلاد الأجنبية إلى جزيرة
العرب فامتزجت بثقافة البلاد واكتسبت لونا خاصا من الحياة الاجتماعية هو الذي تحدثنا
عنه في هذا الفصل ، بطرق شتى كانت التالية هي الرئيسية منها : (١) أقامت الأمم
الأجنبية مستعمرات لها في داخل الجزيرة العربية ، لاستغلال الأرض ، أو لاستثمار
مناجم المعادن . (٢) افتتحت الأمم الأجنبية طرقاً رئيسية للتجارة عبر الصحراء ،
وعقدت محالفات مع الذين مررت تلك الطرق بديارهم تعهدوا بموجبتها حماية القوافل
التجارية من النهب والسلب في مقابل جعل كانوا يعطونه . (٣) أقيمت منازل ومراكز
مراقبة للعرب على حدود بلادهم فكانت عناصر الثقافة التي اقتبسوها هناك ترد معهم
إلى داخل الجزيرة وتنتشر فيها^١ .

ولعل خير مثل على المستعمرات التي أقيمت في داخل الجزيرة هو « تيماء » وكانت
مدينة تقع وسط واحة في شمال الحجاز تعرج عليها القوافل التي تسير بين مصر
والعراق . وقد أهل هذه المدينة موقعها لأن تسيطر على طرق التجارة الممتدة من
الحجاز إلى سوريا ومن مصر إلى العراق . وقد تبين من الكتابات الأثرية التي عثر
عليها مؤخراً في تيماء أن نفوذ الآشوريين والمصريين كان يسيطر فيها . وكانت رغبة
ملوك آشور أن يسيطروا على طرق التجارة التي تمر ب تلك المدينة . وقد جهز نبونيدوس

1. O'Leary, Arabia before Muhammed, p. 25.

آخر ملوك بابل ، في سنة ٥٥٢ ق م ، حملة وجه بها إلى تيماء تلك المدينة التي وصفها الألواح البابلية بأنها تقع في « عمورو » أى في بلاد المغرب ، فاحتلها وبنى له فيها قصراً أقام فيه مع حرسه من البابليين والآشوريين حتى سنة ٥٤٤ ق م . وفي سنة ٥٤٠ - ٥٣٩ ق م . قاد كسرى جيشاً توجه به إلى بلاد العرب من أجل إجلاء الأنباط عن تيماء . ويغلب على الظن أن تيماء كانت آخر معاقل الأمبراطورية البابلية التي صمدت في وجه الفرس .

ومثل آخر : لقد كانت مصر القديمة تستورد النحاس من سوريا قبل أيام الأسر الحاكمة ثم اكتشفت هذا المعدن في شبه جزيرة سيناء في بقعة تسمى وادي المغارة تقع إلى الشمال قليلاً من مدينة الطور الحديثة فأخذت تستخرج حاجتها من ذلك المعدن من هناك . وافتتحت طريقاً في شبه جزيرة سيناء وصلت البلاد بشمال الحجاز في تيماء ومنها تفرعت إلى بابل وإلى اليمن . ويذهب أحد العلماء إلى أن الخزانات العظيمة وأنظمة الري التي أنشئت في جنوب الجزيرة قد أقامها المصريون على الغالب^١ ؛ وقد يجوز أن يكون الذين أقاموها هم ملوك ما بين النهرين ، وإليك الأمثلة على طرق التجارة الرئيسية : كانت ظفر الواقعة على ساحل الجزيرة الجنوبي أهم مركز لتجارة البخور الذي كان يستعمله المصريون لتحنيط موتاهم ولحرقه في الهياكل وفي دفن الموتى . وقد قال هيرودوتس « إن بلاد العرب كانت المصدر الوحيد الذي يوجد فيه البخور والمر والقرفة والليدن . » ومنه كان المصريون يستوردونها . فأنشئت طريق من ظفر إلى صنعاء مارة بوادي حضرموت . واتجهت من صنعاء شمالاً إلى « العلا » وكانت مركزاً نبطياً على الحدود الحجازية اعتاد التجار أن يسلموا فيه بضائعهم إلى عرب الأنباط.

1. O'Leary Arabia before Muhammad, p. 53

2. Sir H. H. Johns, Journal of the Royal Anthropological Institute
p. 382, 1913

الذين كانوا يحملونها إلى تيماء . وكانت البضائع توزع في البصرة فيرسل بعضها شمالاً إلى بصرى وبعضها إلى البتراء أو إلى دمشق في سوريا ، وقد تتحول من سوريا إلى آيلة وهي العقبة ومنها إلى غزة فالعريش فمصر . وقد أقام الرومان في آيلة أيام طراجانوس الفيلق التاسع من جيوشهم لحماية الطريق . وكانت تيماء أعظم مراكز القوافل التجارية في شمال الجزيرة : اتصلت ببابل عن طريق حائل ، واتصلت بمصر عن طريق معان والعقبة وسيناء ، واتصلت بسوريا عن طريق معان والبتراء وبصرى واتصلت عن طريق العقبة بغزة وبتجارة البحر الأبيض المتوسط فيها .

بقى علينا أن نذكر شيئاً عن المراكز التي أقامها العرب على حدود بلادهم . ويلوح لنا أن أهم تلك المراكز كان في الحيرة وفي دمشق . لقد نزل العرب أرض سواد العراق في أواخر أيام حكم دولة الفرس القدماء ولم يستطع سكانها من الأنباط ومقاتلهم آئذ . ولم يقصد العرب من احتلالهم تلك البلاد أن يستقروا في الفلاحة وإنما بقوا المزارعين الأنباط في الأراضي وقنعوا منهم بالجزية أو الأناوة . وعندما تربع على عرش المملكة في بلاد فارس الساسانيون حاولوا أن يجلبوا العرب عن العراق ولكنهم عجزوا عن ذلك ، فاتفق سابور مع عمرو بن عدى على أن يقره ملكاً على القبائل العربية وأنخذ الحيرة عاصمة للملكة على أن يكون خاضعاً للسيادة الفارسية فيقدم إليها الجند عند الحاجة ويحرس حدودها من الاعتداء الأجنبي . ومع ذلك فقد ظل عرب الحيرة والسواد جزءاً لا ينفصل عن الأمة العربية ، فكانوا يرسلون وفودهم إلى أسواق الجزيرة ؛ وقد نقلوا إليها مبادئ الثقافة الهلينية لأنهم بالرغم من خضوعهم سياسياً للفرس لم يشاطروا هؤلاء ثقافتهم بل اقتبسوا الثقافة الهلينية بشكلها الآراي الذي شاع وانتشر في العراق .

وقد أقام ملوك الفساسنة مملكة لهم في سوريا شرقي دمشق وكانوا من

أتباع البيزنطيين وحلفائهم . وقد كانت جيوشهم تحارب إلى جانب البيزنطيين فقد حدث أنهم في سنة ٥٤١ م . حاربوا الفرس تحت قيادة بلازاريوس الروماني في العراق .

لقد كانت هذه المستعمرات العربية صلة الوصل بين بلاد العرب والأمبراطورية الرومانية والفارسية ، نقلوا إلى الجزيرة أصول الثقافة الفارسية والبيزنطية طوال مدة لا تقل عن أربعة قرون سبقت إشراق نور الإسلام على العالم .

الفصل الثاني عشر

عالم القسرون الوسطى

لقد نتج عن انهيار الإمبراطورية الرومانية أن ظهر على مسرح التاريخ آخر مجموعتين من الشعوب التي تتكلم الآرية هما : التوتونيون والسلاف . ولعل سقوط الإمبراطورية الرومانية على أيدي الجرمان يشبه بعض الشيء سقوط التمدن المينوني في آسيا الصغرى على أيدي اليونان قبل ثمانية عشر قرناً . غير أن الصورة لم تكن هنا كاملة . فقد كان القوط في حرض الدانيوب والافرنكيون في حوض الراين على اتصال بالإمبراطورية قبل أن اجتاحتها بعدة قرون . وقد اقتبسوا عنها الشيء الكثير من مدنيّتها ، ولكنهم أعملوا معاولهم في هدمها ومع هذا فقد رحّب بهم الناس في بعض الأحوال كمنقذين . أما الانكلوسكسونيون الذين اجتاحتوا بريطانيا فقد جاءوها من جهات نائية في ألمانيا لم تكن خاضعة للنفوذ الروماني ؛ وقد كانوا بادية الأمر هدامين . وقد تميز القرنان الخامس والسادس في بريطانيا بالمخطاط المدنية إلى مستوى لم تهو إليه في أى مكان آخر في القارة الأوروبية . أما في الشرق حيث استمر سلطان الإمبراطورية قائماً بعد سنة ٤٧٦ ب م ، نجد السلافين يتركون ، في خلال القرن التالي ، ممراتهم الوعرة وقراهم الحصينة ، ويبتحون شبه جزيرة البلقان ليصبحوا جنوداً في الجيوش البيزنطية ويصلون ، في بعض الأحيان ، إلى أعلى الرتب . فقد كان الإمبراطور جوستينيان - آخر واضع للقانون الروماني - وكان قائد جيوشه بيليزاريوس من أصل سلافي .

لقد أنتج سقوط الأمبراطورية في الغرب تقوية سلطان الكنيسة وتثبيت مكانتها بين الناس . فأنهالت عليها هبات « المؤمنين » وأصبحت ككثيرة الثراء تمتلك الضياع والاقطاعات في إيطاليا والبلاد المجاورة لها . وقد وجد « كلوفيس » الافرنكي (من سنة ٤٨١ إلى سنة ٥١١) وكان أول ملك ألماني اعتنق مذهب الكشلكة ، في الكنيسة خير حليف له ضد خصومه الغاليين ، ثم هذا حذوه غيره من ملوك البرابرة فأفادوا من مظاهرة الكنيسة لهم . أقام هؤلاء السادة يبعاً وكنائس في كل مكان وشادوا القصور لمثل البابوية وأنشأوا الأديرة ووقفوا عليها الحبوس الكثيرة حتى أصبحت الكنيسة أكبر الاقطاعيين في أوروبا الغربية . أما الكهنة والرهبان فقد سرتهم العطايا المتواصلة التي أغدقها عليهم الملوك ولذلك فقد اغتفروا لهم كل السيئات وتغاضوا عن جميع الذنوب التي هزت تيجانهم . لقد كان كلوفيس وقبيله من أشد ملوك التاريخ قسوة وأكثرهم رياء ونفاقاً . ومع ذلك فإن تقنعه بمسوح الدين حمل مؤرخ الكنيسة عزيفورى الطورى ، يتجاوز عن سيئاته ويقول : « لقد جعل الله أعداء كلوفيس يهوون كل يوم تحت قدمه ، ومد حدود مملكته وبسط سلطانه على الناس . لأنه أبتهل إلى الله بقلب خالص وقصد بأعماله وجهه ... إن الملك كلوفيس الذى آمن بالثالوث المقدس وقضى بعزمه على أعداء الدين بسط سلطانه على بلاد الغال كاملة . » والواقع أننا لا نجد دليلاً نتثبت منه أن شعوب أوروبا أصبحت بعد اعتناقها للمسيحية أكثر رافة ، وأحسن عفة ، وأشد زهداً وتمسكاً بأهداب السلم مما كانت عليه قبل ذلك . حتى أنهم لم يتغيروا في آرائهم ومعتقداتهم عن ذى قبل . فلم يتبع اعتناق المسيحية ترك آلهة الوثنية ونبد ما رُمى إليه بالكلية ، وإنما اعتبر الناس « آلهتهم » القديمة « شياطين » وقالوا إن « المسيح وحواريه والصالحين » أشد بأساً وأعظم نفيراً من تلك الأوثان . وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الآلهة القديمة في الحياة الدنيا وفي الآخرة يحرق بنار السعير . لقد ظلت الكاثوليكية ، بسبب الخطط المرسومة

التي وضعتها الكنيسة ، إرضاء لشعور جمهرة الوثنيين من أتباعها وإشباعاً لرغباتهم ، ديانة فيها الشيء الكثير من الشرك بالله . فاستبدلت الأعياد الوثنية بأعياد القديسين والشهداء ، واستبدلت الأوثان بآثار القديسين وبركاتهم . وعزى إلى هؤلاء معجزات وخوارق عجيبة ، فراجت سوق التدجيل لإثباتها وأصبح العمل لنشر الإيمان بها من صناعات القرون الوسطى البارزة . لم تعتبر كنيسة ما أنها شيدت على التقوى إذا لم تحو بين جدرانها عظام قديس ، أو بقايا من كسائه وردائه أو ما إلى ذلك . وكانت قطع «الصليب الصحيح» أتمن الأشياء كلها . وكان الشرق أغني من الغرب في هذه الأشياء ، وكانت فلسطين مصيدة للحجاج الذين يأتونها لتصيّد بعض تلك الآثار التي يدعى محرزوها أنها صحيحة . لقد استمر العمل ، في كثير من أنحاء أوروبا ، بالتقاليد والعبادات الوثنية خلال القرون الوسطى على مرأى من «الكنيسة» التي - إما أنها أذنت بها وباركتها ، وإما أنها سكتت عليها ؛ وظل السحر والشعبذة منتشرين بين الناس في كل مكان .

لقد كانت الكتلركة العامة وثنية مقننة إلى حد بعيد ، وكانت الكتلركة الرسمية مصلحة اقتصادية واسعة يديرها الرهبان ، كما كان الأمراء الأقطاعيون يديرون الأقطاعات في ذلك الزمن . وعاش أولئك الرهبان عيشة تطفل وكسل يمتصون ، باسم الدين ، دماء الفقراء . ولما تزايد عددهم انتظموا جماعات مختلفة وحادوا عن مبادئ التششف والتبتل التي بنيت عليها الرهبنة . وكانت الأديرة غير خاضعة لأى سلطان زمنى ، وهى تملك مساحات شاسعة من الأراضى لم يكن يوسع الرهبان فلاحتها ولذلك وقع عبء استغلالها على عاتق الفلاحين الذين كان عليهم أن يكسحوا ويعملوا ليقدموا لرجال الدين نتائج مجهوداتهم . وقد كانت أبواب الأديرة مفتوحة أمام كل الذين لفظتهم - لأمر ما -

الحياة الدنيا، وضاعت بهم سبل الرزق فكانوا ينتظمون في صفوف الرهبان زعماء منهم
أنهم بذلك يوفون بنذورهم. لسنا نجد زمناً في القرون الوسطى خلواً من كتابات تصف
كسل الرهبان والكهنة وبخلهم وغفورهم. والغريب في الأمر أننا نقرأ هذا الوصف
في تواريخ لم يكتبها أعداء الرهبان والكهنة وإنما سطرها يراع مؤرخين منهم، ذلك
لأن غيرهم من السكان كانوا أميين. إننا مدينون للكنيسة بالتواريخ التي ألقت في القرون
الوسطى، على ما بها من سخافات وتعصب أعشى وانحراف عن جادة الحق وطريق
الصواب. وإننا لنلصق في تلك التواريخ أن أبرز أعمال الكنيسة كانت تتألف من جمع
الضرائب والعوائد الدينية والصدقات دون غيرها. ولعل الواقع ما قاله «سيمونيدى»
في تاريخه: إن الدين أصبح منذ القرن السابع يتألف من إغداق العطايا والهبات على
الأديار بسخاء.

لقد شهد القرن الرابع والخامس والسادس احتياطي الجيوش الآرية ينزل إلى
الميدان. ولكن القرن السابع شهد الأمة العربية تستيقظ من سباتها العميق وتقدم
للعالم أعظم رجل عرفه، هو محمد رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم. لم تتغير
القبائل العربية في الجزيرة كثيراً عما كانت عليه عند ما اجتاحت أجدادها «الهلل
الخصيب» قبل بضعة قرون واتصلوا بالبابليين والآشوريين والفلسطينيين. لقد كانت
الأمبراطوريات التي حكمت هذه البلاد مدة ألفي عام على جانب عظيم من القوة مكنتها
من أن تحول دون تسلط سكان الجزيرة العربية على البلاد المتاخمة لها مرة أخرى.
فكان من جراء ذلك أن قبع العرب في بلادهم وبقيت جهرتهم تعيش على رعى
الحيوانات وتقتات بنتائجها، وكان نظامهم الاجتماعي، أول الأمر، نظام أمومة ثم أصبح
نظام أسرة الأبوة. غير أن العرب الذين كانوا يعيشون على الحدود المتاخمة لبلادهم
يضاف إليهم سكان المدن الواقعة على طرق التجارة أنشأوا من بينهم طبقة تجار عظيمة

أخذت بنصيب وافر من مبادئ الثقافة وضربت بسهم وافر في تطور البلاد من البربرية إلى المدنية . وقد وقع في أوائل القرن السابع للميلاد أعظم حادث في التاريخ ذلك هو ظهور دعوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، أرسله الله بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . فاستجاب لدعوته خلق كثير ممن هدى الله من خيار العرب ، واتى عنتنا شديداً وأذى كثيراً من بنى قومه وعشيرته الأقربين . فهاجر من مكة إلى المدينة في سنة ٦٢٢ م . ثم أعدّ للمشركين ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل وقطع الطريق على غير قريش وفتح الله له مكة فدخلها ظافراً منتصراً لدين الله في سنة ٦٣٠ م . ودان له أعيان مكة ووجهائها فدخلوا في دين الله أفواجاً وتركوا عبادة الأصنام وعبدوا الله الواحد القهار .

بشر رسول الله ﷺ « بالإسلام » ديناً وسمى أتباعه « المسلمين » . وللإسلام أركان نظرية تتعلق بالعبادات ؛ وأخرى عملية تتعلق بالمعاملات . أما النظرية فهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ؛ وإقامة الصلاة ؛ وصوم رمضان ؛ وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً . وأما العملية فتتألف من إيتاء الزكاة ؛ والمساواة أمام الحق ؛ لا فضل بين الناس إلا بعمل صالح . قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ... ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً ... ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً » . وقد وضع الإسلام قواعد العدل بين الناس . قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .

لقد وجد الناس في الإسلام ضالهم المنشودة لتنظيم المجتمع على أسس قويمية . وقد وجه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم دعوته إلى كسرى الفرس وقيصر الروم بعد

أن أقبلت العرب على الإسلام ودخلت فيه . وكانت الأمبراطوريتان البيزنطية والفارسية كلتاهما قد أضعفتها الحروب ، وأفسدهما الظلم والجور والانحطاط الخلقى . وقد عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على كسرى وقيصر أن يعتنقا الإسلام فلما أبيا جهز جيوشه لاكتساح أمبراطوريتيهما . ودفع خلفاؤه من بعده بهذه الجيوش قدماً فاجتاحت الأمبراطورية البيزنطية كما فتحت بلاد فارس . وانتشر الإسلام ؛ خلال ثمانين عاماً في سوريا ومصر وشمال أفريقيا والأندلس غرباً ، وفي العراق وآسيا الوسطى وحوض نهر السند شرقاً .

لعل من أسباب نجاح الإسلام وانتشاره بهذه السرعة في حوض البحر الأبيض المتوسط بساطة مبادئه وأمره بالعدل والإحسان في بلاد كانت الكنيسة المسيحية فيها آلة بيد الحكومة . إن المحاولات الكثيرة للتوفيق بين العناصر المتضاربة التي جاءت بها المسيحية القديمة ، ليتسنى للقائمين بذلك أن يخلقوا ديناً موحداً للدولة ، أدت إلى وضع تشاريع صارمة من قبل المجالس العامة لاضطهاد المذاهب الأرثوذكسية اضطهاداً شديداً صحبه كثير من التعذيب والتنشير الذى أصاب الناس نتيجة للتصريح باعتقاداتهم الدينية وميولهم الخاصة . من أجل ذلك استقبل النساء والرجال الفاتحين العرب استقبال المنقذ من الجور والطغيان . وكان شعار العرب « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . وكان مباحاً لأهل الكتاب من النصارى واليهود أن يظلوا على دينهم ويؤدوا الجزية . أما الذين دخلوا في دين الله فقد شاطروا المسلمين حقوقهم وواجباتهم - فلم يؤدوا جزية ولكنهم كانوا يؤتون الزكاة ، ويأخذون نصيبهم من الأنفال ويعملون في دواوين الدولة حسب مؤهلاتهم وكفاءاتهم . ولا عجب بعد هذا أن نرى الناس يدخلون في الإسلام أفواجا ، فيحولهم ذلك الدين من عبيد أرقاء إلى سادة أحرار ، ويستبدلون بالثلث الوحدانية .

أما فتوحات الإسلام الشرقية فأمرها شبيه بهذا . فقد أصبحت الزردشتية في حكم ملوك الفرس الساسانيين ، آلة للتجبر بالرعية ، وحرباً على الحرية الفردية والدينية؛ شأنها في ذلك شأن الكنيسة المسيحية . فلما توجه العرب شطر المشرق رحب بهم سكان حوض دجلة والفرات واستقبلوهم استقبالا حاراً كما فعل الرعايا البيزنطيون من قبل في سوريا وشمال أفريقيا . أما في بلاد فارس ذاتها فقد كانت مهمة العرب فيها شاقة : ذلك لأن الفرس كانوا من المتعصبين للزردشتية .

إلا أن مجد العرب ووحدتهم السياسية لم تدم طويلاً فقد بدأ السوس ينخر في أمبراطوريتهم . فلما زاد عدد المسلمين فبلغ الملايين وانتشر الثراء بين العرب نتيجة لما غنموه من البلاد التي فتحوها ، أخذ ثروة مكة ووجوه قريش يتنازعون على الخلافة ويقتتلون من أجلها . وهذا ما جعل الناس في شغل شاغل عن نشر دعوة الإسلام والعمل على بسط سلطانه في بلاد جديدة . وأصبح دأب أغلبية عمال الخلفاء أن يأخذوا الجزية من غير المسلمين ، لا أن يرغبوهم في الدخول في الدين . وظهرت إلى الوجود الحركة الشعبية والتمييز بين العرب والموالي . ولم تكن للعرب قوة كافية تؤهلهم لأن يسيطروا السلطان العربي الخالص في جميع أنحاء الأمبراطورية الإسلامية من غير استعانة بالأعاجم . وما كاد القرن الثامن ينتصف إلا وأصبحت الوحدة الإسلامية حديثاً تاريخياً . فأوقفت تقدم جيوشه الشرقية في الهند . وارتدت جيوشه الغربية من فرنسا . واستبدل مذهب أهل السنة والجماعة «بائنتين وسبعين أو ثلاث وسبعين فرقة» . وانقسمت الأمبراطورية إلى إمارات كثيرة مستقلة متعادلة . وكانت خدمته للعالم التبشير بالإيمان ، والأمر بالعدل والإحسان ، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ووضع أسس المساواة الاجتماعية بين الناس . وقد حمل أتباعه ، إلى جانب ذلك ، إلى القرون الحديثة العلوم والثقافة اليونانية بعد أن هذبوها وأضافوا إليها .

لقد ظلت الهند خلال الألف سنة ، التي فصلت بين انتشار البوذية وبين الفتح الإسلامي فيها ، ثابتة على مبادئها القديمة لم تصبها يد التطور بحسناتها . إن اتصالها البسيط بالمدينة اليونانية نتيجة لحروب الإسكندر وخلفائه كان عسكرياً وسياسياً محضاً . ولم يتعد ذلك إلى حياة الهنود الاجتماعية ، فظلوا على عاداتهم ومجتمعاتهم القروية وعبادهم البرهمنين ونظام طبقاتهم . وقد حدث في القرن الثالث قبل الميلاد أن اعتنق « أسوكا » - الذي حكم الهند كاملة ماعدا أقصى الجنوب - البوذية وحاول أن يجعلها دين الدولة . إن النقوش الأثرية التي تركها أسوكا ، وقصص رواة الهنود وحكاياتهم حول عهده هي مصدرنا الوحيد للدراسة سيرة هذا الملك . ولم يعثر المؤرخون على ذكر لأسوكا في مؤلفات الإغريق أو تواريخ البرهمة . لذلك نجد أنه إذا صحت رواياته عن نفسه وتركيبته لها ، كان ملكاً عظيماً مثل هديران وأضرابه من ملوك الرومان . إلا أن الفناء لازم أعماله فلم يكتب لها الخلود . ذلك لأن بوذية جوتاما وتنفيذها من الضفط والإكراه ، واستعمال القوة ، لا تصلح لأن تصبح آلة بيد الحكومة . وقد حدث بعد موت أسوكا أن اجتاحت الهند موجات متعاقبة من الغزاة الرعاة الذين جاءوها من آسيا الوسطى ؛ فغزاها رجال قبائل الساكاس في حوالي سنة ١٤٠ ق م . وغزاها الكوشان في سنة ١٠٠ ب م ، وتقاطرت عليها جموع قبائل الهونيين البيض في سنة ٤٧٠ ب م . وقد اعتنق الساكاس والكوشان البوذية فنتج عن ذلك رد فعل بين الهنود لأن تدين المستعمرين بالبوذية وتمسكهم بها نفر الهنود منها وأضفى على الخرافات الهندية هالة من الوطنية . أما في القرن السابع والثامن ب م ، أيام الفتح العربي للهند ، فقد اختفت البوذية كديانة عامة . ولو تقدم المسلمون إلى الجماهير محررين لهم من ظلم عبادة البرهمة ، حاملين رسالة الإسلام في العدل والمساواة الاجتماعية ، لكانوا قد محوا البرهمية من الهند كما عفوا على كل أثر كبير للمسيحية والزرذشتية

في الشرق الأوسط . غير أن الجهاد والمرابطة في الإسلام تقلصا إلى أن أصبحا يهدفان إلى مناوشات على الحدود للحصول على الغنائم ؛ ولم يهتم القادة بالتبشير بالمساواة بين المسلمين من حيث الحقوق والواجبات . وعلى ذلك فقد أوقف تقدم الإسلام في حوض نهر السند . ولما احتل المسلمون شمال الهند في القرن الحادى عشر تحت قيادة محمود الغزنوى كان ذلك الاحتلال نصراً عسكرياً مجرداً من أى أمر آخر .

عند ما كانت البوذية تختصر في الهند ، كانت تشم أنفاس حياة جديدة في الشرق الأقصى . لقد امتدّ حكم الصينيين بالفتوحات أيام دولة الهونيين (سنة ٢٠٦ إلى ٢٢٠ ب م) إلى التركستان وأسسوا صلات تجارية مع الهند ومع الممالك الواقعة إلى غربى بلادهم . وكانت إحدى نتائج تلك الفتوحات إخراج الرعاة الذين احتلوا الصين من تلك البلاد وتبعمهم غرباً إلى أن خيم سلطان العرق الأصفر على بعض جهات أوروبا وإيران والهند تحت اسم « الهونيين » . وكانت إحدى النتائج الأخرى حمل البوذية إلى الصين ونشرها فيها . أما ظروف وملابسات دخول تلك الديانة إلى الصين فتكاد تكون خرافية غامضة . ولكن الثابت أن هذه الديانة كانت مقبولة حتى نهاية أيام « الهونيين » ولما تبدد شمل الدولة الهونية في القرن الثالث بعد الميلاد ، تلا ذلك حقبة من الزمن انتشر فيها الفساد وعمت الفوضى البلاد وبلغ نفوذ البوذية وانتشارها ذروة مجده لأسباب مشابهة للأسباب التى بلغت بالمسيحية ذروة مجدها فى الإمبراطورية الرومانية . لقد نفّر الناس من الكنفوشيوسية ، وكانت عقيدة المثقفين ، أنها رمز للظلم والاستعباد ، فاتجهوا إلى البوذية وإلى الطائفة محاولين أن يجدوا فيها حلاً لمشكلاتهم العامة . غير أن البوذية والطائفة اللتين تنازعتا التفاضل الآن ، كانتا تختلفان عما بشر به كل من « لاووتسو » و « جوتاما » بقدر ما اختلفت المسيحية التى احتضنها قسطنطين عن « العظائم الدينية » التى انتشرت فى أواخر حكم الرومان . فقد ألبست الطائفة دثاراً

من السحر والشعبذة ؛ وتهادت البوذية في أرض الهند مع البرهمية وقابلتها بأن «أمات» جوتاما «كأله مخلص» للجنس البشرى ، وأحاطته بعدد كبير من القديسين والشهداء والملائكة الأطهار الذين أصبحوا يُعبدون ويتقرب إليهم بأدعية ومراسيم أشبه ماتكون بالطقوس المتبعة في هياكل البرهمية . وكانت هذه البوذية - وقد عرفت باسم «ماهايانا» أى العربة العظمى ، تميزاً لها عن «هنيانا» أى العربة الصغرى ، وهى تعاليم جوتاما الأصلية المجردة - هى التى حملت في القرون المسيحية الأولى من الهند إلى أواسط آسيا والصين حيث تنازعت مع الطاوية الحظوة عند الصينيين . وقد دافع الطاويون عن مذهبهم باضطهاد الناس ، ولكن البوذية ثبتت سلطانها بالاستيلاء على الألباب . ثم كان لازماً على الطاوية كيما تستمر في الوجود أن تتشبه بالبوذية . وقد أصبح من الصعب على المرء في الصين اليوم أن يميز هياكل إحدى الديانتين ورموزها وكهنتها ومراسيمها عن الأخرى . وقد هاجمت كلتا الديانتين الكونفوشيوسية وعزتا إليها مبادئ لم تكن تعرفها . وبقيت الصين منذ تلك الأيام إلى أن كانت مدينة عصرنا الحاضر بلاداً تؤمن بنظام الأبوة في الحياة الاجتماعية ، يعيش سكانها على الزراعة ويحكمها أمباطور ديني ، تغلب عليها جيرانها وتغلبت عليهم مرات عديدة ، ولكنها في خلال كل ذلك حبت العالم بمخترعات قيمة منها «الصيني والطباعة» التى عرفت في الصين قبل أن تجد طريقها إلى الغرب بقرون عديدة .

والآن فلنتوجه في بحثنا إلى الغرب . إن عجز الإسلام عن الاستقرار في شمال جبال البيرانيز خلال القرن الثامن حتمَّ على أوروبا أن تعمل جاهدة في سبيل إيجاد مخرج لها من حالة الفوضى والبربرية التى عقبَت سقوط الأمباطورية الرومانية . وقد أعاق التقدم من القرن الثامن إلى الحادى عشر هجوم القبائل السكندنافية في موجات متعاقبة المرة تلو الأخرى على الجزر البريطانية وبعض أنحاء القارة الأوروبية . وكان

هؤلاء الناس غرباء عن المدنية خرجوا من بلادهم يبتغون النهب والسلب . ثم استقر الأمر ببعض هؤلاء الغزاة فأقاموا لأنفسهم ممالك أو إمارات قويت على منع ورود غزاة آخرين إليها ووقفت سداً في وجههم . وقد اقتبس هؤلاء الشماليون أو النورمان مدنية الأقوام التي نزلوا بلادها ، وتحولوا من متجولين في البحار إلى سادة أقطاعيين ؛ وعقدوا مع الكنيسة الكاثوليكية حلفاً لمصلحة الطرفين . لقد كانت البابوية آنذ ، لوفرة العطايا التي أنعمت عليها من الملوك والأمراء ومحسني النصارى ، أغنى مؤسسة في أوروبا الغربية . ولكن الفساد كان متغلغلاً بين القوام عليها ، حتى أنه قيل : إنك تستطيع عمل كل شيء في روما شريطة أن تدفع نقوداً . غير أنه كان بالبابوية حاجة لقوة زمنية تدعم سلطانها . فوجدت ضالتها في هؤلاء النورمان ؛ لقد استردوا صقلية ومالطة من المسلمين ، وأرجعوا إنجلترا إلى ولائها القديم وطاعتها للنظم الدينية وكانت تتحفز للخروج عليها ؛ وأخضعت إيرلندا لأول مرة في التاريخ لحكم البابا . وقد أعجب النورمان اتصالهم بالبابوية لأنها رفعت مكانة قرصانهم إلى منزلة المجاهدين في الحروب المقدسة ، وغمرت ممالكهم بالبركات في الشمال والجنوب والشرق والغرب . وقد بلغ مجد النورمان ذروته في الحرب الصليبية الأولى عند ما قام فريق منهم ، وفريق آخر من مجازي الإفرنسيين مدفوعين بغفران البابا لهم وتجاوزه عن كل سيئاتهم من جهة ، ومؤملين أن يؤسسوا دوقية في آسيا فاحتلوا سوريا وفلسطين وأنشأوا مؤقتاً مملكة القدس اللاتينية .

ولم تكن هذه الحروب المسيحية المقدسة من الوجهة الخلقية لتشبه حروب الإسلام في شيء . لقد رحَّب السكان في فلسطين وسوريا والعراق بالفاتحين المسلمين كمنقذين لهم من الجور والظلم ؛ أما الصليبيون فلم يرحب بهم أحد ما في أية جهة ما ، بل لقد اعتبروا لعنة على السكان في كل مكان نزلوه . ومع هذا فإن أوروبا أرخت بداية نهضتها

من بربريتها بأيام الحروب الصليبية . إن فتوح الشرق قد أنعشت التجارة وجلبت إلى التجار الربح والثراء فنشطت حال أبناء المدن الإيطالية أولاً ثم مدن فرنسا والراين والفلاندر من بعد . ولعل البوصلة البحرية قد دخلت إلى أوروبا من الشرق إبان هذه الحروب . وكان طبيعياً أن يصحب انتعاش التجارة في أوروبا التقدم الفكري والتحرر من ربة الأوهام والخرافات القديمة ، فقد حركت كتب أرسطو في النفوس النزعة العلمية الكامنة فيها . وقد حمل التجار هذه الكتب إلى أوروبا الغربية حيث ترجمت من العربية إلى اللاتينية وانكب الخاصة والعلماء على درسها وتفهمها . أما العامة فقد ثاروا في عين الزمن ضد ثراء الكنيسة وفسادها نظراً لما أظهرته من القسوة والتشدد في قمع حركات التحرر الديني في القرون الوسطى .

لم يكن رجال الكنيسة في القرن الثالث عشر يدركون أنهم يعيشون في عالم متغير؛ وقد ظهر إلى الوجود راهبان دومنيكيان عظيمان هما : ألبرت الكولوني وتوماس أ كيناس وقفا مدافعين عن الكاثوليكية ضد « الضلالة » والتفكير الحر الذي أخذ طريقه آنئذ إلى العقول النيرة رغم قيام محاكم التفتيش وحركاتها . وكانت كتب أرسطو ونظرياته أقوى سلاح أمامهما في معسكر « الضلال » . ويبدو أن هذين الرجلين كانا على جانب عظيم من التعصب حال بينهما وبين بحث نظريات أرسطو العلمية في جميع أبحاثه . لقد قبلتا نظريات المعلم الأول في الظواهر الطبيعية كشئ مسلم به دون ما بحث أو تمحيص ، ولكنهما رفضا كل نظرية له تتعارض مع العقيدة الكاثوليكية . ووضع توماس أ كيناس نظرية خاصة يفرق بها ، على حد تعبيره ، بين الوحي والعقل . قال : إن الوحي والعقل كلاهما سبيل إلى المعرفة ؛ ولكن الوحي يسمو على العقل ولذلك يجب أن يفضل عليه . ولم يعن توماس « بالعقل » أن يفكر المرء لنفسه وإنما قصد به أن يؤمن المرء بما فكر به أرسطو ؛ وعنى « بالوحي » أوامر الكنيسة ونواهيها . ويتضح لنا من هذا

أن فلسفة أرسطو الرجعية، مع ما لها من شؤون تفضل الأمور النظرية على الحياة العملية قد سخرت في غايات الكنيسة وأغراضها ، وأن أركان فلسفته العقلية قد نبذت لتفسح المجال للعقائد المتعلقة « بشعار الثالث » و « بدء الخليقة » و « خلود الروح » و « فضيلة الاعتقاد » وواجب الناس في محاربة المارقين عن الدين .

لم تستطع المحاورات المدرسية وحجج أكيناس ، ولا نيران محاكم التفتيش أن تقف حائلا دون انتشار الحركات الاجتماعية والسياسية التي قوضت ، فيما بعد ، أركان الكنيسة في القرون الوسطى . أما حياة الفترة التالية من تلك العهود فكانت صراعا بين سادة الاقطاع وعلى رأسهم الكنيسة من جهة ، وبين طبقة التجار وأهل الصناعة - وهم أصل الطبقة البرجوازية أو الطبقة الوسطى - من الجهة الأخرى . لقد عجز النظام الاقطاعي عن إيجاد حل سياسي يكفل إنعاش الحياة الاقتصادية في أوروبا . وبينما كان الصليبيون يحاربون « الألبية » - تلك الفرقة المسيحية التي انتشرت في فرنسا خلال القرن الثاني عشر م . وقالت بوجوب الرجوع إلى بساطة المسيحية وتعاليمها - كان المغول يبنون ، بقيادة جنكيز خان ، إمبراطوريتهم العظيمة التي امتدت حدودها من الصين شرقا إلى تخوم روسيا غربا . لقد كان المغول قساة غادرين ولكنهم لم يكونوا ليكرثوا للدين . وكان جل همهم أن يؤدي أتباعهم الجزية وبعدئذ لهم أن يكونوا من خلائف البوذيين أو من أتباع الإسلام أو المسيحية . وقد شجعوا التجارة لكي ييسروا لأنفسهم الحصول على الكماليات . وكانت إحدى نتائج حكمهم إعادة فتح طرق التجارة البرية بين الصين وبين الغرب ، وتعميد السبيل أمام التجارين البندقيين نيقولا مافيو بولو ، وولده ماركو لأن يقوما برحلتيهما إلى بلاط « قبلاي خان » حفيد جنكيز ، ويتصلا بالصين ويسيطر أمام العالم الأوروبي مدى تقدم الشرق الأقصى في مضمار المدنية .

وقد حدثت أمور كثيرة خلال المدة الواقعة بين سفر ماركوپولو من مدينة البندقية في سنة ١٢٧١ ب م ، وبين عودته إليها في سنة ١٢٩٥ ب م . فقد طرد الصليبيون نهائياً من سوريا وفلسطين واعتمدت أوروبا على مواردها الخاصة . وبلغ سلطان البابوية الذروة وتمت لها عظمتها ، ثم أخذ نفوذها يتقلص وبدا نقصها في سنة ١٢٩٦ ب م ، عندما حاول البابا بونيفاس الثامن أن يحظر على الأمراء الدنيويين تعيين رجال الكهنوت ، فقام ملكان عظيمان ، فيليب الرابع ملك فرنسا ، وإدوارد الأول ملك إنجلترا ، وشهراً عمله ذلك وخرجا عليه . ولو قاما بعملهما هذا قبل قرن من الزمن لكان مصيرهما الحرمان الديني والخلع من عرشيهما . ولكن الزمن تغير وأصبح حكام أوروبا وشعوبها يئنون من غطرسة هؤلاء الأحرار الذين يسمون أنفسهم « خادمين لخادمي الله » ، ويدعون أن لهم قداسة إلهية ، بينما هم قد أظهروا في التعامل مع الناس ضروباً من الفساد والطمع لا تميزهم عن أي حاكم دنيوي مسيحي . بيد أن بونيفاس لم يجب على التحدي وبعد أن وقع خصام آخر بينه وبين فرنسا في سنة ١٣٠٣ ب م . مات مكسور القلب مهبط الجناح ذليل النفس . خلفه على كرسي البابوية بالتتالي نفر من الأحرار الإفرسيين . ثم انتقل مركز البابوية إلى « آفينيون » وأصبح البابوات خلال مدة قرن تقريباً دمي يتلاعب بها التاج الإفرسي كيف يشاء وآلات تحركها السياسة الإفرسية مع هواها .

وفي هذا العهد أخذ العالم الحديث طريقه إلى النهضة . فقام أبناء القرى والمدن في إيطاليا وفرنسا وحوض الراين وهولندا وبلاد البلقان وإنجلترا ونظموا أنفسهم في جمعيات تجارية ونقابات صناعية ليتخلصوا من ظلم الأقطاع وليؤسسوا لأنفسهم حياة اجتماعية مدنية هي أشبه ما تكون بحياة المدن اليونانية ودولاتها القديمة . ولكن فارقاً واحداً يبدو لنا بين المدن اليونانية القديمة وبين دويلات أوروبا في القرون الوسطى

إن انتصار اليونان على الفرس جلب إلى ميدان العمل في اليونان عدداً وفيراً من العبيد الأرقاء قضى فيما بعد على الصناعات الحرة ومهد السبيل لقيام إمبراطورية الرقيق البشعة في روما . أما الغرب فكان أمره على غير هذا . لقد انتهت الحروب الصليبية بانكسار أوروبا . وأصبحت المدنية الأوروبية الحديثة محصورة بين الإسلام والبحر المحيط وليس لديها أى مورد للرقيق . وعلى ذلك فقد نشأت الصناعات الأوروبية على أساس نظام العامل المستأجر بالскرا ؛ وكان لازماً على المدن إذا ما أرادت المزيد من العمال أن تحرر الناس الذين يعملون في الحقول الزراعية لحساب السادة الاقطاعيين . إن المسيحية لم تحرم الرق ولكن لم يكن هنالك أشخاص يصلحون للاستعباد .

أما من الوجهة العملية فقد رحبت الطبقة البرجوازية ، أو الطبقة الوسطى التي أخذت تشق طريقها إلى الحياة الاجتماعية الحرة ، بقيام الملكيات المستقرة لتتخذ منه سلاحاً تقاوم به فتنة السادة الاقطاعيين وغطرسة الكنيسة ، ورأى الملوك أن من مصلحتهم أن يسندوا أهل المدن ويحتضنهم ليضمنوا مساعداتهم المالية . ولم يكن هذا الوضع عاماً في أوروبا جميعها . ففي فرنسا وإنجلترا أتى التحالف بين الملك والطبقة البرجوازية ثمره كاملاً فأنتج الملكيات الوطنية ، ولكن تلك الملكيات لم تبلغ أشدها إلا بعد انقضاء قرنين من الزمن على نشوئها . أما في إيطاليا وألمانيا فقد حال التنافر والتنازع بين البابا وبين الإمبراطور دون قيام سلطة مركزية قوية . إن الرسائل التي خلفها لنا « دانتي الألفيري » تبرز لنا شوق أهالى مدينة فلورنس - الذين حط بهم الدهر وتزلت بهم النكبات بسبب سوء الحكم في بلادهم ، إلى حكومة توطد السلام وتقر الأمن والنظام . لقد جعل دانتي في « الكوميديا الإلهية » من النار والأعراف والجنة لوحة نقش عليها ما يحب وبكره . واعتبر عهد الإمبراطورية الرومانية المصير النهي للحكومة المستقرة . وانتخب « فرجيل » ، شاعر المجد الرومانى أستاذاً ودليلاً

له . واعتبر دانتي أن في سلطة البابا الزمنية مصيبة كبرى أصابت العالم . لقد خصص الدرك الأسفل من النار - لالكفرة والزنادقة - ولكن ليلقى فيه بالخطوة . وقد جعل الشيطان بين فكَّيه « بروتوس وكاسيوس » اللذين اغتالا قيصر الأول ، كما قبض بأنيابه على يهوذا الأسخريوطى . غير أن أشد لعنات دانتي قد صبت على الجبناء الذين لا يشتركون في النضال بل يقعدون في بيوتهم . وهؤلاء لا يدخلون ملكوت السموات ولا يلقى بهم في الجحيم وإنما يظلون يعمهون في الظلمات أبد الآبدين . ليس من الضروري لنا أن نعتقد أن دانتي آمن بوجود غرف للتعذيب في جهنم تنطبق صفاتها على أقواله المسيهية في الكوميديا . ذلك لأن السياسة الفلورنسية أنزلت به أذى شديداً فانتقم لنفسه بأن تخيل خصومه يسامون سوء العذاب . وقد سمى كتابه « الكوميديا » لينذر قراءه بأن لا يتمسكوا بأقواله حرفياً .

وإذا نظرنا إلى دانتي من وجهتين مختلفتين نجد من إحداها أعظم شاعر ظهر في القرون الوسطى ؛ ونجده رسولا لعصر النهضة من الثانية . وما كاد ينقضى على موته خمس سنين حتى اخترع الفلورنسيون مدفعاً يستعمل في الحروب ، ف قضى على آلات الحروب وأدواتها التي شاع استعمالها عند الاقطاعيين كما قضى على أصول التفكير الاقطاعي . وقد وقع الطاعون المعروف « بالموت الأسود » في منتصف القرن الرابع عشر فاجتاح أوروبا من الشمال إلى الجنوب وجلب معه اضطراباً اقتصادياً وقلقاً في الحياة الاجتماعية العامة . وعض الفقر المجتمع بنابه وشعر الناس بفداحة وثقل الأموال التي تحصلها البابوية واتباعها منهم وبعث « الكفر » والضلال الذي أخذته محاكم التفتيش وانتشر من جديد بين الناس على شكل واسع جداً . وقد عرّى

١ . إن الصفة التي ألحقت بالكوميديا فجعلتها « الكوميديا الإلهية » لم تسكن من وضع دانتي ، وإنما ألحقها بها أحد الكتاب الذين أعجبوا بالكتاب .

البابوية من كرامتها وقضى على منزلتها العظمى ، الخلاف والتناحر الذى وقع بين بابا
فى روما وآخر فى « آفينون » فيما بين سنة ١٣٧٨ إلى سنة ١٤١٧ ب م . قام رجال
منهم ويكليف ولولندز فى انجلترا وآخرون فى بوهيميا وحملوا على « المصائب التى توجه
إلى العالم » من روما واثينيون وطالبوا بمصادرة أموال رجال الدين وأصحاب الأديار .
وقد مات ويكليف حنف أنفه ولكن أتباعه كانوا للنيران حطباً بعد جيل من الزمن .
ونزل فى الوقت عينه الأتراك العثمانيون إلى الميدان وأخذوا يضغطون على ماتبقى
من الأمبراطورية البيزنطية وهددوا بسد طرق التجارة المؤدية إلى الشرق . وأخذ
التجار الأوروبيون يفكرون فى منافذ أخرى لشروعاتهم . وفى القرن الخامس عشر
تجول البحارة البرتغاليون على شواطئ أفريقيا بحثاً عن الذهب والعبيد ورغبة فى إيجاد
طريق للهند . وحاول جماعة آخرون من الإنكليز وأهل جنوا الوصول إلى آسيا عن
طريق البحر غرباً معتمدين فى ذلك على قول أرسطو وبطليموس إن الأرض جرم
كروى . وفى سنة ١٤٩٢ حط كولومبوس ، وكان القصر الأسباني قد جهز له حملة ،
رحاله فى العالم الجديد معتقداً أنه وصل إلى آسيا . ووصل « فاسكوداجاما » إلى الهند
عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ ب م . لقد بدأ العالم الحديث حياته .
وخضع العالم خلال القرون التالية للأوروبيين . فماذا فعلوا به ؟

الفصل العاشر

العالم الحديث

كان جواب البابا على السؤال السابق « ماذا فعل الأوروبيون بالعالم ؟ » أنه أصدر أوامره فنصت على أن كل الأراضي التي اكتشفت في الغرب هي من حق الأسبان ؛ وأن كل الأراضي التي اكتشفت في الشرق هي من حق البرتغال . واستعمل الأسبان قوتهم لتوطيد أقدامهم في الغرب . فمنعوا جميع الأمم الأخرى من الاتجار والإقامة في العالم الجديد ، وأنزلوا جميع السكان القدماء من الهنود منزلة العبيد واستخدموهم في مزارع قصب السكر وفي المناجم إلى أن مات أكثرهم فاستوردوا زنجياً من أفريقيا وأحلّوهم محلهم . ولم يخل حكمهم من بعض الحسنات ؛ ألم يذكر لهم التاريخ بالفضل والإجلال قضاءهم على حكم « الأزتك » في المكسيك وعلى ما لازمه من تقريب القرابين البشرية ؟ ولكن محوهم لمعالم مدينة « الأنسكا » في ييرو مازال يحزّ الأسي في نفوس جميع الذين يهتمهم أمر الإنسانية .

إن المستعمرين الأسبان لم يكونوا مدفوعين في قسوتهم وطفيتانهم بعوامل اللون والعرق . ولكن حب المال أعمى بصائرهم فانصاعوا لأطاعتهم وساروا وراء شهواتهم فأفنوا السكان الأصليين في البلاد التي نزلوها . إلا أن استثمارهم لموارد البلاد مهد السبيل لمشروعات اقتصادية واجتماعية عظيمة . أما تاريخ البرتغال في آسيا فقد كان قذراً جداً : فهم قد هاجموا دولا وطنية قادرة على الدفاع عن بلادها والتزموا في فتوحاتهم القواعد

الساحلية خلافا لما فعله الأسبان . وكان من نتائج الاستعمار البرتغالي تدمير البرتغال ذاتها لكثرة ما استورد إليها من العبيد ونتج من ذلك فساد زراعة البلاد .

✓ وبينما كان فريق من الأوروبيين يشقون طرق البحار التجارية ويفتحون العالم الجديد ، كانت « النهضة » في أوروبا تسلم نهايتها إلى « عهد الإصلاح » . لقد نظر الناس إلى هذين العهدين ، عهد النهضة وعهد الإصلاح ، في تاريخ أوروبا كأنهما ضدان متباينان . فهم قد قابلوا نهضة الفن والتفكير الحر « بالإصلاح » الذي يقطر تعصبا للدين وبعداً عن التسامح رغبة منهم في إظهار الفرق بين الحالين . إن هذا شيء عجاب ! أليست النهضة والإصلاح نتيجة لسبب واحد مشترك بينهما ، هو نمو التجارة وازدهارها في أواخر القرون الوسطى نتج عنه قيام طبقة غنية من التجار ، وظهور طبقة مثقفة بين الناس تستخدم المطابع في صناعة الكتب لتهديب الرأي العام الجديد وتعليمه ؟ وقد كان وجه النهضة الأدبية والفنية في إيطاليا لامعاً براقاً : ذلك لأن التجارة والرأسمالية تقدمتا فيها قبل غيرها من البلدان . وكان العداء هناك للبابوية بسيطاً رغم سوء سمعتها وضعف مركزها . ثم أليست البابوية مؤسسة إيطالية من جميع الوجوه ؟ إننا نلاحظ أن عائلة واحدة من أصل تجارى هي أسرة « ميديسى » قد تسنمت ذرى المجد إلى أن استقرت في مركز هو أشبه بمركز طغاة الأغريق وانتخب اثنان من أفرادها لكرسى البابوية . إن ميكافيل - وهو الذي بكاد يكون اللسان الناطق الذي يترجم عن عقل النهضة - ، يقرر أن الدين هو من آلات الدولة وأنه يجب أن يستخدم لمساعدة القائمين على الحكم وأن لا يسمح له مطلقاً بأن يعميق أو يؤخر الوحدة القومية .

✓ وقد كانت الحال في شمال الألب على النقيض من هذا : كانت جبهة الناس المثقفين ولا سيما أبناء الطبقة الوسطى في المدن يتحرقون أسمى ويتميزون غيظاً من الأموال

التي يجمعها الكنيسة ولا تنفق شيئاً منها في إصلاح شؤون السكان . تلك الأموال التي كانت تقطع الألب جنوباً إلى غير مارجمة نحو الشمال . وكانت أركان قوة الكنيسة تتألف من وفرة أموالها ، ومن اتحاد أعيادها بالأعياد الوطنية والقومية ، ومن استخدام السلطة الزمنية لها كدعامة تستند إليها في أعمالها . ولو أن ملكاً ظهر في هذه البلاد وتعاون مع الطبقة الوسطى لأحبط كثيراً من أعمال الكنيسة وأغراضها .

لذلك نرى أن لوثر عند ما سَمَّرَ على باب الكنيسة في ويتنبرج سنة ١٥١٧ م حججه الخمسة والتسعين ضد « غفران البابا » ، وعند ما اتهم في سنة ١٥٢١ م روما البابوية بأنها « أكبر سارق يظهر على وجه البسيطة في الحال والاستقبال » كان يعبر عن آراء جمهرة الناس في أوروبا الشمالية الغربية . وقد لازم الإصلاح في كل مكان — في ألمانيا وسويسرا وانكلترا والبلاد السكندنافية وفرانسا وهولندا — مطالبة المصلحين بوقف دفع الأموال إلى روما ، وبوجوب مصادرة أراضي الكنيسة ، وبإغلاق الأديار ، وإلغاء الأعياد المبتذلة التي تتعارض مع مصلحة التجارة والصناعة . إن مهاجمة أموال الكنيسة أدت إلى مهاجمة عقيدتها ومذاهبها ؛ غير أن الحملة الاقتصادية سبقت الحملة الدينية .

لقد كان « الإصلاح » يرمي إلى هدم سلطان الكنيسة الكاثوليكية الديني والخلق على السواء . إلا أن اختلاف مشارب أتباعه وتضارب مصالحهم أدى إلى تباين خطط الإصلاح التي وضعوها . رأى هنري الثامن ملك انكلترا ، وأيده في رأيه أمراء الألمان اللوثريون أن القصد من « الإصلاح » أن يكون الناس على دين ملوكهم وحكامهم الزمانيين ؛ وأن الملوك والأمراء حق التصرف بأموال الكنيسة الواقعة في بلادهم كما يشاءون . وقد ارتاح إلى هذا الرأي المزارعون الذين يعملون في اقطاعات الكنيسة ، كما ارتاح له أغنياء التجار الذين كانت الكنيسة تراحمهم في أعمالهم ، وطعموا في أن

يحصلوا على بعض الاقطاعات بثمن بخس أو بالهتان وبأن ينصبوا أنفسهم سادة فيها . ونظرت الطبقات الوسطى إلى الإصلاح بأنه يعنى رفض سلطان الأمراء والبابا في الدين وانتخاب رجال الدين وتعيينهم من قبل الشعب على الوجه الذى وضعه « كالفن » في جنيف، ونوكسن في سكوثلندا . واعتبر كثير من صفار التجار والصناع والفلاحين أن « الإصلاح » يعنى القضاء على عهد الاقطاع وإصلاح المجتمع من بابة إلى محرابه تمشياع مبادئ العدل الاجتماعى التى وجدت في المسيحية الأولى ، ولكن القشور التى ألبسها لها رجال الدين عفت على آثارها .

وكان لزاماً على البابوية من أجل محاربة القوى التى أطلقها الإصلاح من محبسها أن تلجأ إلى آلة « التفتيش » العنيفة ، وأن تعتمد على موارد الأمبراطورية الاسبانية العسكرية والاقتصادية ، وأن تنشئ تأييد جمعية الجزويت لها . وقد ظل الجزويت بنظامهم الشبيه بالنظام العسكرى رمزا لارعية الكاثوليكية ، واختصوا بتنصير الأغنياء والمتنفذين وفي تعليم النشء الجديد وفي عصيان أوامر الحكام الكاثوليك وفي التوصية باغتيال « طغاة » الكفرة . وقد وحّد « التفتيش » الدين في إسبانيا وإيطاليا وأعادت القوات الإسبانية والجزويتية الكاثوليكية إلى جزء كبير من أوروبا الوسطى وأقامت أمبراطورية كاثوليكية في العالم الجديد .

غير أن روما قاومت عبثا تيار المعرفة الذى انساب إلى العالم بعد فتح طرق الملاحة الكبرى . إن ضرورات الملاحة البحرية وجهت الأنظار إلى عالم الفلك ، وأدت إلى إعادة البحث من قبل « كوبرنيكوس » في النظرية اليونانية القديمة المتعلقة بحركة الأرض . وقد تقبل « جيايوردانو برونو » نظرية كوبرنيكوس هذه بحماس عظيم وضم إليها النظرية الأبيكورية في العالم اللامتناهى . قال إن كوبرنيكوس أعظم من مكتشفى القارات الجديدة ؛ لأن هؤلاء عكروا حبل السلام في العالم وحملوا عدوى سم

«قوانين القهر والاكراه في الدين» إلى الأراضي الجديدة، بينما هو قد حرر العقل من الأوهام وسما به إلى منازل النجوم . أما برونو فقد كان له الفضل في بيان فكرة التقدم وقيمة الاختبار البشرى . قال : لا فضل للأقدمين علينا لأنهم سبقونا في الوجود ؛ إن عالمنا أقدم من عالمهم وإننا أعظم اختباراً في شؤون الحياة منهم ؛ وإن معرفتنا أغزر من معارفهم . وقد تجول برونو في أنحاء أوروبا المختلفة ولما وصل إلى إيطاليا أخذته محاكم التفتيش وسجنته سبع سنين ثم أحرقتة في سنة ١٦٠٠ ب م .

وكان هلاك برونو بمثابة بيان للناس في أوروبا الكاثوليكية أن « النهضة » قد انهارت . وها إن المكتشفين العظام يُنزلون بالمدن الإيطالية التجارية ضربة كبرى بتحويلهم طرق الملاحة عن إيطاليا إلى المحيطات الكبرى . وقد تغلب التجار الإنكليز والهولنديون على قوى الإسبان البحرية والتجارية وأخذوا يتجرون في الجهات التي كانت قبل ذلك خالصة للإسبانيين . وقد أدى ذلك إلى اختراع المِرْقَب «التليسكوب» في هولندا وإلى اكتشافات « جاليليو » التي أيدت نظرية كوبرنيكوس وبشرت بابتداء عصر العلوم الحديثة العظيم . ثم اضطر جاليليو بالضغط والإكراه إلى أن ينكر آراءه . على أن الرجال الذين قاوموا الكنيسة الكاثوليكية وورثوا مالها وسلطانها استبدوا بالأمر واستأثروا بكل شيء بعدها . وكان شعارهم أن «حق الملوك إلهي» وأصبحت الدولة مملكة ذات أراض واسعة يملكها الأفراد وعلى رأسهم الملك الذي توقفت عظمتة على ثراء شعبه . وكانت العلاقات الدولية ألعياً سياسية تتخللها الحروب بين الدول الأوروبية التي ترمى إلى الاعتراف بالسيادة المطلقة لكل منها .

واستمر الحال على ذلك إلى القرن السابع عشر ، فقد ظهرت فيه لأول مرة في التاريخ النظريات الحديثة في الالتزامات السياسية . حقاً إن النظرية القائلة بأن أساس الحكومة عقد ضمنى بين الحاكم والمحكوم ، إذا أخل به أحد الطرفين تعرض لأن

يقاومه الطرف الآخر بالقوة ، كانت من نتاج أواخر القرون الوسطى . وقد استند إليها الجزويت وغيرهم كسلاح يقاومون به الملوك ، ولكنهم صبغوا ذلك السلاح بلون ديني . وقد كان زعماء مجلس النواب البريطاني ، عندما كان النواب يقاومون طغيان جيمس الأول وتشارلس الثاني ، يرفضون الاعتراف بأن للملوك حقاً إلهياً ويقولون « يجب أن يفترض أن حكم الملوك نشأ عن عقد ضمنى بين الملك والشعب » يلزم الملك وتلتزم الرعية به ؛ يحرم الاحتكار والإقراض الإجبارى وفرض الضرائب بغير رضا البرلمان ، ويحظر الحبس بغير محاكمة وحكم قانونى . إلا أن حجة النواب كانت ضعيفة نظرياً : ذلك لأنه لم يكن ثمة عقد ما فى الواقع . ولكنها كانت قوية عملياً لأن النواب والشعب كانوا مستعدين لأن يحفظوا حقوقهم بالقوة وبالدخول فى حرب أهلية .

وقد حاول العالم الفيلسوف توماس هوبز ، الذى عاصر بيكون وجاليليو ، أن يرد سلاح نظرية العقد الاجتماعى إلى محور القائلين بها . وكان هوبز أول فيلسوف حديث واقعى لأنه لم يعترف بغير الأجسام المتحركة المموسة كحقيقة واقعية ، ولأنه اعتبر الإنسان آلة ، واعتبر أن السعى وراء اللذة وتجنب الألم هما غايتا الأفعال . ولما كان الإنسان أنانيا بالطبع ، كانت حالته الطبيعية هى حرب من الناس جميعاً ضد الناس جميعاً ، وكانت حياته فى هذه الظروف ، منعزلة ، حقيرة ، قذرة ، موحشة . ولكى يتخلص الناس من هذا البؤس والشقاء أساموا حرياتهم وأكلوا أمورهم إلى سلطة مشتركة أو حكومة تتولى إنفاذ القانون . وبما أن هذا العقد لا يمكن فسخه من غير أن نفهمس مرة أخرى فى الفوضى ، فإن للحكومة سلطاناً مطلقاً على الرعية . إن العدل فيما تقول الحكومة إنه عدل . وإن الظلم ما قالت الحكومة إنه ظلم . وعلينا أن نؤمن بالدين الذى تعينه لنا الحكومة . « والدين هو الخرافات المسموح بها ، والخرافات هى الدين الممنوع » .

ولما لم يكن علم الإنسان أو الانثروبولوجيا قد ظهر بعد إلى الوجود ، نجد أن نظرية هوبز كانت استنتاجية محضة . فكان « عقده الاجتماعي » من نسج الخيال الخالص ، شأنه في ذلك شأن نظريات خصومه . وعلى ذلك فلم تصلح تلك النظريات لإثارة الشعب الإنكليزي الذي لم تتألف جمهورته آنئذ من فلاسفة أشبه بهوبز وإنما كان قوامه طبقة صغار التجار الذين حملوا عبء الإصلاح على كواهلهم في القرن الماضي . كان لهؤلاء الناس خبرة تامة بشؤون الحياة فأدركوا أنه لا يمكن التغلب على الملك والطبقة الارستقراطية بإثارة حرب شعواء عليهم . وآمنوا بأنه لا يحق لأية سلطة على الأرض أن تلزم الناس بتقديس آرائها . وقد وضعوا في « اتفاقية الشعب » التي صاغوها أول منهاج سياسى للديموقراطية وحرية الضمير .

وقد حدث خلال المدة الواقعة بين سنة ١٧٥١ ب.م. وسنة ١٧٦٥ ب.م. أن أصدر ديدروودالمبرت الافرنسيان أول دائرة معارف عامة للفنون والعلوم اشترك في كتابتها فولتير وهولباخ ومونتسكو . ولم يكن القصد من تلك الموسوعة العظيمة مهاجمة الدين مباشرة وإنما كانت غايتها توسيع مدارك الناس وتنوير أذهانهم في العلوم والفنون والتجارة والصناعة . وقد مجدّد الكتاب حرية البحث واحترام الرأي وحملوا على التعذيب والاضطهاد ويدينوا أن التصرف على الرعية منوط بمصلحتها . من أجل ذلك كله اعتبر الملوك هذا العمل ضاراً بسلطانهم ، مخالفاً للدين ومنعوه . وكان هذا المنع مع ما لحق به من فضائح ، كتعذيب « كاليه » بأمر القضاء ، هو الذي قلب فولتير المؤمن بالله ، اللين العريكة ، إلى عدو لدود للكنيسة قوى البأس ، شديد المراس . وأصبحت الكنيسة في نظره هي الفضيحة بعينها . إلا أن عداؤه الشديد للكنيسة لم يحل بينه وبين الإيمان بالله حتى إنه كان يرى « أنه إذا لم يكن هنالك في الواقع إله ، يجب على الإنسان أن يخترعه لضمان سلامة النظام الاجتماعي » . وقد ذهب رجال دائرة المعارف الآخرون إلى حد أبعد مما وصل

إليه فولتير . فقد أنكر ديدرو وهو لباخ في كتابهما « نظام الطبيعة » الذي أصدره في سنة ١٧٧٠ وجود الخالق جل وعلا ، وقالوا « إن العالم هو المادة في حركتها » . وعرفوا المادة بأنها « كل ماتتأثر به حواسنا » . والسعادة في رأيهما هي غاية حياة المجتمع .

❧ إلا أن الشخص الذي جاهر بالثورة ضد الاقطاعية النخرة وأصبح رمز الحملة عليها هو جان جاك روسو . وكان روسو من أهل جنوا ينتمي إلى أفراد الطبقة الوسطى ، ويعيش بذكائه لأنه لم يكن له مال ، ولم يؤت تهكم فولتير المرير ، أو مشاركة ديدرو العظيمة أو بلاغة هولباخ وفصاحته . وقد عرف أكثر من هؤلاء جميعاً سبب شقاء فرانسوا وتماسكها . فأرجع ذلك إلى النظام السياسي والاجتماعي الذي زج بالبلاد في حروب من أجل الأسر المالكة قربت يوم إفلاسها وثورتها . وقد قرر روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » ، الذي أصدره في سنة ١٧٦٢ ، في حديثه عن أساس الحكومة ، أن من حق الشعب أن يثور على الحكومة إذا خالفت شروط العقد . والذي يبدو أن نظرية روسو هي - إن أريد منها الإنشاء - ضعيفة جداً ؛ ولكنها عظيمة الخطر إذا أريد لها أن تكون سلاحاً فتاكاً بأنوقراطية القرن الثامن عشر . وقد سرت آراؤه في الناس مسرى الكهرباء واقتبسوا عباراته في هدم « حق الملوك الإلهي » و « مع أن الإنسان يولد حراً نَجده مكبلاً بالسلاسل في كل مكان » و « مادام الناس يُحكمون ويطيعون كان ذلك حسناً ؛ ولكن متى تمكنوا من رفع الظلم والجور عن أنفسهم ورفعوه فذلك أحسن » .

❧ ثم كان « قرار الاستقلال » الأميركي وقد نظمته (جفرسون) وأقره مجلس الأمة الأميركي في سنة ١٧٧٦ ؛ وكان مرادّه إلى نظرية العقد الاجتماعي . وكان غريباً جداً أن تكون أركان هذا القرار : أن جميع الناس يولدون متساوين ؛ وأن لهم حقوقاً مقدسة في الحياة والحرية وإنشاد السعادة ؛ وأن غاية الحكومة هي حماية هذه الحقوق

ومع ذلك فقد قبل به « المستعمرون » الذين أفنوا في مدة خمسين سنة زهاء ثمانين ألفاً نسمة من الهنود الجر وجعلوا نصف مليون زنجي يثنون من أغلال العبودية . وقد ظهر في المناقشة أن المجلس لم يقصد تطبيق القرار على السكان « الملونين » ولذا فقد حذفوا من مسودة « جفرسون » « استنكار الرق » . ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء « المستعمرين الأمريكيين » صمموا على أن لا يسمحوا لأحد أن يحكمهم أو أن يُسخر مواردهم لأمر ما دون موافقتهم . فأشعلوا بذلك نيران ثورة جامعة تعدت حدود أميركا إلى جهات أخرى من العالم وأدت إلى نتائج لم يفتان إليها الأميركيون عند ما أضفوا على صورة جفرسون موافقتهم . وفي سنة ١٧٨٩ أحاق الإفلاس بالثورة الإفريقية ، وقام أبناء الطبقة الوسطى الإفريقيون - طبقة البرجوازية - تلبيهم نظريات فولتير وروسو في الحرية ، وبعضهم عديد أجزل من الفلاحين الفقراء المنهوكي القوى ، ويحمسهم قرار الاستقلال الأميركي ، فاستردوا سلطانهم السياسي وأعلنوا بواسطة ممثليهم في مجلس الأمة « تصريح حقوق الإنسان » . وجاء هذا التصريح - وشأنه في ذلك شأن قرار الاستقلال الأميركي - مؤكداً أن غاية الحكومة هي حماية حريات جميع الناس الطبيعية . غير أن مجلس الأمة الإفريقي ، قد أساء - بحصره حق الانتخاب في فئات معينة وفي ترده باعلان عتق الرقيق - إلى الدستور الذي وضعه . لكن مبادئ الحرية متى جذبت الإنسان إليها لن تمكنه من الإفلات منها . ولذلك نجد أن الثورات والعواصف التي قامت تباعاً في إنجلترا وأميركا وفرنسا قد بعثت من جديد أمنية الرواقين في أخوة إنسانية عامة .

وكان عملانويل كانت زينون الرواقية الجديدة . وكان أبوه اسكتلنديا هاجر إلى (كونسبرج) فشبَّ ابنه وترعرع فيها وقضى كل أيام حياته أستاذاً في جامعته . وكانت العلوم الطبيعية مدار اختصاصه وأبحاثه أول الأمر . فآلف فيها ونشرت له

مقالات حول مواضيع هامة منها « حركة المد والجزر » ، و « المذهب السديمي في النظام الشمسي » . وكانت له جولات عظيمة في الأحداث السياسية التي وقعت في أيامه وعطف عميق على نظريات فولتير وروسو في الحرية . وقد أدى به ولعه المزدوج بالعلوم الطبيعية والعلوم السياسية ، إلى محاولة التوفيق بين ماخلع عليه عبارة « التوفيق بين ميكانيكية العلوم المادية وبين حرية الإنسان الخلقية » فكانت خاتمة مطافه نظريته الفكرية الشهيرة^١ التي تقول (بينما يحملنا العقل النظري على أن نفكر في أن كل شيء مقدر ومحتوم بالقوة ، يؤكد لنا العقل العملي أننا في الواقع وسطاء أحراراً ، علينا واجب جلي هو المحبة العامة لجميع الناس ، ومسؤولية عظيمة تجاه الله (الذي شارك كانت بصده فولتير) فقال إنه يجب أن يخترع إن لم يكن موجوداً)

إن نظرية كانت هذه خيالية محضة . فلو أن مقتضيات العقل العملي كانت عامة وموحدة بقدر ما وصل إليه ظنه ، لاستراح العالم . وقد خطأ التاريخ في حياته . إن العقل العملي لكانت هو الذي حمله على تحييد الثورة الفرنسية ، وعلى النقيض من هذا ، فإن العقل العملي لأدموند بيرك جعله يرى في ثورة الشعب الفرنسي تهديداً للملكية والنظام الاجتماعي في كل مكان . وإن العقل العملي لتوماس باين حمله على أن يتصدى للحملة على بيرك في « حقوق الإنسان » . وإن العقل العملي لحكام النمسا وبروسيا حملهم على اعتبار الدفاع عن الملكية الفرنسية دفاعاً عن أنفسهم ، بينما حمل الإفرنسيين عقلمهم العملي على خلع الملك وتقديمه للمقصلة لأن اتفاقه مع العدو الأجنبي كان خطراً واضحاً . وقد أغضب نشر كانت لسكتابه « الدين في ظل العقل الخالص » الحكومة البروسية فمنعته من أن يكتب أو أن يحاضر في الأبحاث الدينية . فأثر المنع في نفس ذلك الشيخ وتخلّى عن كرسيه في الجامعة . وتبين أن النزاع الطويل بين أوروبا

الإقطاعية وبين الثورة الإفريقية محتاج إلى سلاح غير سلاح كانت .

والواقع أن الثورة الصناعية لم تهجر النظام الاجتماعي والسياسي للقرن الثامن عشر فحسب ، بل أنها خلقت مشكلات استعصى حلها على فلسفة لوك وفولتير وروسو وكانت . إن نشوء نظام المصانع في انكترا جمع أعداداً كبيرة من السكان في المدن الصناعية كبرمنجهام وشيفيلد ومانشستر وجعل انكترا مصنع العالم كله . وبشر آدم سمث بحرية التجارة وأخضع جرمي بنتام القانون المدني والجنائي والدستور البريطاني لتجربة المذهب القائل « إن سعادة الإنسان هي أمنية الفضيلة أو مرماها » وإن غاية التشريع يجب أن تكون : توفير السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس . وقد أدى الاختلاف في الهدف بين أرباب الصناعة وبين طبقة الملاكين والأقطاعيين إلى المطالبة بإصلاحات برلمانية . وأدى زعر الحكام من الثورة الإفريقية - بادئ الأمر - إلى اعتبار كل طلب للإصلاح خيانة وجريمة من جرائم الفساد . غير أن تأثير الضغط وأساليب القمع والشدة وسعت شقة البؤس والشقاء ونمت القلق النفسي الذي أنشأته بين الناس الحركة الصناعية المشوشة . ولم تجد الطبقات الغنية علاجاً لها تتق به مبادئ الثورة الإفريقية سوى العودة إلى « وحى » العقائد الدينية المتعلقة بالنظام الاجتماعي ، وكان قد أهمل الأخذ به منذ أيام « النهضة » . ولا شك أن هذا العمل كان إعلاناً بالإفلاس الفكري .

وكان روبرت أوين؛ من بين جميع أرباب الصناعات ، الشخص الوحيد الذي قال بوجود وضع تشريع صناعي ونشر التعليم بين الناس، إذا ما أريد خلق رعايا مخلصين لأمتهم وحكومتهم . وقد اعتبر هذا الرجل، فيما بعد، من طلائع الاشتراكية الأوائل . وقد حدث في عين الزمن أن كانت جيوش نابليون وقواده تعيد رسم خارطة أوروبا وتفضي على الإقطاعية والرق في البلاد التي كانت تحت إمرتها ، وتمهد السبيل لنشر

مبادئ الحرية والعدل ؛ تلك المبادئ التي أزعجت الذين غلبوا نابليون في ووترلو فيما بعد .

إن تسوية المشكلات التي خلقتها الحركة الصناعية ما تزال منوطة بالمستقبل . وإن الصراع الرئيسي بين الرأسمال والعمل قديم في العالم قدم الرأسمالية . إننا نجد في القرون الوسطى قوانين موضوعة تحظر تشكيل جمعيات للعمال . غير أن حركات العمال استفحلت بالثورة الصناعية وعملت بادی الأمر على إتلاف جميع الماكينات (التي اعتبرت السبب الرئيسي لانتشار البطالة وتخفيض الأجور) ومن ثم عملت على تشكيل اتحادات غير مشروعة . وقد حدث إبّان فترة الوجوم التي تبعت ووترلو أن قام روبرت أوين في انكلترا وقام سانت سيمون وفورتيير في فرنسا ، كل على حدة ، مستقلين عن بعضهم البعض ، وقالوا إن الرأسمالية التنافسة هي سبب انتشار الشقاء المستفحل بين الناس وانه لا بد للقضاء عليه من تنظيم العمال على أساس تعاوني . وقد انتظر الثلاثة أن يأخذ أتباع النظم التي كانت سائدة في أيامهم برأيهم طواعية ويعملوا بتوصياتهم ؛ ولكنهم خابوا في ما أمّلوه . فقد كانت الرأسمالية تترعرع في عالم لم تكن الصناعة فيه قد نظمت بعد . وكانت الاضطرابات التي تنشب حيناً بعد حين تخمد حالا ولا تترك أثراً فعالاً . وكانت نسبة قليلة من بين جمهرة المصلحين تتصور أن هنالك فساداً جوهرياً في النظام القائم .

وكان التقدم الصناعي لا يسير على قدم المساواة في جميع أنحاء العالم . فبينما نجد نظام المصانع قد قطع شوطاً بعيداً في مضمار التقدم في انكلترا ، بل لقد تعدها حينذاك إلى فرنسا ، نجد بقية أوروبا لا تكاد تعرف شيئاً عنه . ذلك لأن حركات التحرر في ألمانيا وإيطاليا كانت تهدف إلى الوحدة السياسية التي لا تقمدا اقتصادياً بدونها . وعلى هذا فإن الفلسفة القائمة كانت فلسفة المذهب الخيالي^١ . وكانت تحصر

١ فلسفة المذهب الخيالي تنكر وجود الأجسام وتقول ان ظواهرها ليست سوى تصورات .

قوتها في الإنسان وتبحث العالم الطبيعي بطرق ملتوية يعوزها صبر العلماء وتدقيقهم .
ولقد مُكِّنْ هيجل إبان سياحة له في جبال الألب أن يصف العالم بقوله : « هذه المواد
الميتة أبدى » المتعبة المملة ، وهذه النجوم التي ليست سوى بقع بركانية في كبد السماء .
ومع ذلك فقد كان من حق هيجل أن يوضع مع برونو وسبينوزا في مستوى واحد
من حيث قوته الفكرية . فلقد كان أول فيلسوف من المحدثين طبق نظرية النشوء
والتطور على الإنسان ، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن تطور الكائنات العضوية كما
عرفه داروين فيما بعد ، بل كانت أبحاثه في التطور تكاد تركز إلى أركان هي من
نسج الخيال الخالص . غير أن نظريته في أن العالم هو نتيجة للتفاعل القائم بين أضداد
مختلفة كانت أساساً صالحاً لإقامة مذهب داروين وغيره من المذاهب عليه عندما حان
الوقت ^١ والواقع أن هيجل ، يشبه كانت ، من حيث اعتماده في علم الأخلاق على
إخضاع الهوى والميل الشخصية للعقل . على أنه لم يقصد « بالعقل » ما يوحيه الضمير
الفردى لكل إنسان ، وإنما قصد به ما تقتضيه مصلحة الجماعة الاجتماعية (كالأمة
والمدينة والدولة) التي ينتسب إليها الفرد . وكان في أوائل أيام حياته الحرة يعتبر « أن
الدولة المثلى » هي حدث لم يُكوّن بعد ؛ ولكن بعد أن عُين أستاذاً للفلسفة في
سنة ١٨١٨ في برلين اعتبر تلك الدولة قائمة في بروسيا وتحوّل بكل قواه إلى معسكر
الرجعيين - فكان عمله نتيجة محزنة غير متوقعة لمقدمة عظيمة .

على أن حركة التحرر التي هجرها هيجل كانت تغفل في قلب أوروبا الغربية .
فقد قامت دول مستقلة على أنقاض الأسبان والبرتغاليين في أمريكا الجنوبية ؛ وعادت
اليونان بعد استعباد دام زهاء ألفي عام إلى مصاف الدول الحرة . وأدت محاولة البوربون
الذين عادوا إلى فرنسا ، أن يحكموا البلاد « من قبل الكهنة وبواسطة الكهنة ومن
أجل الكهنة » وأن يخرسوا السنة البرلمان ويكفوا أفواه الصحافة ، إلى ثورة يوليو

وقيام ملكية برجوازية . وأدى ضغط الرأى العام إلى «تخصير» قانون الجزاء تدريجياً فى انكلترا ؛ واشترى البرلمان الحديد فى تلك البلاد المزارعين فى المستعمرات وأبطل الرق ؛ وحدثت دول أخرى حذو انكلترا فى هذا العمل . واستثمرت الأرباح التى اجتنت من الصناعة فى المناجم وسكك الحديد والقنوات والموانئ وغيرها من المشروعات الكبرى فى أنحاء العالم . وتغير الحكم البريطانى الذى نشأ بآدى الأمر فى الهند عن خلاف وقع فى القرن الثامن عشر بين حفنة من مجازفى التجار الإفرنسيين وعدد من التجار البريطانيين كانت التجارة والنهب هدفهم جميعاً . فألفت الإدارة البريطانية أساليب النهب الوحشية التى شوهت حكم شركة الهند الشرقية ، وأخذت تعمل على حظر إحراق الزوجة حية مع زوجها الميت ، وتعقت أفراد الجماعة الهندية التى كان أعضاءها يتفقون على خنق الأغنياء من البشر إرضاء للآلهة كآنى - فقادت فريقاً منهم إلى السجون وأفنت الفريق الآخر ، ومدت السكك الحديدية فى طول البلاد وعرضها وحضرت الهند إلى حد ما ، وأدخلت إليها الصناعات الغربية فهيمأتها بذلك - عن غير قصد - إلى الوطنية التى نشاهدها فيها اليوم . أما فى أميركا فإن إنشاء الصناعات فى أجزائها الشمالية قد أدى إلى اشتداد العداوة بين ولايات العبيد وولايات الأحرار ، وانتهى الأمر بالحرب الأهلية التى كانت إحدى نتائجها تهيئة البلاد للمشروعات الصناعية العظيمة . عند ما أشرف هذا القرن على الانتهاء كان العلم والاختراع قد مكنا لإنتاج السلع الضرورية للحياة فى الأماكن التى تصلح لها ونقلها إلى الأماكن التى تحتاج إليها فى كافة أنحاء المعمورة على وجه لم يسبق له مثيل من قبل .

وقد لمع فى هذه الحقبة نجم فيلسوف إفرنسى هو (أوغست كونت) وكانت فلسفته الإيجابية محاولة لتعيين أسس علمية لعلم الاجتماع . فقد آمن بأن مفتاح التطور الاجتماعى موجود فى النضوج الفكرى الذى هو بالضرورة - فى رأيه - معزول بالكلية

عن أية أركان مادية . ولذلك فإن أصوله كانت نظرية محضة لانتصل بظروف الحياة العملية بسبب ما . وقد أثرت فلسفة كونت في جون ستيوارت مل الإنكليزي . ولم يتسنَّ لم أن يتبين ارتكاز المبادئ الخلقية على الظروف المادية ولذلك فقد جاءت حل أبحاثه نظرية محضة . ولكنه قال « حيثما توجد طبقة عليا فإن جزءاً كبيراً من أصول حياة البلاد ومسلكها تمليه مصلحتها الطبيعية وشعورها بعوا مركزها » . وهذا ما وضعه في صف المؤمنين بالمادية التاريخية .

➤ وفي سنة ١٨٤٤ تعرف صحافي ألماني - يهودي شاب يقيم في باريس ويعرف باسم كارل ماركس على تاجر ألماني شاب يقيم في انكلترا ويعرف باسم فردريك أنجلز . وكان كلاهما من منطقة الراين ؛ وكلاهما من المؤمنين بنظرية هيغل « من اليسار » - أي أنهما اعتنقا مذهب هيغل أن العالم نتيجة للتفاعل بين الأضداد ، وبهذا مثله الأعلى في الدولة البروسية ونفاقه للوثيرة النصرانية . وقد توصل كلاهما إلى نتيجة واحدة هي أن أسباب التقدم منوطة بحركة طبقة العمال التي كانت آنئذ تعمل جاهدة في انكلترا وفرنسا . لقد اتفق الرجلان على القيام بعمل مشترك ؛ وكان ذلك العمل ظهور الفلسفة الثورية المعروفة « بالماركسية » إلى حيز الوجود ؛ فقد كتبها معاً ، ودجبا ما كتباه ببعضه البعض فلم يتسن لأحد أن يرجع إلى كل منهما ما كتبه . لقد اقتبس ماركس وأنجلز ، إلى حد ما ، مذهب الفلسفة المادية الذي قال به فلاسفة القرن الثامن عشر الإفرنسيون ديدرو وهولباخ : كل ما في الوجود هو من خواص المادة . إن أفكار الإنسان ورغباته لا تنشأ من عالم رוחي غريب عن المادة ، وإنما تنشأ من العالم المادي ذاته . وقبل أن يتمكن الناس من التفكير يجب أن تهيأ لهم سبل العيش - يجب أن يحصلوا على الطعام والشراب والكساء والمأوى وغير ذلك من ضرورات الحياة . وإلى هذا الحد يتفق ماركس وأنجلز مع مذهب الفلسفة المادية . وما عدا ذلك فهو من فلسفتهم

الخاصة . قالا : إن الإنسان يؤثر في العالم الذي يعيش فيه وبغيره ؛ وإن الآراء والأفكار التي يوردها هي من الآلات التي تمكن له سبل العمل على التأثير والتغيير . إن نظام الملكية الموجود في مجتمع ما يتوقف ، من حيث الشكل ، على مدى تقدم عوامل الإنتاج وآلاته في ذلك المجتمع ؛ كما تتوقف الآراء والنظم القانونية والسياسية والدينية السائدة في ذلك المجتمع على نوع نظم الملكية . ينتج عن ذلك أنه لا يوجد في العالم قانون اجتماعي خالد لا يتناوبه التطور والتغيير . وفي بعض الأدوار تصبح نظم الملكية عثرة في سبيل التقدم الاقتصادي بدلا من أن تكون عضداً له يساعد في ترويقه . وعند ما يحدث ذلك تبدأ فترة الجهاد الثوري مستهدفة تعديل حقوق الملكية وأنظمتها ، وعاملة على تغيير نظام المجتمع بكامله واستبداله بنظام اجتماعي جديد يكون أصلح منه . هكذا كان الحال عند ما أصبح النظام الإقطاعي عثرة في سبيل التقدم الاقتصادي ، فقامت البرجوازية وقضت على الإقطاعية وأصبح النظام السائد يبيع الأعمال الحرة والتنافس الاقتصادي . وعند ما يصبح نظام الملكية البرجوازية عثرة في سبيل التقدم الاقتصادي تقضى طبقات العمال عليها وتصبح الاشتراكية النظام الاجتماعي المناسب للعمل . والنظام الاجتماعي المقبول هو قانون السلوك الذي يفرضه المجتمع على أعضائه . وقد يمثل لهم ذلك القانون بأنه صوت لقوة أبدية خالدة خارج ذلك المجتمع . ولكن لا سند علمي يقوم على إثبات هذا الاعتقاد .

ولما كانت فلسفة ماركس وإنجلز قد نتجت عرضاً عن هجومهما الاقتصادي على الرأسمالية ، كان أثرها المباشر في الحياة الاجتماعية ضئيلاً . ولم تكن الحركات الثورية التي وقعت في أوروبا في سنة ١٨٤٨ من تأليفهما . وقد أُنْمِش اكتشاف الذهب في كاليفورنيا وأستراليا التجارة والصناعة مرة أخرى . وأدى نشر كتاب داروين في « أصل الأنواع » سنة ١٨٥٩ إلى تمسك القائلين بالمنافسة الحرة بآرائهم واعتبارهم

الكتاب مبرراً وسنداً لتلك الآراء . وكان داروين يرمى إلى إثبات تطور الخواص الإنسانية، بما فيها سلوك الجماعات البشرية، من ناحية دراسة علم الحيوان ؛ واتخذ حيطة عظمى في تجنب تطبيق آرائه ومبادئه على المجتمع المعاصر له . أما هربرت سبنسر فلم يراع هذه الناحية في أبحاثه . وقد كان «تطورياً» قبل داروين ، ويمزى إليه استخدام عبارة « بقاء الأنسب » لأول مرة في التاريخ ، وقد وجد في « تنازع البقاء » مبرراً لحرية العمل الفردية التي طالما ناضل عنها كل أيام حياته . وصَبَّ جام لعناته على مؤسسات الدولة الدينية ، وعلى تدخل الحكومة في التجارة ، وعلى مساعداتها للفقراء وعلى دوائر المعارف الحكومية ، وعلى الخدمات الصحية الحكومية أيضاً . ذلك لأنه اعتبر كل تلك الأعمال تعطيلاً من الحكومة لعملية « الانتخاب الطبيعي » . وادَّعى سبنسر فوق ذلك أنه إذا حدثت الحكومة من تدخلها وأنقصته إلى الحد الأدنى المقتضى لحماية الحرية والملكية، فإن الطبيعة سوف تستأصل من الوجود كل من لم يكن صالحاً للحياة من الناس ، ومن ثم يتكيف كل من البشر لمحيطه وبيئته وبصبحون في النهاية أصحاء أسعداء وحكياء . ويبدو لنا أن أنواعاً من تدخل الحكومة التي يعارض فيها سبنسر هي من أساليب تكييف الإنسان لمحيطه (من وجهة نظر التطور) بقدر ما تكون أنواع التدخل الحكومي التي يوافق عليها من تلك الأساليب . وينتج عن ذلك أن دعوته « للفردية » هي في الواقع دعوة إلى الفوضى . ذلك لأن كل جماعة بشرية متى كانت تتنازع من أجل بقائها، لابد أن تستخدم كل ما تصل إليه أيديها من الأسلحة التي تتلاءم مع مصلحتها . والواقع أن النتائج التي توصل إليها سبنسر لا تنساب من المبادئ والمقدمات التطورية . أما ماركس فقد اعتبر « أصل الأنواع » « أساساً في العلم الطبيعي يقوم عليه جهاد الطبقات في التاريخ » ثم كان ت . ه . هكسلي وهو أعظم من عملوا على تقريب « الداروينية من أفهام الناس ، ولم يكن

اشتراكياً قط ، فبشر بما ذهب إليه هيجل من أن « الحركة الكونية » في إبان النشوء والتطور قد ولدت « الحركة الخلقية » التي هي نقيض لها .

وكان من النتائج الجليلة للثورة الصناعية ذلك الأثر الذي أحدثته في وضع المرأة . لقد كانت المرأة منذ فجر المدنية إلى الأزمان الحديثة تعتمد في معيشتها على الرجل وتخضع ، من جراء ذلك ، لحكمه . كان الرجل يجمع القوت ويقاقل دفاعاً عن كيان العائلة ؛ وكانت المرأة تحمل الأولاد وتضعهم وتهبى الطعام . وقد نتج عن إخضاع المرأة للرجل حالة خاصة في السلوك الجنسي ، وحالة خاصة في التحريم على المرأة ممارسة الحقوق السياسية والثقافية التي يتمتع بها الرجل . لقد كانت الأسرة الوحيدة الاقتصادية ؛ وكان الرجل هو رأس الأسرة المهيمن على مقدراتها . وكان تأثير الثورة الصناعية أن ألقت بأعداد متزايدة من النساء في سوق العمال ينافس الرجال ويزاحمهم ، وبذلك تفكك كيان الأسرة كوحدة للإنتاج . وهذا بالضرورة أدى إلى المطالبة للنساء بحقوق متساوية مع حقوق الرجال . وقد كان « الدفاع عن حقوق المرأة » ، الذي نشرته في انكلترا في سنة ١٧٩٢ ماري ولستون كرافت أول مؤلف ظهر في هذا الموضوع . ولكنه لم يترك أثراً فعالاً في الرأي العام . على أن حركة التحرر التي عمت انكلترا عقب حروب نابليون أهاجت كلا الجنسين ، الرجال والنساء على السواء ، وقد اشترك بعض النساء في المطالبة بالإصلاح الاجتماعي . ومع ذلك فلم تتضمن برامج الإصلاح لأي حزب من الأحزاب وجوب منح المرأة حق الانتخاب . وما كاد القرن التاسع عشر ينتصف حتى فتحت أبواب معاهد التعليم العالي أمام المرأة ، وما كاد هذا القرن ينتهي حتى دخلت أعداد متزايدة من النساء في المهن الحرة وأخذن يطالبن بمنح بنات جنسهن حقوقاً سياسية . وقد نتج عن هذا التطور في حال المرأة استقلالها اقتصادياً

وتغير عظيم في السلوك الجنسي . ولعلّ من الخطأ أن يتكهن المرء فيما ستؤول إليه الحركة النسائية التي ما زالت تسير قُدمًا في مضمار التطور . إن العُرف العام والعادات التي خلفها لنا نظام أسرة الأبوة الذي ساد حياة الأمم آجالًا طويلة تحتاج إلى زمن طويل قبل أن يُقضى عليها أبدًا . إلا أن شيئًا واحدًا كيدٌ هو أنها لن تقوى على الحياة طويلا أمام ضرورات الحياة الحديثة ومقتضياتها . وما على من يشك في ذلك إلا أن يقابل أصول الحياة الاجتماعية قبل خمسين عاما بالأصول السائدة اليوم . وما لاشك فيه أن حرية المرأة ستزداد، وأن حرية البحث في الأحوال الجنسية ستزداد أيضًا، وأن جميع المحظورات على المرأة التي جاءت نتيجة لتحكم الرجل في نسائه ستزول من الوجود إن عاجلا وإن آجلا .

وقد لاحت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعض دلائل الحرية في العالم الغربي . فتوحدت إيطاليا بقيادة كاثور وغاريبالدي واعتُبرت وحدثها مولدًا لأمة جديدة . واستحسن الناس توحيد ألمانيا نتيجة لجهود بسمارك . ولكن المراقبين الحذرين رأوا وميض برق تحت الرماد يوشك أن يضرهم ناراً وقودها الحديد والفولاذ؛ وقد أصبحت بلاد جديدة صناعية ولم تعد بريطانيا وحدها مصنع العالم . وكان العامل الأعظم الذي يتحكم بسياسة الدول الكبرى خلال الأيام الأخيرة من القرن الثامن عشر هو التخاصن على المستعمرات والأسواق التجارية ، والامتيازات في مناطق الأرض وأصقاعها المتأخرة . وقد رأى كبار الساسة في العالم أن السبيل لرفع مستوى معيشة السكان والحيولة دون الثورة الاجتماعية لا يكون إلا بالتوسع الاستعماري . على أن التقدم الصناعي الآن قد اصطدم بعقبة جديدة - تلك هي التناحر بين العمال لوحدة العالم الاقتصادية والتصادم بين السياسات الوطنية الإقليمية التي تعارض في تلك الوحدة وتُحتم على رعايا بلادها الأخذ بناصرها .

وكان الاستعمار بحاجة إلى فلسفة تبرره وتكون مقبولة لدى العقول النيرة ،
فحاول فردريك نيتشه أن يوجد تلك الفلسفة ولكنها كلفته غالبا. وقد بدأ نيتشه حياته
أستاذاً للأدب الكلاسيكي في جامعة بال بسويسرا معزولا بالكلية عن شؤون الحياة
العمالية ، ووجد من نفسه ميلا شديدا وحدا عظيما على الأقدمين وعزوافا عن كل ما في
العالم الحديث من حسنات وسيئات . لقد بحث في نظام الرق وخرج من بحثه بنتيجة
واحدة صريحة : إن الرق ضروري لبناء كل ثقافة في العالم ؛ وإن « فساد » المجتمع
الحديث يرجع إلى إنشاد الناس الحرية والمساواة . وكان الناس يعتبرون نيتشه عدواً
للنصرانية ، وكان هو نفسه يشعر بأنه كذلك . ولكن عداؤه لذلك الدين نتج عن
نظرته إلى المسيحية أنها دين الرق والاستعباد ، وكان شعوره الظاهر أنه بسبب قيام
الشعوب المستعبدة في العالم القديم في وجه نظم الرق التي أقرتها المسيحية ظهرت إلى
الوجود الديمقراطية ، والإنسانية ، والاشتراكية وجميع النظم الاجتماعية والسياسية
التي انتشرت في العالم الحديث والتي ظفرت جميعها بمقت نيتشه وكرهيته . غير أنه يقول :
إن المسيحية والبوذية ذات منافع تستحق التقدير والإعجاب إذا استعملت كمخدر
للسعوب - « للتغلب على كل مقاومة يبيدها الناس في وجه سلطان الحكومة »
و « لتعليم جميع الطبقات من السكان ، ومنهم الطبقات الدنيا ، أن يقنعوا ويرضوا بحياتهم
في هذا العالم رغم جميع الصعوبات التي تكتنف معيشتهم » . أما فلسفته الإيمانية
فهى مؤسسة على النشوء والتطور . إن أساس الحياة هو « إرادة الحكم » . لا يتألف
« الخير » من « السعادة » ؛ ولكن الخير كل الخير هو في « القوة » . ولا يتألف
« الشر » من الآلام ؛ ولكن الشر كل الشر هو في « الضعف » . وكان هذا هو
« إعادة تقدير قيم الأوضاع » الذي يطالب نيتشه إلى العالم أن يتمسك به . يجب أن

يستعبد العديد الأجل من الناس ليتسنى لعدد قليل منهم أن يتسلقوا منازل العظمة . وكما أن تنازع البقاء بين الحيوانات أنشأ الإنسان ، كذلك سينشئ تنازع القوة بين الناس « الإنسان السامى » . وهذا فى رأى نيتشه غاية حياة الإنسان .

لقد اتهم نيتشه بأنه أوحى « بالنازية » . والواقع أنه لم يكن ألمانياً وطنياً بل كان يسمى نفسه « أوروبياً صالحاً » . وكانت مؤلفاته تنص بالتهجم على الألمان . وكان تهجمه مسلطاً على الصفات التى يعتبرها فيهم ضعيفة - كتمسكهم للفلسفة الخيالية ، وحيرتهم فى شؤون الحياة وما إلى ذلك .

على أنه لو عاش نيتشه إلى أن رأى ألمانيا تحاول أن تحكم بالعالم لكان يوافق على ذلك طبعاً . إن دعوته « لإيجاد طبقة جديدة من البشر تحكم أوروبا » وتصريحه بأن « القرن التالى سيجلب معه صراعاً عنيفاً لحكم العالم » كانا من الأمور التى صدقتها الأيام . وإذا بحثنا فلسفة نيتشه بمجموعها لاستطيع عندئذ أن نبرئه من نشر الدعوة للنظم السياسية والاجتماعية التى ما يزال العالم يقاسى ويلاتها اليوم . فلقد كان أكبر « فلاسفة القوة » الذين عرفهم العالم منذ أيام ميكيفيل . ولكن نيتشه لا يعتبر مخترعاً « لنظام الاستعمار » كما أن ميكيفيل لم يعتبر مخترعاً « للنهضة » . إن أساس النظام الاستعمارى موجود فى اقتصاد عصرنا الحاضر . إن اقتسام أفريقيا ، وإن افتتاح آسيا للأوروبيين ، مع ما استلزمه كل ذلك من التحالف العسكرى ، وما نتج عن ذلك من المخاوف الدولية - كل هذه الأمور مهدت السبيل أمام الحرب العالمية الأولى . « لقد تساءل لورد روزبرى ، وكان هو نفسه استعمارياً : ما إذا كانت أوروبا بتسابقها فى التسلح ستعود القهقرى إلى البربرية ، أم إن بناء العالم سيثورون عليه فى النهاية ؟ » إن التوسع الاستعمارى - وكذلك ، الحروب إلى حد ما ، - كانت تعنى الانتعاش

الاقتصادى والتجارى . والانتعاش الاقتصادى ينتج بالضرورة زيادة الأعمال وزيادة الأجور للعمال وزيادة فى الأموال التى تنفق على الشؤون الاجتماعية العامة . وكان عدد الناس الذين حبسوا الحرب قليلا جدا . ولكن عدد الأفراد الذين قدروا أن كل المقدمات الموجودة ستنتج الحرب حتماً كان أقل من ذلك . « حتى إن برنارد شو وهو فى الرعيل الأول من مفكرى الاشتراكية وحامل لواء نقد ما سماه « جهل الخاصة » لم يقرر شيئاً فى هذا السبيل . لقد بارك الاستعمار فى جنوب أفريقيا وحمل عليه فى دنشواى ؛ هجا « العسكرية » فى رواية ألفها ، ورأى ، فى رواية أخرى ، فى « الدينار والمدفع » خير سبيل للإخلاص ؛ وقارن بين نيتشه وماركس ووافق كلاهما على آرائه ، ثم تشكك فيما إذا كان قد فهم هو غايتيهما » .

على أن الإجماع بكاد ينقعد الآن بأن أعظم نتيجة للحرب العالمية الأولى كانت الثورة الروسية . فقد أبطل مفعول الحكومة الروسية التى كانت قائمة على أنظمة القرن الثامن عشر ، وأهملت تكييف بلادها لمقتضيات العصر الصناعى - بسبب شدة الحرب - . واستولى على الحكم حزب يؤمن بمبادئ ماركس وإنجلز . وليس من موضوع هذا الكتاب أن نبين ما إذا كان هذا الحدث وما ينتج عنه من الأحداث الأخرى - كتطبيق النظريات الماركسية عملياً وتنظيم الأمبراطورية الروسية السابقة على أسس اشتراكية وما أحدث ذلك من التأثير فى الحركة العمالية الغربية - كان لمصلحة الإنسانية أم لضررها .

وهنا ينتهى بنا المطاف ونقف عند هذا الحد متسائلين ! ثم ماذا ؟

الفصل الحادى عشر

خاتمة

لقد طفنا مع التاريخ فى عوالمه ، وقلبنا الطرف فيما بدا لنا من معالنه ، فتبيناً أن النظم الاجتماعيه كانت دائماً من صنع الجماعات الانسانيه فى حركاتها التطوريه . وألفينا الجماعه الإنسانيه فى المجتمع الابتدائى تتألف من القبيله التى كان نظام السلوك الاجتماعى فيها لا يتعدى الحركات التى يملها عليها تنازع البقاء مع غيرها ؛ ووجدنا المجتمع المتمدن أكثر تعقيداً من القبيله الابتدائيه : ذلك لأنه نشأ من تجمع عدّة قبائل واندماجها بالمدن ، ومن ثم نشأ من اتحاد عدّة مدن بعضها ببعض وتكوينها لمملكه أو إمبراطوريه . وعلى ذلك فقد وجدنا فى النظم الاجتماعيه مسأله معقده تصطدم فيها الواجبات المختلفه - الواجبات القبليه والواجبات المدينه والواجبات الوطنيه . وهذا التصادم يعتبره تعقد آخر بسبب تقسيم المجتمعات المتمدنه إلى طبقات - طبقات الأحرار والأرقاء ، والساده والعبيد ، والأغنياء والفقراء . والصراع الذى يحدث بين جماعه وأخرى - سواء أوقع بين المدن والممالك والإمبراطوريات أو بين الطبقات - هو ماده التاريخ ، وقد يصحبه دائماً صراع بين النظم الاجتماعيه والأخلاقية المتباينه يؤدى فى أيام الشده والأزمات التاريخيه إلى تغيير واسع فى « تقدير قيم الأوضاع » .

ومن الطبيعى أن يحاول المتخاصمون فى ذلك الصراع تقويه مراكزهم وتثبيتها بادعاء كل منهم أن نظامه الاجتماعى والأخلاقى أوحى به « كائن » أعظم منهم . وقد كان لكل مدينه - فى المدينات الأولى - إله خاص بها ؛ وكان ذلك الإله يمثل فى

ملاحم الحروب وسير الأبطال بأنه يدافع عن مدينته ويحميها . وعند ما كانت تتحد عدة مدن في أمبراطورية ما كان إله المدينة الحاكمة يُعتبر الإله السامى القدير . وحالما يقع صدام اجتماعى فى مدينة ما ، تؤيد كل من الطبقات المتخاصمة دعواها بالتجأها إلى إلهها الخاص تطلب عونه ؛ وعند ما يتعدى ذلك الصراع حدود المدن ويحتاج ممالك أو أمبراطوريات بكاملها يدخل عندئذ الإله السامى فى المعركة . وفى كل هذه الحالات يمثّل الإله وحيدة الجماعة . ليس الإله هو الذى يوحى بالنظام الاجتماعى والأخلاقى ؛ وإنما الجماعات المتناحرة هى التى تخلق النظام الاجتماعى والأخلاقى وتخترع لها إلهاً .

لقد صادفتنا فى بحثنا لمدينيات ثلاثة نظم اجتماعية وأخلاقية قديمة لم ترتكز فى علة وجودها ، أو تعتمد فى إثبات صحتها على الفلسفة الإلهية . ومن تلك النظم البوذية والكنفوشيوسية ، وبعض مذاهب الفلسفة اليونانية . ولعلّ الأخيرة - مذاهب الفلسفة اليونانية - كانت الوحيدة بين تلك النظم جميعاً التى تركت أثراً خالداً فى العالم . ذلك لأن جوتاما - مع أنه كان مصلحاً حرّ الفكر - أدار قفاه للحياة الدنيا وطلب إلى أتباعه أن يقلدوه فى ذلك ، فقطع على نجاح فلسفته سبيل المستقبل . أما البوذية التى اجتاحت الشرق الأقصى فيما بعد فليست تتصل بفلسفة جوتاما فى شيء اللهم سوى الاسم . وأما الكونفوشيوسية فهى ، على الرغم من الشك الذى أحاق بحياة مؤسسيها ، تقليدية محضة . وقد توافقت تعاليمها مع المذاهب القائمة فى الشرق الأقصى وأصبحت مع مرور الأيام واحداً من تلك المذاهب . غير أننا وجدنا فى اليونان - بين الأقوام التى لم تكن خاضعة لحكم الكهنوت إلا إلى حد بسيط ، تلك الأقوام الذين حتمت عليهم الأسفار أن يتفكروا فى هذا الكون - محاولات إيجابية لبناء نظام اجتماعى وأخلاقى يستند بمجموعه إلى وحي العقل .

وكانت منزلة أفلاطون في صف الفلسفة - على ما يبدو لنا - تقع في أقصى اليمين . وكان هدفه الأسمى أن يضع أساساً معقولاً للمجتمع الإغريقي بطبقاته المتعددة المؤلفة من طبقة الارستقراطيين وطبقة العبيد والخدم . غير أن محاولاته باءت بالفشل فتوجه في النهاية إلى إلهه ليجعل منه حامياً للنظام الاجتماعي . وكانت منزلة أبيقور تقع بالمقابلة في أقصى اليسار . فقد اعتبر الخير في الميزات والشر في الآلام ، وقال إن النظام الاجتماعي والأخلاق الصحيح هو : في أن تُمارس اللذات وتُستبعد الآلام . ولما لم يكن المجتمع اليوناني مؤسساً على هذا النظام الاجتماعي أدار أبيقور قفاه إلى الناس وأنهمك في زراعة حقله . وكان موقع الرواقين بين هاتين المنزلتين ؛ فكانوا يبحثون عن أساس يقيمونه للمجتمع اليوناني من طبيعة الأشياء . واستخرجوا من ضعف الدويلات اليونانية وأنهارها صورة للأخوة الإنسانية . ولكن الشروط المقتضاة لإبراز تلك الصورة بالفعل إلى حيز الوجود لم تكن متوفرة في مجتمع انتشر فيه نظام الرقيق وطنى عليه . فكانت النتيجة أن قضت الأمبراطورية الرومانية على هؤلاء أيضاً .

ثم كانت المسيحية وهي مثال على نظام أخلاقي يعتمد في صحته على مصدر عالٍ . ولما كانت قد نشأت بين جماعات الفقراء وجماعات الجُهلاء ، أيام بلغت مدينة الرقيق ذروتها في التاريخ ، لذلك نجدها ، من ناحية ، تضمنت مبادئ التعاون المتبادل الذي اقتضته ظروف الحياة في محيط نشأتها ، ولكن تلك المبادئ لم تكن من نسج المسيحية أو خاصة بها على وجه الاستقلال ؛ ومن الناحية الأخرى قررت أن الخلاص من هذا العالم الذي فسد لا يكون إلا بتدخل إلهي . وهذه النظرية ذات حدين : فقد يحمل اليأس فريقاً من البؤساء على اعتبار أنفسهم رسل الإله وشفعاء فيثورون في وجه السلطان . ثم إذا ما فشلت الثورة أو قُضى عليها لا يقف الأمر عند هذا الحد . ذلك لأن نظرية التدخل الإلهي ستظل بعينها المخدّر الوحيد الذي يُهدى من قلق الناس

ويخفف من حدّتهم وغلوّاتهم . وقد برهن تاريخ المسيحية أنّها حققت هذين الهدفين . لقد وعدت الفقير والجاهل بالنعيم في حياة ما وراء القبر ، وبذلك ساعدت على أن تجعل هذه الحياة الدنيا من حظ الحكام الذي تعتبر جميع الأديان في نظرهم سرا باً خداعاً لكنه نافع لهم في تنمية مصالحهم وحمايتهم .

ولكن هذا « التموه » ظهر للملأ عياناً فيما بعد . ذلك لأن الزعامة الدينية أعاقت سير التقدم الإنساني فظهرت معارضة الناس سافرة أمامها . واحتكم المقاومون بأدى الأمر إلى الكتاب المقدس ؛ ثم احتكموا إلى « الوجدان » وبعدئذ جعلوا حكمهم العقل الصحيح . وفي جميع هذه الأدوار كان الاحتكام إلى سلطان دائم أبدي . غير أن هذا السلطان الأبدي المطلق أصبح مع ازدياد تحكم الإنسان بالطبيعة خيالياً خالصاً ، فقد زالت « كلمة الله » التي احتكم إليها البروتستنتيون مثلاً - من طلبات الإصلاح - وحلت مكانها كلمة « العقل » التي احتكم إليها الثوار الإفرنسيون ضد الظلم . وقد أنبأنا مؤخراً علم الأحياء وعلم الاجتماع « أن العقل ليس بروح مجردة عن الجسم ومستقلة عن الزمان والمكان ، وإنما هو حركة الإنسان في جماعته الاجتماعية ، ويجب أن يقتصر استخدامه على الأغراض التي تقتضيها حياة تلك الجماعة » .

ولكن ما هي الجماعة الاجتماعية ؟ إن جماعة الإنسان الأصلية ، أو القبيلة ، تكاد تكون اليوم في العالم الغربي أندر من العنقاء . والدولة القومية الحديثة ليست قبيلة ؛ وكل مقايضة تجريها بينهما تبوء حتماً بالفشل . إن الدول القومية قد ظهرت في العالم الحديث نتيجة لأحداث عسكرية واقتصادية لا تخفى على كل مؤرخ . وجلها تتمتع بوحدة اللغة ولكن وحدة العرق مفقودة فيها تماماً . ولا نجد في أية دولة منها تعاوناً حقيقياً بين الناس كما كان يفعل أبناء القبيلة الواحدة . ولسنا نستطيع تصور قبيلة تجري فيها المنافسة الحرة في الانتخابات العامة وتقوم فيها أحزاب سياسية مختلفة الغايات والمبادئ ويجري فيها الشعب الثوري وما إلى ذلك مثلاً . والواقع « أن الجماعة ليست « جمعية »

بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ؛ وليست هيئة حكومية لها شخصية كاملة تضم عدداً من الأنفس وتنتظمهم في مجتمع يقوم على أساس تجانسهم في الثقافة والميول . ولكنها مجرد نظام واحد من النظم الثقافية الكثيرة التي يؤلفها الأفراد بمحركاتهم وأعمالهم وينتسبون إليها . فهناك مثلاً المئات والألوف من الجماعات المختلفة قد أقامها السكان في المدن الكبيرة ، من المجالس البلدية التي يشترك جميع السكان في إحيائها إلى جماعات الأسر الصغيرة التي يشترك عدد قليل من الأفراد في كل منها ؛ وهناك جماعات تؤلف كل يوم ^١ .

وهناك أنواع كثيرة من الجماعات ، تتفق وتباين من حيث النشأة التطور : نجد من بينها جماعات فانية زائلة ، وجماعات دائمة ؛ جماعات متجانسة الأفراد ، وجماعات متباينة الأعضاء ؛ كما نجد من بينها جماعات طبيعية ، وجماعات وضعية مصطنعة تحتاج دائماً في وجودها إلى قوة خارجية تحافظ على وحدتها وكيانها ؛ ونجد من بينها أيضاً جماعات ابتدائية بسيطة التكوين ، وجماعات منظمة إلى أبعد حد التنظيم ، معقدة إلى أبعد حدود التعقيد ، حسنة الشكل قوية البنیان .

ولعلّ من أجل الأمثلة على الجماعات المنظمة المصطنعة الدائمة أهل الديانات ، والجيش .

إن أهل الأديان والجيوش هي جماعات مصنوعة ، أي إن هنالك سلطة خارجية تحول دون تفككها وانحلالها وتراقب كل تغيير أو تعديل يحدث في تشكيلها . ولا يسئل الفرد أو يخبر - عادة - ما إذا كان يرغب في الانتساب إلى هذه الجماعات ؛ وكل من يحاول الخروج منها إما أن يُصب عليه سوط العذاب والاضطهاد وإما أن تكون هنالك شروط خاصة يجب عليه القيام بها قبل ذلك . وليس من موضوع بحثنا

أن نبين هنا الأسباب التي أوجبت وجود هذه القيود في تلك الجماعات . وإنما جذبنا إليه أمر واحد هو أن كثيراً من الحالات السكائمة في الجماعات الأخرى تظهر لنا جليلة واضحة في هاتين الجماعتين ، المنظمتين إلى أبعد حد التنظيم والتتين تحول ظروف معينة دون تفككهما .

إننا نجد أهل الدين الواحد (وسنعمد على الدين الإسلامي كنموذج لبحثنا) كما نجد رجال الجيش الواحد - مهما تكن وجوه الاختلاف بين الجماعتين من النواحي الأخرى - يخضعون لرئيس أعلى لهم - محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند جماعة المسلمين ، والقائد الأعلى عند جماعة الجيش - يساوى بين جميع أفراد الجماعة بحبه لهم وحده عليهم . فلو زال هذا الأمر الاعتباري لانتحل كلتا الجماعتان بقدر ما تسمح الظروف الخارجية لها بالانحلال . فرسول الله حريص على المسلمين ، عزيز عليه ما عنتوا ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ؛ آخى بينهم في حب الله « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون » .

وإنك لتجد أن مصدر الفروض التي على المسلم هو حب الله :

إن الله يحب المحسنين ؛ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ؛ فإن الله يحب المتقين ؛ إن الله يحب المتوكلين ؛ والله يحب الصابرين ، إن الله يحب المفسطين ، إن الله لا يحب المعتدين ، والله لا يحب الفساد ، فإن الله لا يحب الكافرين ، والله لا يحب الظالمين ، والله لا يحب المفسدين ، إنه لا يحب المسرفين ، إن الله لا يحب الخائنين ، إن الله لا يحب الفرجين ، إن الله لا يحب من كان مختالاً غفورا ، قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم .

الناس كلهم عيال الله ، أحبهم إليه أنفعهم لعياله . والروح الديمقراطية تهيم عند أهل الدين ذلك لأن الناس متساوون أمام الله : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؛ وإن

لكل امرئ في حب الله نصيب . والجماعة الإسلامية تشبه الأسرة الواحدة يعتبر أفرادها إخوة « إنما المؤمنون أخوة فاصلحوا بين أخويكم » . ولا جدال بأن الصلة التي تربط كل مسلم بربه هي عين الصلة التي تربط كل مسلم بأخيه المسلم أحب أم كره . والأمر على هذا المنوال في الجيش . فالقائد الأعلى هو أب يحب جميع الجنود بالتساوي ولذلك فهم رفقاء فيما بينهم . ويختلف الجيش عن جماعة أهل الدين لأنه يتألف من زرافات كثيرة من الجماعات . وكل رئيس في الجيش هو القائد والأب لمرؤوسيه .

إن الدول اليوم تتألف من الأفراد والجماعات . ولعلَّ عين الأسباب التي دحجت - في الأزمنة القديمة - القبيلة في المدينة أو المملكة الصغيرة ، وعين الأسباب التي دحجت في الأزمنة الحديثة الممالك والدويلات الصغيرة في الدول القومية ، ستكون عين الأسباب التي ستخلق من الدول القومية جماعات ومجموعات أوسع تشكيلاً ، تمهد السبيل وتعبد الطريق « لدولة العالمين الواحدة » ويسلم الناس لرب العالمين . ولن يكون الوصول إلى هذا الحال سهلاً ليناً . فقد حلت بالنوع البشري كوارث كثيرة وما يزال الناس يلومون « الطبيعة الإنسانية » على كل شر يُعدهم التقاعس والتكاسل عن اكتشاف أسبابه . فالطبيعة الإنسانية مثلاً ليست سبباً للحروب إلا بقدر مانعترها سبباً لآكل لحوم البشر ونظام الرق وحرق السحرة . وقد كانت كل هذه الأمور من العادات المقبولة المتعارفة في أزمنة معينة وأما كن معروفة . وما تزال الحروب موجودة في العالم على الرغم من قربنا من الوحدة الاقتصادية والثقافية اليوم أكثر من أي زمن سابق ؛ ذلك لأننا ما زلنا ندرس شؤون الحياة على أسس قومية مختلفة . لقد أمَّل الناس في هيئة الأمم المتحدة أن تجعل من البشر « جماعة العالمين » يحيا فيها كل فرد حياة خاصة ويقوم - في عين الوقت - بواجبه نحو الجماعة . يعمل لدنياء ويعمل لآخرته . يتحقق بها « الصلاح » الذي كان ينشده قدماء المصريين ، و « الحياة حسب مقتضيات الطبيعة » التي بشر بها الرواقيون و « مملكة الله » التي جاءت بها

«المسيحية»، و «العدل والإحسان» الذى جاء به الإسلام، و «العقل العملى» الذى بشر به كانت و «السعادة العظمى» التى قال بها الفلاسفة النفعيون، و «حرية التقدم للفرد والجماعة» التى وردت فى البيان الاشتراكى. ولكن ذلك اليوم ما يزال بعيداً بسبب أطماع الدول الكبرى وأنانيتها وجشعها. إن نجاح العمل لمصلحة الجنس البشرى كافة يتوقف على التوفيق بين الحقوق الإنسانية وأطماع الدول التى تملك القوى الفتاكة فى العالم. ألم تخيب هيئة الأمم المتحدة آمال المخلصين لها فى ما أبرمته من مقررات ظالمة فى مسألة فلسطين مثلاً؟

ولكن المجال ما يزال مفتوحاً أمام «جماعة العالمين» المنشودة لتثبت كفاءتها فى تنازعها البقاء كأية جماعة أخرى تعمل من أجل كيانها وحياتها.

لقد وصف نيتشه غاية الفلاسفة النفعيين فى قطعة هى من أحسن ما كتب^١ قال: «وستصغر الأرض فى ذلك الزمان فيطفر على سطحها الرجل الأخير الذى يحول إلى حضارة كل ما يدور به، إن سلالة هذا الرجل لا تباد، فهو أشبه بالبراغيث، والإنسان الأخير أطول البشر عمراً.

ويقول أناسى الزمن الأخير متغامزين: لقد اخترعنا السعادة اختراعاً... وإذا هم عملوا فإنما يعملون للتسلية محاذرين أن تذهب هذه التسلية بهم إلى حدود الإنهاك. ليس بينهم من يصبح غنياً أو يمسى فقيراً، وكلا الفقر والغنى يجلب الضنى، وما منهم من يطمح إلى الحكم أو يرضى بالخضوع وكلاهما مخرج مرهق.

ليس هنالك راع وليس هنالك إلا قطيع واحد، إن كلا من الناس يتجه إلى رغبة واحدة، فالساواة سائدة بين الجميع. ومن اختلف شعوره عن شعور المجموع يسير بنفسه مختاراً إلى مأوى المجانين.

١ هكذا تكلم زرداشت - نيتشه، ترجمة فليكس فارس، ص ٣١ - ٣٢ طبعة بيروت

ويعمّر أمكر هؤلاء الناس بعيونهم ويقولون : لقد كان الجميع مجانين فيما مضى .
لقد ساد الاحتراس بين هؤلاء القوم لأنهم أخذوا بالعبر ، فهم يثقلون الحادثات
متهمكين ، وإذا نشأ بينهم خلاف بادروا إلى حسمه صلحا ، لأنهم يحاذرون أن تصاب
معدنهم بالعلل والأدواء .

« لقد اخترعنا السعادة اختراعاً » ذلك ما يقوله أنامى الزمن الأخير وهم يفخرون .
لقد حالت عزلة نيتشه عن العالم بينه وبين التحقق من أنه لا بد لمن يحاول إقامة
« جماعة العالمين » على أسس اقتصادية وسياسية وثقافية أن يتحلى بمؤهلات البطولة
العظمى . فقد وضع صورة « للإنسان السامى » ونحن بحاجة إلى من يقدم خدمات
للإنسان الموجود الذى نعرفه لا « للإنسان السامى » الذى لم نره بعد .

غير أننا على أى حال نغذ السير فى مطافنا إلى خاتمة مجهولة . إن محيط الإنسان
يتغير ويتطور بسرعة عجيبة : وإن الإنسان نفسه هو الذى يثير ذلك التغير والتطور ؛
وهو نفسه يتغير ويتطور معه . وإن المستقبل سيكون خالصاً للذين لا يخافون التجربة
والامتحان ولا يتهيبون من تجشم الأخطار . ولكن من يدرى :

« قل لعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر
الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

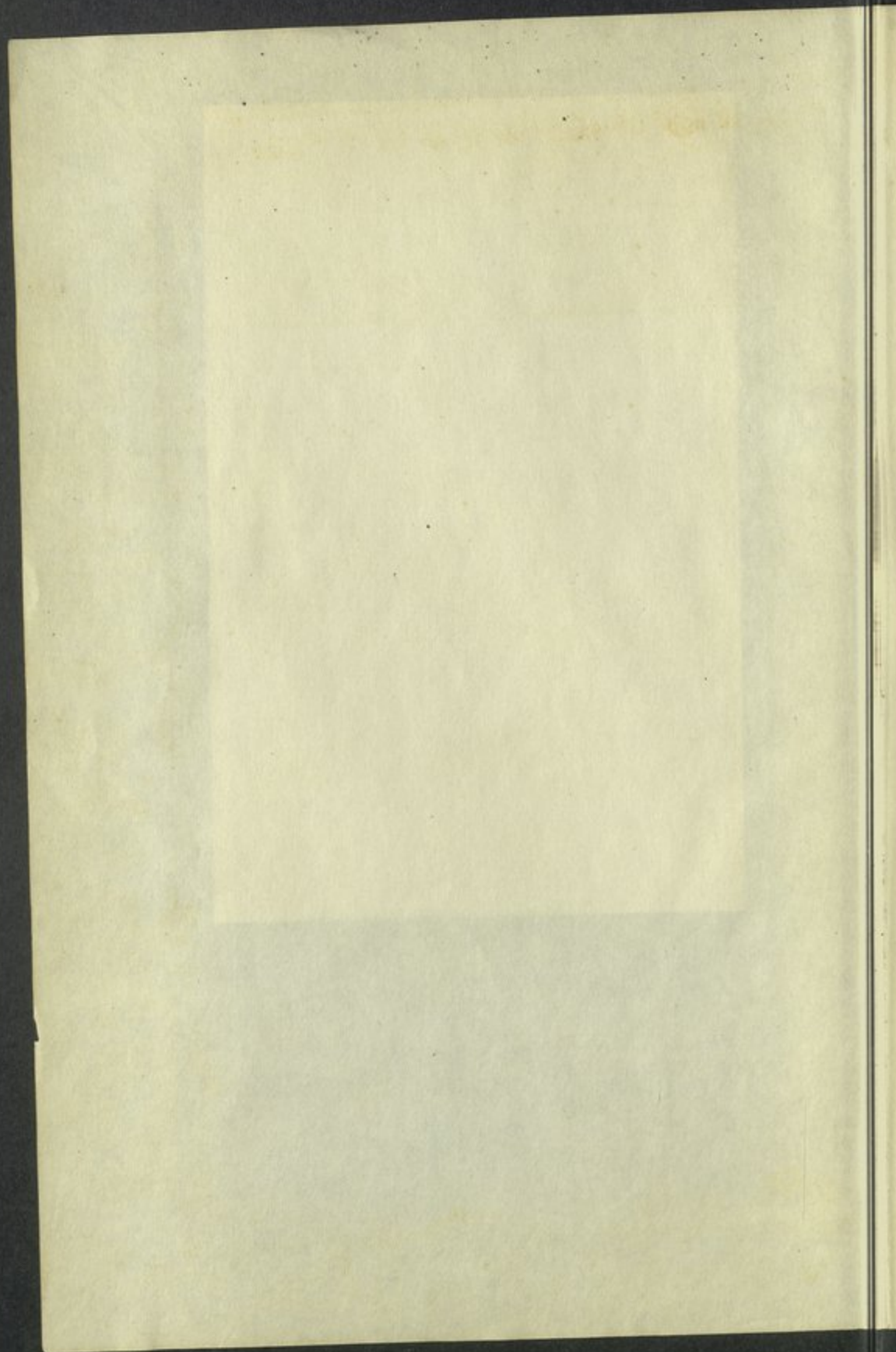
اتتهى

استدراك

وقعت في الكتاب بعض الأخطاء يرجى من القارئ إصلاحها

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٧	٢	سقط عنوان الفصل	وهو « صورة عامة »
١٨	١٧	كالهيم	كالهيمه
٢٠	١١	أعداء	أعداءآ
٢١	١٣	عليها	عليها
٢٣	١٨	ماريز	مارينر
٢٦	١	بجح	نجح
٤٧	٦	Oedipus Complex	Oedepus Complex « النزعة الأوديبية » (نسبة إلى الملك أوديس الذي حملته الغيرة على قتل أبيه لايبوس وتزوج أمه جاكوستا)
٤٨	١	سقطت في أول السطر كلمة	وقوع
٤٨	١١	وجدا	وجد
٤٩	٥	ريفزر	ريفرز
٥٣	٦	Convade	Couvade
٥٤	٩	ممتلئا	ممتلىء
٥٥	٤	سقطت من أول السطر	الأدب الشعبي
٥٨	٥	والترترية	التوتونية
٥٩	٨	الالفانين	الأليفانتين
٦٠	٢٠	بعضها	بعضها البعض
٦٥	١٩	النساء	النساء
٧٠	٣	ظائف	وظائف
٧٣	١٤	وعقيدها	وبين عقيدتها
٧٣	٢٢	راع	رع
٧٤	١٠	رع	رع
٧٩	١٩	واحد	واحدة
٨٠	١١	وارستقراطيته	وأرستقراطيتها

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨٧	١٥	النبلاء	النبلاء
٨٨	٥	مشرعاً	مشرعاً
٨٩	١٦	أنفسهم	أنفسهم
٩٥	٧	الاستقراطيين	الأرستقراطيين
٩٨	١٠	وحدتها	وحدتها
١٠١	١٣	دروسهم	ودروسهم
١٠٤	٩	بفسفة	بفلسفة
١٠٨	٨	المسكين الاسبارطيين	المسكين الاسبارطيان
١٠٩	٧	لصوص	قرصان
١١١	٩	يبيع	يبيع
١١١	١٢	الجزيرة	شبه الجزيرة
١١٤	١	وارتياحاما	وارتياح عالم
١١٩	١٦	صححة	مهمة
١٢٠	١٨	كان	كانت
١٢٣	١٣	الآسى	الآسى
١٢٧	٩	الامبراطرة	الأباطرة
١٢٧	١٠	الوثنيين	الوثنيون
»	١١	الامبراطرة	الأباطرة
»	١٩	كان	كانت
»	١٢	المنيين	المعنيين
١٥١	١٠	ذات أنوات	ذات أنواط
١٥٦	٢٠	cefore	before
١٦٠	١٢	حمل مؤرخ الكنيسة	جعل مؤرخ الكنيسة
		غريغورى	غريغورى





DATE DUE



301:H961fA:c.1

الحسيني، محمد يونس
الفكر الاجتماعي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010799



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

PA